

أيام جزائرية خالدة





أيام جزائرية خالدة

بسام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
الطبعة الثانية : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

○ دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

إلى روح كل مجاهد في سبيل الله
إلى كل من ضحى ابتغاء مرضاة الله .
وإلى كل من كان جهاده خالصاً
من أجل رفعة الإسلام وعز
المسلمين فوق ثرى الجزائر الطهور
وفي كل أرض من ديار المسلمين

بسام



عودة الى الأصالة العربية . التعليم والتوجيه في خدمة المعركة

المقدمة

إنها أيام جزائرية خالدة ، والخلود لله وحده ، ولكن في حياة الأفراد كما في حياة الشعوب أحداث تترك أثراً عميقاً يبقى ثابتاً ما دامت الحياة متدفقة في مسيرتها التي لا تتوقف ، إلا أن يشاء الله . ويبقى ذلك الأثر الثابت قوياً ، حياً ، نابضاً ، لأنه يمثل ذروة الصراع في الحياة الإنسانية حيث تلتقي الحياة والموت عند نقطة المصير . تلك هي أحداث الثورة الجزائرية بكل ما حفلت به أيامها ولياليها طوال السنوات التي فصلت بين ليل الاستعمار وفجر الجزائر الجديد ـ فجر الاستقلال .

و (الأيام) كلمة استخدمها العرب منذ القديم للدلالة على أحداث بارزة في حياتهم ، كان لها دورها في حياتهم ، فكان (يوم الفجار) و (يوم ذي قار) و (يوم داحس والغبراء)، وجاء الإسلام فحافظ العرب المسلمون على تراثهم وتقاليدهم ، فكانت لهم : أيام العراق ، وأيام القادسية ، ويوم الجسر (المروحة) ، ويوم نهاوند (فتح الفتوح) ، ويوم اليرموك . وتمضي الأيام ، ويسجل العرب المسلمون تاريخهم على صفحة التاريخ ، لا يمضي جيل إلا ويضيف يوماً جديداً إلى سجل المجد والخلود ، حتى لتكاد صفحات التاريخ تضيق بما تحتويه . ويأتي على الأمة العربية والإسلام حين من

الدهر ، تكاد تنسى فيه ـ لشدة ما أصابها ولقوة ما نزل بها ـ أيامها الخالدات ، لكن ذاكرة الشعوب تبقى قوية ، جبارة ، متعاظمة ، ترتفع على الأحداث مهما عظمت ، وتكبر على النوائب مهما قست واشتدت .

هكذا كان شعب الجزائر المجاهد ، ومن قلب المحن ، ظهرت الأيام التي ربطت بين صفحات الماضي بصفحات المستقبل ، فكان الأجداد الصيد من أمثال : الأمير عبد القادر ، والحداد ، والمقراني ، وبو معزة ، ولالا فاطمة ، وآخرون لا زالت أيامهم ذكراً على شفة التاريخ ولسان الأجيال .

ثم تأتي الثورة الحاسمة ، فتكون أيامها ولياليها ، ساعاتها ودقائقها ، كلها نسيج متصل من البطولات الخارقة والأعمال الرائعة حتى لتكاد تشكل بمجموعها يوماً واحداً ، غير أنه يوم لا يقاس بعمر الزمان .

لقد تمثلت (أيام الجزائر الخالدة) بما قام به رجال جيش التحرير الوطني الجزائري ، من مجاهدين ومسبلين وفدائيين ، وبما اضطلعوا بتنفيذه من جلائل الأعمال . وسبق في الكتاب رقم (١٠) من هذه المجموعة ، التعرض لأعمال الجيش وتطوره ، غير أن البحث أوسع من أن يأخذ حقه في كتاب أو عدد من الكتب ، وإذن فلا بد من التعرض للحد الأدنى والضروري حتى تكون الفكرة أكثر وضوحاً ، وحتى يكون البحث أكثر شمولاً واتساعاً .

وقد يظهر من غير المهم ـ للحظة من اللحظات ـ الإسهاب في بحث حادثة معينة ، أو تضمين الكتاب وثيقة من الوثائق ، تجاوزها الزمن ، وحدث عليها كثير أو قليل من التغيير ، غير أن قضية البحث

هنا هي قضية تسجيل تاريخي لمرحلة معينة قد يكون من الضروري جداً ـ لأمانة البحث من جهة ، ولإجراء المقارنة مع التطور اللاحق من جهة ثانية ، عدم إسقاط تلك الأحداث أو إهمال تلك الوثائق ـ وهنا أيضاً ، وإذا كان من المحال ذكر كل ما هو متوافر من الوثائق فلا أقل من التعرض لبعضها وتحقيق نوع من التوازن الذي يحقق الهدف ، وهو : لا إيجاز يخل بالموضوع ولا إسهاب يبتعد بالبحث عن غرضه . تبقى هناك نقطة لا بد من ذكرها :

لقد سقط في حرب التحرير مليون ونصف المليون من الشهداء الأبرار ، ولكل شهيد قصة تستحق التسجيل ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فقد تعرضت كل قرية وكل ضاحية وكل مدينة لأحداث لا يمكن حصرها . وكلها تستحق التسجيل ، لأنها تراث تاريخي وتجارب هامة تشكل بمجموعها قصة التجربة التاريخية للجزائر في معاناتها مع الاستعمار . غير أن الإحاطة بكل تلك الأحداث هي من الأمور التي يصعب بلوغها . وهنا أيضاً كان لا بد من الاختيار والانتقاء . وهذا الاختيار والانتقاء لا يعني أهمية هذه الأحداث أكثر من سواها . ولا يعني إعطاءها الأفضلية على غيرها .

ولعل من المناسب الإشارة إلى أن المتحف الوطني للمجاهد ـ مركز الوثائق ـ والمركز التاريخي للبحوث في الجزائر ، يعكف حالياً على جمع ما يستطيع جمعه من (قصص المجاهدين) وقد تكوّن لدى هذه المراكز نتاج ضخم ـ وقد يفتقر إلى الوثائقية الدقيقة ، غير أنه يضم يقيناً تراثاً ضخماً قد يظهر في المستقبل صورة أكمل وفكرة أفضل عن دور المجاهدين في الثورة ، ويساعد على إغناء مادة (البحث التاريخي) .

وبعد ، وعلى الرغم من كل ما كتب ، وكل ما سيكتب عن (أضخم ثورة عربية إسلامية في العصر الحديث) ، فإن تراث الثورة وأمجادها لا زالا في حاجة للمزيد من البحث والدراسة حتى تأخذ هذه الثورة الرائدة حجمها الطبيعي في الإطار التاريخي . وحتى يتم الإفادة من التجربة التاريخية للجزائر ، لا في الحدود الجغرافية للجزائر فحسب ، وإنما في كل أرجاء العالم العربي - الإسلامي . والله أسأله التوفيق .

بسام العسلي

الفصل الأول

١ ـ قصة الثورة الجزائرية .

آ ـ المخاض العسير .

ب ـ البداية الشاقة .

ج ـ التوازن الإستراتيجي ـ (١٩٥٦ ـ ١٩٦٠) .

د ـ من التوازن إلى الهجوم الإستراتيجي .

٢ ـ لاكوست ـ والثورة المضادة للثورة ـ .

٣ ـ شال ـ على خطى (نافار) .

٤ ـ ذريعة (أوروبيي) الجزائر .

آ ـ دراسة عن الأقليات الأوروبية في الجزائر .

ب ـ رسالة جبهة التحرير الوطني إلى الفرنسيين .

ج ـ رسالة جبهة التحرير الوطني إلى اليهود .

٥ ـ ثورة الجزائر تنتقل إلى فرنسا .

آ ـ تقرير الصحافة عن الحرب في فرنسا .

ب ـ قصة المعركة في كتابة الثوار .

٦ ـ مع المجاهدين في معاقلهم .

٧ ـ ومع قائد من المجاهدين



حضارة فرنسية تتحدث عن نفسها

١ ـ قصة الثورة الجزائرية

يتفق الشعب الجزائري المجاهد ، على حقيقة ثابتة ، وهي أن ثورته التي فجرها في الفاتح من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ **١٩٥٤** ـ لم تكن وليدة ظروف عابرة أو طارئة ، ولا هي صراع مع الاستعماريين من أجل مصالح مادية أو مكاسب اقتصادية ومنافع مالية ـ على نحو ما يميز الصراعات المتفجرة في عالمنا المعاصر ، وإلا لما اكتسبت صفتها (الثورية الأصيلة) . وعلى هذا ، فإن هذه الثورة هي امتداد متطور لمقاومة الشعب الجزائري التي لم تتوقف أو تنقطع طوال فترة الحكم الاستعماري الجائر . وهي تعبير جديد لما يشعر به الشعب الجزائري منذ حلول الفرنسيين في بلده ، من امتهان لكرامته ، وجرح لعزته القومية ، وهضم لحقه في حياته الحرة الكريمة على أرض آبائه وأجداده .

فجاءت الثورة لتفجر في الشعب طاقته المكبوتة للتعبير عن أصالته الذاتية ، ولتضمن له انطلاقته نحو آفاق التطور ومسايرة ركب الإنسانية المتقدمة دوماً نحو الأمام . وإذا كان الشعب الجزائري المجاهد لم يتوقف أبداً عن مقاومة الاستعمار وسيطرته بمختلف الوسائل الحربية والسلمية، فإن عوامل كثيرة منعت مقاومته من بلوغ ذروتها في الاتساع والشمول والإرتفاع ، على نحو ما بلغتها في ثورة

الفاتح من نوفمبر ، منها الشدة المتناهية لأساليب القمع الإستعماري ، ومنها مجموعة الظروف العربية والإسلامية والدولية ـ القريبة والبعيدة ـ والتي لم تكن مساعدة . فجاءت ثورة الفاتح من نوفمبر ، فغيرت بحكم تنظيمها وعمقها بعض هذه الظروف ، وجاءت الظروف الأخرى فساعدت على نجاح الثورة وتطورها والوصول بها إلى أهدافها .

وقد يكون من المحال ، إعطاء هذه الثورة العظيمة حقها من البحث التاريخي بالرغم من كل ما كتب وسيكتب عنها ، إلا أن ذلك لا يمنع من التعرض باستمرار إلى مقدماتها ومراحل تطورها وما حققته من منجزات ضخمة على جميع المستويات والصعد خلال مسيرتها الشاقة الطويلة . وقد جرت محاولات كثيرة لتقسيم الثورة ـ زمنياً ـ إلى مراحل مميزة ، غير أن الاختلاف على حدود هذه المراحل بقي ظاهراً ومتبايناً . ذلك أن النسيج التاريخي للثورة هو نسيج شديد التلاحم مما يجعل من الصعب وضع حدود مميزة عند مراحل معينة . وإذا اجتهد المجتهدون ، وبحث الباحثون على حدود واضحة يمكن الإستناد إليها بهدف الدراسة ـ لا أكثر ولا أقل ـ فإن ذلك لا يعني أن الحدود المفروضة هي حدود لها وجود . ولو بصورة نظرية . وتبقى شدة تماسك نسيج الثورة أقوى من كل القيود أو الحدود .

أ ـ المخاض العسير :

عرفت الجزائر في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٩ ـ ١٩٤٥) نهضة فكرية تفتحت عن وعي ثوري حقيقي ، حيث انطلقت النخبة المتعلمة لدراسة التجربة الثورية الجزائرية منذ بداية استعمار فرنسا للجزائر (٥ ـ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٠) مع ربط ذلك بظروف العالم العربي ـ الإسلامي والظروف

الأولية ، وما حدث في العالم العربي - خاصة - من ثورات واضطرابات ضد القمع الاستعماري . وتأسست في الجزائر الجمعيات الثقافية والنوادي ، وصدرت الصحف التي باتت منابر لمناقشات المثقفين بشأن واقع الجزائر وحاضرها ومستقبلها . وكانت أصداء هذه المناقشات تصل إلى قلوب الشعب فتهزها بعنف ، وتوقظ فيها كوامن الغضب ضد الممارسات الاستعمارية من كبت للحريات واضطهاد للوطنيين وإلقائهم في السجون والمعتقلات ، وانتهاك للحرمات والمقدسات . وانتهى ذلك إلى تحقيق نتيجتين أساسيتين : أولاهما : دعم الروابط الدينية والقومية والوطنية بين فئات الشعب المختلفة . وثانيتهما : اكتساب القدرة التنظيمية في الأحزاب والمنظمات والهيئات المختلفة ، وتطوير العمل السياسي العلني منه والسري .

انتهت الحرب العالمية الثانية ، وجاءت مذبحة (٨ - أيار - مايو - ١٩٤٥) لتفرض على الجزائر المجاهدة موقفاً جديداً . فقد سقط في هذه المذبحة (٤٥) ألفاً من شهداء الجزائر الأبرياء . وكان ذلك تحولاً حاسماً ، إذ أدرك الجزائريون أنه من المحال عليهم بلوغ أهدافهم إلا بوسائط الصراع المسلح . وجاءت أحداث القمع التالية لتؤكد هذا المفهوم ولتترجمه إلى قناعة ثابتة ، وأظهرت الأحزاب السياسية عجزها وقصورها ، فكان البديل الطبيعي هو تطوير التنظيم السري من خلال (المنظمة الخاصة) في حزب الشعب الجزائري . وانصرف الجهد إلى جمع الأسلحة وإعداد الخلايا الثورية حتى يحين الوقت المناسب لتفجير الصراع المسلح . ورغم أن السلطات الاستعمارية قد اكتشفت بعض خلايا الجهاز السري ، وألقت بقادته وموجهيه في السجون والمعتقلات ، وحكمت على بعضهم

بالإعدام . غير أن عملية القمع هذه لم تدمر قاعدة التنظيم على ما يظهر ، ولو أنها أخرت من موعد تفجير الثورة .

فتابع بعض القادة والموجهين نشاطهم السري ، واعتصموا بالجبال ، وابتعدوا عن الحياة المدنية منذ سنة ١٩٤٨ . وأمكن لبعض الرواد الثائرين الهرب من معتقلات العدو ، واللجوء إلى الجبال ، أو الانتقال للعمل خارج البلاد . وفي صيف سنة ١٩٥٤ ، ظهر للرواد التاريخيين أن موعد فجر الثورة بات قريباً . ففي الخارج كانت حركات التحرر الوطني تحقق النصر تلو النصر ، وفي الحدود الشرقية والغربية كانت ثورة القطرين الشقيقين (تونس) و (المغرب) تلهب مشاعر جماهير الشعب الجزائري ، وتدفعها لحمل السلاح والسير على طريق الثورة المسلحة . وفي داخل الجزائر ، كانت الممارسات الاستعمارية تزيد من احتمالات تفجير (برميل البارود) . وكان الاجتماع التاريخي في (١٠ تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٤) في العاصمة الجزائر . حيث تقرر إطلاق رصاصة الثورة ، ووضعت اللمسات الأخيرة على مخططات انطلاقة الثورة . ونظمت (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) . وانطلقت ثورة الفاتح من نوفمبر (في ليل عيد جميع القديسين) .

ب - البداية الشاقة :

فوجئت السلطات الاستعمارية ، وبوغت العالم كله ، بوقوع سلسلة من الهجمات المسلحة التي شنها المجاهدون الجزائريون على المنشآت والمراكز العسكرية الإفرنسية في كامل أنحاء الجزائر ، وعلى الأخص في جبال الأوراس ، والشمال القسنطيني ، والقبائل الكبرى ، ونواحي الجزائر وتلمسان . وكان ذلك إيذاناً ببداية الحرب طويلة الأمد والتي استغرقت مدة سبع سنوات ونصف .

كان رد الفعل الأولي لفرنسا ممثلاً بموقف رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك (مانديس فرانس) الذي أعلن : « بأن جواب فرنسا على هذه العمليات التمردية هو الحرب » وبادر بإرسال قوات المظليين في ٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤ . وكان هذا الإجراء هو بداية تاريخ المظليين الفرنسيين في الجزائر ، وهو التاريخ الذي يشكل صفحة سوداء في جملة صفحات الاستعمار الإفرنسي المميز بجرائمه القذرة ، وأساليبه الوحشية الشائنة : فقد بدأ هؤلاء - أصحاب القبعات الحمر - على إجلاء المواطنين المسلمين بناحية أوريس ، ودمروا القرى والمداشر بقنابل الطائرات . ومارسوا أعمال الإبادة الإجماعية والتعذيب اللاإنساني ، والاعتقالات الرهيبة . وبدأت المعارك الطاحنة بين القوات الإفرنسيه ومجاهدي جيش التحرير الوطني الذين أظهروا في صراعهم المرير وغير المتكافيء بطولات أثارت إعجاب العالم .

كانت ردود فعل الجماهير الجزائرية مختلفة ، متباينة - كما كان متوقعاً - إذ أنه من المحال تدمير هيبة الاستعمار بضربة واحدة بعد تلك الهيمنة الطويلة التي رافقت عمر الاستعمار . وكان لا بد من إقناع الجماهير بمجموعة من الحقائق لإجراء التحول المطلوب ، وأبرز هذه الحقائق :

أولاً - قدرة الإنسان الجزائري المسلم ، على تحدي الإنسان الأوروبي - الإفرنسي - الذي شكل عقدة (تفوق الرجل الأبيض) وذلك بصرف النظر عن التشابه باللون إن كان هناك ثمة تفوق عنصري - أو عرقي - يرتبط بلون البشرة .

ثانياً - قدرة الإنسان الجزائري المسلم ، على خوض الصراع المسلح في حرب طويلة الأمد . إذ كان صمود الثورة واستمرارها

شرطاً أساسياً لإجراء التحويلات المطلوبة في وسط الشعب الجزائري :

وعلى هذا ، فقد كانت فئات الشعب في الريف والجبال ، أكثر استعداداً لاحتضان الثورة منذ بداياتها المبكرة ، بحكم عمق مشاعرها الدينية ، وبحكم ظروفها الاجتماعية السيئة ، فلم يكن لهذه الفئات ما تخافه أو تخشاه ، وهي المؤمنة بمفهوم الجهاد ، كما لم يكن لديها ما تخاف عليه وهي لا تمتلك من حطام الدنيا إلا قيودها وأغلالها التي كبلها بها الاستعماريون .

أما سكان المدن ، والمثقفون فيهم بصورة خاصة ، والمحافظون التقليديون من أتباع السلطة (بني وي وي ـ الإمعات) فقد أيدوا ـ في معظمهم انطلاقة الثورة في بداياتها الأولى ، غير أنه كان من المحال عليهم التخلص من رواسبهم دفعة واحدة ، ولهذا أظهروا تردداً أمام منح الثقة لقدرة الثورة على الصمود والاستمرار . ولكن تعاظم قدرة الثورة ، وظهور تنظيمات المجاهدين والفدائيين والمسبلين (الأنصار) وما كانت تحققه هذه التنظيمات من أعمال مثيرة وبطولات رائعة ، أقنعت المتشككين والمترددين بطرح ترددهم ، وهكذا فعندما طرح رئيس الوزراء الإفرنسي ـ إدغارفور ـ والذي خلف منديس فرانس بسبب حرب الجزائر ـ طرح قضية الدمج . اصطدم بالنواب الجزائريين الذين كانت تعتبرهم فرنسا (ورقتها المضمونة) وشكل هؤلاء (جماعة الواحد والستين) الرافضة للدمج .

سجلت هذه المرحلة (من العام ١٩٥٥) تطوراً كبيراً في نشاط الثورة التي امتد لهيبها إلى كل أنحاء الجزائر . فلم تصل هذه السنة إلى نهايتها حتى تم تأمين الاتصال بين كل (ولايات الكفاح) ـ بما

في ذلك وهران ـ وشهد صيف ١٩٥٥ معارك طاحنة في أوراس والشمال القسنطيني ؛ حيث شن جيش التحرير الوطني هجوماً شاملاً ـ في يوم ٢٠ آب ـ أغسطس ـ أهدم أثناءه مئات من الإفرنسيين ـ الإستعماريين والمستوطنين ـ وأعوانهم من الخونة والعمـلاء . وكثـرت أعمـال القتـل والإبـادة الجمـاعيـة من قبـل الاستعماريين ، الأمر الذي ساعد على خلق جدار قوي من العزلة بين قوى الاستعمار والقوى الوطنية . وخلال هذه الفترة كانت جبهة التحرير الوطني تتابع تطوير تنظيمها (داخلياً وعربياً ودولياً) . وعلى سبيل المثال : فقد أمكن لها في الفترة (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨) تنظيم الطلاب والشباب في جامعات فرنسا ومدنها ضمن إطار (جبهة التحرير الوطني) وقد أثمرت هذه الجهود التنظيمية في آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٨ ، عندما أخذت الجبهة في نقل الصراع إلى فرنسا حيث قامت الفرق المسلحة الجزائرية بتدمير عدد من المنشآت الاقتصادية في فرنسا .

وعلى المستوى الدولي ـ اكتسبت الثورة تأييداً متعاظماً انطلق من العالم العربي ـ الإسلامي وامتد إلى عواصم العالم . وبرز ذلك في مقررات (مؤتمر باندونغ ـ ١٩٥٦) وفي هيئة الأمم المتحدة حيث طرحت للمرة الأولى قضية (حق الشعب الجزائري في تقرير المصير) .

ج ـ التوازن الاستراتيجي (١٩٥٦ ـ ١٩٦٠) .

بدأت الثورة الجزائرية بمجموعة قليلة من الثوار التاريخيين ، لا يمتلكون من وسائط الصراع إلا القليل ، وكان التوازن في القوى مفقوداً على ساحات الصراع ، وزاد الأمر سوءاً عندما أخذت فرنسا بإرسال موجات متتالية من قوات الدعم المجهزة بأحدث وسائط

الصراع . ومقابل ذلك أخذت الثورة في زيادة رصيدها بفضل ما كان يقدمه لها خزان الشعب الهائل من دعم مادي ومعنوي . غير أن ميزان القوى بقي مضطرباً في غير مصلحة الثورة . وبدأ الصراع في استنزاف قدرة العدو المادية والمعنوية ، ومع هذا الاستنزاف كانت قوات الثورة تتعاظم باستمرار ـ مادياً ومعنوياً ـ. وفي نهاية السنة الخامسة للثورة (١٩٥٩) ظهر بوضوح أن فرنسا قد استنزفت كل إمكاناتها للصراع . في حين ظهر أن الثورة لا زالت قادرة على حشد المزيد من القدرات (في القوى والوسائط) حيث انتظمت جماهير الشعب الجزائري في أعمال الصراع المختلفة ، وحيث ظهر أن تأمين التمويل للثورة وإمدادها باحتياجاتها من الأسلحة لم تعد مشكلة على طريق الثورة . ووصلت الثورة بذلك إلى مرحلة (التوازن الاستراتيجي) . غير أن الوصول إلى هذه المرحلة لم يكن سهلاً ولا يسيراً .

كان الثوار ـ القادة التاريخيون ـ قد تواعدوا عندما أطلقوا شرارة الثورة ، على الالتقاء بعد ستة أشهر من انطلاقة الثورة بهدف إعادة تقويم المرحلة السابقة ، والإعداد لمتطلبات المرحلة التالية . ولكن سرعة تطور الأحداث ، وعنف المد الثوري الجارف ، وإنهماك القادة في العمل لم تسمح بعقد هذا اللقاء إلا بعد سنة وعشرة أشهر . وهكذا انعقد مؤتمر الصومام يوم ٢٠ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦ . الذي يعتبر ـ إلى حد ما ـ نقطة تحول حاسمة على طريق الثورة .

لقد حضر هذا المؤتمر ـ لأول مرة ـ مندوبون عن مناطق الكفاح المختلفة ، وتخلف عنه بعض القادة الذين استشهدوا أو اعتقلوا مثل المرحومين (ديدوش مراد) و (مصطفى بن بو العيد) اللذين استشهدا قبل انعقاد المؤتمر و (رابح بيطاط) الذي اعتقل يوم

(٢٣ - أيار - مايو - ١٩٥٥) ولم يتمكن من الحضور أيضاً (أحمد بن بيللا) ورفاقه الذين كانوا يمثلون الثورة في الخارج . وقد أسفرت اجتماعات المؤتمر عن نتائج هامة ، مثل شرح وتأكيد المبادىء الأساسية التي عبر عنها منشور الثورة الأول ، وتنسيق التعاون بين مختلف (ولايات الكفاح) ، وتنظيم جيش التحرير ، وتوحيد ظواهره وأساليبه وطرائق إدارته ، وتعزيز قوته . وإنشاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي يعتبر بمثابة السلطة العليا للثورة ، ثم لجنة التنسيق والتنفيذ التي هي بمثابة السلطة التنفيذية .

امتازت هذه الفترة بزيادة أعداد جيش التحرير الوطني وتعزيز إطاراته بالشباب المثقف الذي ترك الدراسة والتحق بصفوف الثوار في الجبال ، بعد إعلان الإضراب العام من طرف (الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين)، ولقد حل هذا الاتحاد الذي كان في إضراب منذ أيار - مايو - ١٩٥٦ من قبل الإدارة الإفرنسية سنة ١٩٥٨ . كما كانت قد حلت من قبل (الاتحاد العام للعمال الجزائريين) و (الاتحاد العام للتجار الجزائريين) سنة ١٩٥٧ . وحينذاك إنضم عدد من أجهزة هذه التنظيمات إلى (جبهة التحرير الوطني) و (جيش التحرير الوطني) فدعموا قدراته بالعناصر القيادية والمقاتلين ، كما إنضم عدد كبير إلى صفوف المجاهدين بصورة سرية (داخل البلاد أو خارجها) .

تطورت في هذه الفترة الوسائط القتالية لجيش التحرير الوطني عن طريق الغنائم الضخمة التي كان ينتزعها المجاهدون من أعدائهم ، وعن طريق الإمدادات التي أخذت في الوصول إلى القواعد المحررة من الخارج - عن طريق تونس بالدرجة الأولى -. وامتازت هذه الفترة من جهة أخرى بتعاظم أعمال الفدائيين في المدن

ضد الاستعماريين والخونة . وكذلك تخريب مرافق العدو ووسائل مواصلاته ، وبرز تضامن الشعب الجزائري مع مجاهديه بشكل مثير وواضح عبر تلك الإضرابات والتظاهرات التي كانت تدعو إليها جبهة التحرير الوطني ، ومنها على سبيل المثال : إضراب ٥ تموز - يوليو - ١٩٥٦ ، بمناسبة ذكرى إحتلال فرنسا للجزائر العاصمة(*) وكذلك في إضراب غرة نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٥٦ إحياء للذكرى الثانية لاندلاع الثورة ، والتي نشر (المجاهد) بمناسبتها القانون الأساسي الذي تمخض عنه مؤتمر (وادي الصومام) . **وكذلك أيضاً الإضراب الوطني الكبير الذي إستمر لمدة ثمانية أيام (من ٢٨ كانون الثاني - يناير - حتى ٤ شباط - فبراير - ١٩٥٧) وهو عبارة عن تضامن وطني لا عنف فيه ، في وقت مناقشة القضية الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة** .

* * *

أساءت فرنسا لنفسها عندما رفضت (وهي الدولة العقلانية - العلمانية على ما تزعم) الإصغاء لصوت العقل ، فتابعت عنادها الأحمق ، متنكرة لكل ما كان يقع تحت بصرها من تطورات ، وعلى الرغم من أن الإشتراكيين (غي موليه) و (لاكوست) قد خاضا المعركة الإنتخابية تحت شعار السلم في الجزائر ، فإن (غي موليه) سرعان ما تنكر (لشعاره) وطرح ثلاثيته المعروفة (إيقاف القتال ، فالانتخابات ، فالمفاوضات) . وقد قيل كثيراً أن سبب هذا

(*) وكان قد سبقه الإضراب التاريخي في شهر أيار (مايو) ١٩٥٦ بنداء صادر عن الطلبة الجزائريين بعاصمة الجزائر (انظر قراءات - ١) في نهاية الكتاب لمطالعة نص النداء المذكور .

(التنكر) هو ما تعرض له (غي موليه) من مقاومة ضارية نظمها المستوطنون الأوروبيون في الجزائر ، حتى أنهم رموه بالطماطم الفاسدة (البندورة) عند زيارته الأولى للجزائر ، غير أن مقاومة هؤلاء المستوطنين لم تكن أكثر من لعبة إستعمارية لمتابعة النهج الاستعماري . وقد كان (غي موليه) في حاجة لمثل هذه الذرائعية لتغطية انحرافه . المهم في الأمر هو أن (غي موليه) أقال (كاترو) المعتدل من وجهة نظر الاستعماريين ، وعين زميله السفاح المشهور (روبير لاكوست) صاحب (الأرباع الساعة الأخيرة التي لا تنتهي) . وأخذت فرنسا في إرسال قوات الأمم حتى بلغ عدد أفراد الجيش الاستعماري في الجزائر أكثر من نصف مليون مقاتل ، علاوة على (الميليشيات المحلية) ، وعلاوة على قوات الدرك (الجندرمة) . وتبع ذلك أعمال قمع وحشية لم تفلح في قمع الثورة ، الأمر الذي أدى إلى سقوط حكومة (غي موليه) وقيام الجمهورية الخامسة برئاسة (ديغول) . وقد حاول هذا بدوره قمع الثورة وهو يطرح (سلم الأبطال) . فبرزت للوجود مجموعة من المخططات العسكرية ، عرفت بأسماء اصطلاحية ـ من أبرزها :

١ ـ عملية (لوبروميير) في منطقة القبائل الكبرى (اكتوبر ـ نوفمبر = تشرين الأول والثاني ١٩٥٨) .

٢ ـ عملية (التاج) في جبال القبائل والأكفاد (جويليه ـ نوفمبر ـ تموز ـ تشرين الثاني ١٩٥٩) .

٣ ـ عملية (كوروا ـ وايتانسيل) شمال قسنطينة والقبائل الصغرى بداية من نوفمبر (تشرين الثاني ـ ١٩٥٩) .

٤ ـ عملية (جوميل) التي امتدت حتى جبال الجزائري في (الحضنة) في تموز ـ يوليو ـ ١٩٥٩ .

٥ - عملية (برنامج شال)(*) التي حشد لها من (٥٠) إلى (١٠٠) ألف جندي . وطبق البرنامج في البداية في جبال (الونشريس) من شباط - فبراير - حتى تموز - يوليو - ١٩٥٩ . ثم استأنف (شال) هجماته الكبرى في النصف الثاني من عام ١٩٥٩ وطوال عام ١٩٦٠ .

٦ - عملية (تونتاكيل) في ولاية (وهـران) وبالقرب من (السد الغربي) وفي جبل دايه (نيسان - أيار = افريل - ماي) ١٩٦٠ .

٧ - عملية (بروقيتي) جنوب (وهران) من أيار (مايو) إلى أيلول (سبتمر) ١٩٦٠ .

٨ - عملية (سيغال) في (الونشريس) تموز (يوليو) إلى آب (أغسطس) ١٩٦٠ .

٩ - عملية (جوميل) وعملية (الأحجار الكريمة) - للمرة الثانية في منطقة القبائل والشمال القسنطيني . في سنة ١٩٦٠ .

١٠ - عملية (آربييج) بداية من ربيع ١٩٦٠ وحتى تشرين الأول - اكتوبر - وتشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٠ - وشملت المناطق المحيطة بالأوراس .

(*) ويسمى (مشروع شال) ويتلخص في نقطتين : أولاهما عزل جيش التحرير عن المواطنين في الريف . ولذلك عمدت القوات الاستعمارية إلى إجلاء السكان عن مساكنهم ، وحشدهم في معسكرات الحشد حيث يصبحون تحت المراقبة الدائمة لجيش الاحتلال . أما النقطة الثانية ، فهي القيام بعملية عسكرية واسعة النطاق ، ذات مراحل ، يقع مركز الثقل في كل مرحلة منها على منطقة من المناطق التي يرتكز فيها جيش التحرير ، حيث تحشد قوات هائلة من مختلف الأسلحة ، يستمر عملها أسابيع أو شهوراً متتالية لسحق القوات الوطنية في تلك المنطقة ، ثم تنتقل إلى غيرها . وهكذا . . . .

١١ ـ عملية (ماراتون) لدعم السد الشرقي (خط موريس) في محاولة للقضاء على جيش التحرير في نيسان ـ إبريل ـ ١٩٦٠ .

* * *

أحد عشر هجوماً واسع النطاق لها أسماؤها الضخمة ، وبعضها أعيد مرات عديدة ، ومثلها أضعافاً من الهجمات التي لم تحمل أسماء إصطلاحية ، وكلها فشلت على صخرة صمود المجاهدين وتحطمت . فماذا يعني ذلك ؟ يعني ذلك ببساطة أن مرحلة التوازن الاستراتيجي على مستوى العمليات قد تحققت بالرغم من كل العناد الإفرنسي . ومضى جيش التحرير الوطني وسط العقبات والمصاعب ، وهو يزيد من قوته ، حتى بلغ عدد أفراده (١٢٠ ألفاً) . وأنشئت المدارس العسكرية ، وأرسلت البعثات إلى الخارج لتكوين الإطارات (الكادرات) الفنية ، وتغيرت خطط المقاومة للإفلات بنجاح من عمليات (مشروع شال) ، وامتدت العمليات الحربية إلى أقصى الصحراء بل وإلى فرنسا ذاتها ، حيث تم تدمير مستودعات بترولية ضخمة ، وأعيد تنظيم المقاومة في المدن ، وتعرضت الثورة في هذه الأثناء إلى خطرين جسيمين ، قدم الشعب المجاهد في مواجهتهما أعداداً كبيرة من الضحايا البريئة . أولهما : معركة العاصمة (سنة ١٩٥٧) حيث أسندت إدارة الأمن في العاصمة وضواحيها إلى قائد المظليين (الجنرال ماسو) الذي أخذ على عاتقه تدمير منظمات الفدائيين في (الجزائر) . فأطلق جنوده ، يرتكبون أفظع أعمال التقتيل وأبشع طرائق التعذيب والسلب .

وقد ذهب ضحية التعذيب والاغتيال كثير من الشهداء الأبرار ، منهم بصورة خاصة (الشهيد العربي بن المهيدي) عضو لجنة التنسيق والتنفيذ ، و (علي بومنجل) المحامي ، اللذان اغتيلا في

السجن بطريقة قذرة . كما ظهرت قضايا التعذيب (جميلة بوحيرد) فثار الرأي العام العربي - الإسلامي والعالمي ، وتعاظمت موجة السخط والاحتجاج . وقد وقعت عمليات مماثلة في كافة المدن الجزائرية ، مما أفقد الثورة كثيراً من إطاراتها النشيطة ، وأضعف الحركة الفدائية في المدن . واضطر الأحياء من أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ إلى مغادرة الوطن ، بعد أن كانوا قد جعلوا من العاصمة (الجزائر) مقراً لهم .

أما الخطر الثاني ، فيتجسم في تلك الفتنة التي أثارها عميل فرنسا (بن لونيس) والذي جمع حوله بعض البسطاء المغرورين ، وقد شغلت هذه الفتنة جانباً غير قليل من جهود جيش التحرير الوطني . وذهب ضحيتها كثير من الشهداء إلى أن أمكن القضاء عليها (في نيسان - إبريل - ١٩٥٨) بعد إعدام رأس الحركة والتحاق جنوده بمجاهدي جيش التحرير الوطني . وقد أمكن التغلب على كل هذه الصعوبات بفضل التنظيم المحكم للثورة ، والكفاءة العالية في سرعة تبديل الخطط حتى تتكيف مع أساليب العدو المتبدلة ، ومع ظروف الصراع المتحولة . كما أن التفاف الشعب حول الثورة ودعمه لها ، قد ضمن لها الحماية من كل خطر .

رافق ذلك تطور على مستوى القيادة ، فقد اجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في دورته الثانية من (٢٠) إلى (٢٨) آب - أغسطس - ١٩٥٧ في القاهرة . وغيرت لجنة التنسيق والتنفيذ ، ووسع نطاقها ، فأصبحت تضم (٧) أعضاء نشرت أسماؤ هم للمرة الأولى . كما أصبح المجلس الوطني يضم (٥٤) عضواً . واتخذ عدة مقررات سياسية هامة ، ففوض بالخصوص جزءاً من سلطته إلى لجنة التنسيق والتنفيذ . وفي السنة التالية تقرر تشكيل الحكومة

المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وأعلن عن تشكيلها يوم (١٩ - ايلول سبتمبر - ١٩٥٨) . فاكتمل بذلك الكيان الرسمي للدولة الجزائرية ، بوجود حكومة ، وجيش وأجهزة إدارية لإدارة البلاد .

أصبحت (القضية الجزائرية) معضلة من أضخم المشكلات الدولية . ولقد سجلت ونوقشت في دورات الأمم المتحدة المتتالية ، وكانت في كل مرة تكتسب المزيد من الدعم والتأييد الدولي . وبات مصير السكان المدنيين الجزائريين (مليونا نسمة من المرحلين) يقلق العالم بأكمله . وأثار التعذيب والاغتيالات ، واستمرار فرنسا في ممارساتها الوحشية - ومنها اغتيال عيسى ايدير - استنكاراً عالمياً . وباتت فرنسا في حالة مفزعة من العزلة الدولية ، حيث أخذ حلفاؤ ها في انتهاج سياسة مستقلة عنها (وظهر ذلك في أزمة ساقية سيدي يوسف عندما اعتدت فرنسا على الحدود التونسية ، الأمر الذي مهد لسقوط الجمهورية الرابعة وقيام جمهورية (ديغول) الخامسة .

ومقابل هذا التآكل (والاهتراء) في (الهيبة الإفرنسية) عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، كانت حكومة الثورة وجيش الثورة ، وشعب الثورة ، تكتسب هيبة متعاظمة ، أبرزها التأييد المتزايد لشرعية الحكومية الجزائرية ، بقدر ما أبرزتها الزيارات الرسمية التي قام بها القادة الجزائريون لبعض دول العالم (زيارة ابن خدة لأمريكا اللاتينية - آب - أغسطس - ١٩٦٠) وزيارة نائب رئيس الحكومة المؤقتة (كريم بلقاسم) لهيئة الأمم المتحدة . وكذلك زيارة الرئيس فرحات عباس إلى بكين وموسكو في تشرين الأول - أكتوبر - ١٩٦٠ . هذا بالإضافة إلى التأييد المتعاظم في المؤتمرات الإقليمية (الشعوب الإفريقية - الأسيوية) . لقضية (الثورة الجزائرية) .

د ـ من التوازن إلى الهجوم الاستراتيجي :

عقد المجلس الوطني للثورة الجزائرية دورته الثالثة في طرابلس ـ ليبيا ـ من ١٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ **١٩٥٩** إلى **٢٠** كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٠ . وسجل الاعتراف بحق تقرير المصير ، وأكد ثقته بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لفتح باب المفاوضات مع فرنسا . وحدث تعديل في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . كما حدث تعديل في قيادة جيش التحرير الوطني ، حيث أسندت القيادة العليا العامة إلى (العقيد ـ الكولونيل ـ هواري بومدين) (*) يعاونه ثلاثة من القادة .

وخلال هذه الفترة ، كانت إدارة العمليات قد أخذت شكلها الثابت ـ تقريباً ـ . فقد تفرقت الوحدات الكبرى ، ونقلت الفرق المسلحة المتنقلة حرب العصابات إلى جميع القطاعات ، وكانت هذه الفرق مدربة أحسن تدريب . وكان نشاطها مسلطاً ضد القوات الافرنسية التي تقوم بعملياتها الكبرى . فكانت قوات جيش التحرير توجه ضرباتها المحكمة إلى مؤخرة القوات الإفرنسية وأرتال إمدادها وتموينها ، ومفارزها المنعزلة ، وكان جيش التحرير حاضراً في كل مكان ، في المدن والبوادي وحتى في أمكنة عمليات التفتيش (التمشيط والكادرياج) . وكان ينظم الكمائن الناجحة .

وفرض جيش التحرير سيطرته على الأطلس الصحراوي ، بالإضافة إلى تمركزه على الحدود الجزائرية ـ المغربية وعلى الحدود الجزائرية ـ التونسية ، حيث ساعدت الدولتان الشقيقتان على دعم

(*) أصدر العقيد (هواري بومدين) فور تسلمه السلطة ، مجموعة من القرارات التنظيمية التي يمكن مطالعتها في آخر هذا الكتاب (قراءات ٢) .

جيش التحرير الوطني ، وزيادة قوته ، ورفع مستوى تدريبه على الأسلحة الحديثة والأساليب التعبوية ـ التكتيكية ـ . وكانت السدود التي أقامتها فرنسا (خط موريس) تحطم جزئياً وفي مرات متعددة ، أثناء مرور وحدات كاملة ، أو بمناسبة الهجمات العامة المنظمة التي كانت توجهها القيادة العليا . وتوطدت هذه الانتصارات العسكرية ، بظهور عامل جديد ، وهو تعاظم دور جماهير الشعب المجاهد ، وبروز الإرادة الشعبية الموحدة في تلك التظاهرات التي بدأت منذ (١١ ـ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٦٠) في المدن الجزائرية الكبرى . حيث عبرت جماهير الشعب عن إيمانها (بالجزائر المستقلة) وثقتها (بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية) .

ففي الجزائر العاصمة ووهران والبليدة ومستغانم وجيجل ، رفع العلم الجزائري ، وهتفت له حناجر عشرات الآلاف من المتظاهرين . وبداية من اليوم ذاته ، شرع (١٥) ألف معتقل جزائري في سجون فرنسا في إضراب الجوع غير المحدد ، حتى يعترف لهم بالنظام السياسي ، واعتبارهم (أسرى حرب) . ودعم الرأي العام الجزائري هذا الاضراب ، كما سانده الرأي العام العالمي ، وحقق هذا الإضراب انتصاراً كاملاً يوم (٢٢ ـ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٦١) .

كانت المفاوضات والاتصالات التي بدأت منذ عام ١٩٥٦ ، تسير بتعثر . ولكن السياسة الإفرنسية نحو الجزائر أخذت في التطور بصورة حاسمة تحت تأثير محصلة الصراع العسكري والسياسي ، ولو أن هذا التطور سار بخطوات بطيئة استمرت أربع سنوات ـ منذ وصول الجنرال (ديغول) إلى الحكم ، وذلك بسبب المقاومة الضارية التي كانت تقودها وتوجهها الدوائر الاستعمارية في الجزائر ، وقوات

الجيش الفرنسي لإحباط أي محاولة لحل القضية الجزائرية . وهكذا بدأت مجموعة من العروض الغامضة ، ثم التراجع والمراوغة . فكان أن عرض ـ ديغول ـ ما أطلق عليه (اسم سلم الأبطال) في (٢٣ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٥٨) الذي رفضته الحكومة الجزائرية بسبب غموضه ، وبسبب رفض الحكومة الإفرنسية التفاوض مع الزعماء الجزائريين المعتقلين في فرنسا (ابن بيللا ورفاقه) . وجاءت بعد ذلك المحاولة الفاشلة التي قامت بها حكومة ديغول لإجراء انتخابات وتشكيل مجلس للنواب الجزائريين بهدف خلق بديل للتفاوض عوضاً عن (جبهة التحرير الوطني) . وأخذت فرنسا ـ ديغول ـ في التهديد بفصل الصحراء عن الجزائر إذا ما أصرت الجبهة على قضية (حق تقرير المصير ـ والاستقلال) . وجرى اتصال مع الجبهة في (مولان) بتاريخ ٢٠ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٦٠ . أكدت فيه فرنسا استمرارها بأساليب الخداع والتضليل ومحاولة كسب الوقت ، ففشلت محاولة المفاوضات من جديد. وهنا حدث التطور الخطير الذي كان له التأثير الحاسم في وضع حد لعملية الخداع الإفرنسي .

فقد اندلعت التظاهرات العنيفة في مدن الجزائر (في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٦٠) وسقط فيها مئات الشهداء . ويظهر أن فرنسا قد استخلصت العبرة . فكانت مفاوضات (ايفيان) الأولى ، ومفاوضات (لوغران) في صيف (١٩٦١) . ولكن ظهر أن باريس لا تزال متمسكة بالصحراء) ففشلت المفاوضات واستمرت المظاهرات الجماهيرية التي برهنت على أنه ليس هناك حل للمشكل إلا بالتفاهم مع الحكومة الجزائرية . ثم اجتمع المجلس الوطني للمرة الرابعة ، وشكل حكومة جديدة (هي حكومة السيد يوسف بن خدة) والتي أعلن رئيسها يوم ٢٤ ـ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٦١ . أنه يفتح

الباب الواسع أمام المفاوضات . واقترح طريقاً أكثر واقعية للوصول إلى نهاية الحرب وتحقيق الاستقلال عبر أقصر الطرق . راستمرت الاتصالات السرية طوال أربعة أشهر ، وأسفرت عن المفاوضات الأخيرة التي جرت على الحدود السويسرية ـ الإفرنسية (من ١١ إلى ٢١ شباط ـ فبراير ـ ١٩٦٢) وبعد مصادقة المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، ومجلس الوزراء الفرنسي ، تم التوقيع على معاهدة (ايفيان) بتاريخ ١٨ آذار ـ مارس ـ ١٩٦٢ . وتوقف القتال في منتصف نهار ١٩ ـ آذار ـ مارس . على أساس الاستقلال وضمانات تقرير المصير الذي سوف يجري في فترة لا تتجاوز ستة شهور ، وبذلك تستقل الجزائر استقلالاً ناجزاً كاملاً(*) .

* * *

وجلت القوات الاستعمارية عن تراب الجزائر المجاهدة ، وعاد الثرى طهوراً بما ارتوى من دماء الشهداء الأبرار . غير أن العرض السابق يتطلب وقفة قصيرة عند بعض المواقف التي مر العرض عليها بسرعة ، مثل (موقف لاكوست من محاولة تنظيم قوة جزائرية لمجابهة الثورة) ومثل (مضمون برنامج شال ـ من وجهة نظر الجزائريين) . وكذلك (إحدى ظواهر نقل الصراع إلى فرنسا) و(فضائل الثوار ـ المجاهدين) وذلك قبل استقراء بعض ملامح الأعمال القتالية التي تكمل صورة الموقف ، وتلونها ، ـ وفقاً للمصطلحات الأدبية الحديثة ـ .

(*) تم الاعتماد في هذا القسم من البحث ـ بالدرجة الأولى ـ على (النشرية الداخلية ـ وزارة الداخلية ـ الجمهورية الجزائرية ـ رقم ١٣ ـ مارس ١٩٦٢) . وكذلك (نشرة الثورة الجزائرية ـ إعداد بلقاسم بنعيمي ـ وثائق متحف المجاهد) .

٢ ـ لاكوست ـ والثورة المضادة للثورة ـ

وصف الشعب الجزائري الاشتراكي (روبير لاكوست) ـ الحاكم العام للجزائر ـ بصفة (سفاح الجزائر) . نظراً لما ارتكبه بحق الشعب الجزائري من جرائم وآثام ، ونظراً لما طبق في عهد إدارته من أساليب وحشية وطرائق خبيثة شريرة . وكان في جملة وسائله محاولة إثارة الاقتتال بين الجزائريين من خلال تكوين قوات جزائرية تعمل تحت قيادة ضباط أفرنسيين (أو تنظيم ثورة مضادة للثورة) . وتعرض كاتب جزائري لمعالجة هذا الموقف تحت عنوان (**كيف اهتدى روبير لاكوست إلى تسليح الثوار**) وتضمن البحث ما يلي :

« لكل عاقل أن يتساءل عن الأمر الذي يبعث لاكوست على التفاؤل إزاء تطور الحالة في الجزائر . لقد توالت على أذنيه أخبار العمليات ، وما تتركه في صفوف الجيش الفرنسي ومسيري الاستعمار من فراغ ، وتعاقبت انتصارات جبهة التحرير الوطني ، حتى أصبحت الصحف عاجزة عن عدها وإحصائها . وظهر عجز (٦٠٠) ألف جندي مسلح بأقوى الأسلحة وأحدثها ، حتى اضطر الوزير المفوض إلى الكذب والاحتيال على طريقة (المكتب النفساني) والتصريحات الكاذبة . ولكن الأمر يفتضح اليوم ، فقد كان (سوستيل) خلف له (سلاحاً سرياً) يقضي به على الثورة

الجزائرية ـ على ما يزعم ـ. وقدتعاون على اكتشاف هذا السلاح كل من السادة : لاكوست وسوستيل ومولية واوليه ولوجون اولي وبانتال ولونشان ، وغيرهم من الدواهي السياسية والعسكرية والبوليسية .

لقد وقع الاختيار لتنفيذ هذا المشروع السري على ثلاثة من رجال جبهة التحرير كانت إدارة (سوستيل) تعتبرهم من الموالين لها ، والأوفياء في خدمتها ، وهؤلاء الثلاثة هم : (**أحمد زيدات**) و(**الطاهر عشيش**) و(**محمد يازورن**) . فكلفوا بتجنيد أفراد من (القبائل الخلص) في جماعات تضم خمسة عشر إلى عشرين شخصاً (وهو نفس الأسلوب الجاري في جيش التحرير الوطني) ، وكانت تريد أن تجعل على رأسهم ضباطاً استعماريين لتحارب بهم الثوار . وقد جاء الاخوان المذكورون . إلى (**كريم بلقاسم**) و (**سعيد محمدي**) بالخبر ، فأمرهم بتلبية دعوة الولاية العامة ، وهكذا تم التجنيد ، وتم تسليح الرجال بأسرع ما يمكن ، ومن الملاحظ أن الاختيار كان يقع على أحسن العاملين في جبهة التحرير الوطني ، وعندما تسلم (لاكوست) الحكم من سابقه (سوستيل) همس له هذا الأخير بالخطة التي سماها إذ ذاك (القضية الهامة) . وفي الاجتماع الأخير الذي عقده قادة الثورة الجزائرية لمناطق (وهران) و(الجزائر) و(قسنطينة) **تقرر أن تدرج هذه الجماعات المسلحة في صفوف جيش التحرير الوطني ، وأن تشارك في هجوم الخريف العام الذي نفذ في كافة أنحاء القطر الجزائري ، مساء يوم ٣٠ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٦** .

* * *

ليست القضية الجزائرية (يا مسيو لاكوست) هي قضية خيال . إنك بعيد كل البعد عن الحقيقة وعن الكفاءة معاً . إن القضية

الجزائرية تتطلب معرفة الشعب الجزائري معرفة حقيقية . وهذا الشعب نحن نعرفه لأننا نحن الشعب . ولقد كان ينقصك لإنجاز هذه التمثيلية التي هيأتها شيء واحد : هو معرفة المسرح والممثلين ، وذلك قبل الشروع في العمل . لكن المسرح هو بلادنا ، والممثلون نحن . إنك سلحت مجاهدين حقيقيين لجبهة التحرير الوطني . فكيف تبلغ الغفلة بالإنسان أن يصدق هذا الحلم ؟

أكنت تعتقد أننا من البلاهة والغرور بحيث تغيب أنظارنا عما تصنعه ؟ ها هو الواقع يخبرك ، ولعلك ستدرك أخيراً ما هي ثورتنا ، وتشعر بعقم أساليبك . ولا شك أنك ستستخلص الدرس الكافي من هذه التجربة . وهو درس يساوي ما قدمته لنا مجاناً من مئات الأسلحة . وكن على يقين أننا سنقدر هذه الهدية حق قدرها . وسنعرف كيف نستخدمها أفضل استخدام لدعم قضيتنا الوطنية .

ولعل الشعب الفرنسي الذي يقتل أبناؤه كل يوم ، سيقدر صنيعك بدوره . ولعله يطالبك بمحاسبة يعسر عليك شرحها بعدما خدعته بثباتك المصطنع . وهذه تفاصيل لا تهمنا . أما ما يهمنا نحن ، فإن التجربة واضحة بالنسبة لنا ، إن بلاد القبائل (الولاية الثالثة ـ أو العمالة الثالثة) ستكون مثالاً لباقي البلاد . وسيبوء (نشر السلام) في كل ناحية منها بنفس الفشل ، وإذا ما أرادت الحكومة الفرنسية أن تجد الحل للمشكلة الجزائرية ـ في يوم من الأيام ؛ فعليها أن تختار لها طريقاً آخر .

*** * ***

ولمزيد من التعريف بهذا الاستعماري (روبير لاكوست) قد يكون من المناسب العودة إلى بعض تصريحاته ، التي يجب لها أن تبقى معروفة ، لأنها تمثل مرحلة تاريخية من مراحل الإستعمار الإفرنسي

للجزائر . فقد جاء في تصريح له : «**لا مفاوضات مع الجزائريين ، ولا استقلال للجزائر . وإن رئيس الوزراء - غي موليه - مثلي في هذا الصدد - إذ أدرك أن مسألة المفاوضات مع العصاة لا يمكن أن تخطر على بال أحد ، إذا كانت تستهدف اعتبار الفرنسيين الذين يعيشون في الجزائر - أجانب - إن مثل هذه الفكرة لا يمكن أن يكتب لها الوجود**»[1] .

وفي تصريح آخر له جاء ما يلي : « إن سياستنا في الجزائر هي سياسة تهدئة عامة - بالوسائل العسكرية - وسنعمل كل جهدنا لإعادة الطمأنينة لنفوس الجميع ، ولملأ الفجوة السحيقة التي تفصل الآن بين عناصر المجتمع الجزائري ، ولتحقيق المفاوضات اللازمة التي تفكر بها الحكومة بعد إجراءات الإنتخابات الحرة لوضع نظام الجزائر في المستقبل . على أن هذه السياسة تتطلب أسساً عسكرية ثابتة . وبالرغم من أن المسألة ليست مسألة (**إعادة فتح الجزائر**) **أو** (**القيام بأعمال العنف** ؟) ولكنني رأيت من الضروري أن أطلب إلى الحكومة الفرنسية إرسال قوات إضافية عسكرية للجزائر، وأسلحة جوية جديدة . . . الخ . . . **بالإضافة** إلى ضرورة إعادة النظر في وسائل وتنظيم الوحدات المسلحة ، للإستفادة من أحسن إمكانياتها للقتال في الجزائر . ولتكييف قوانا المتوافرة وفق الأحوال الخاصة المحيطة بذلك البلد .

كذلك فإنه من مستلزمات سياسة التهدئة العامة ، الاحتكام إلى وسيط عادل بين العناصر الفرنسية التي تنحدر من أصول أوروبية - المعمرين - والعناصر الفرنسية من المسلمين ؟ . كذلك تقضي السياسة المذكورة المبادرة إلى تطبيق الإصلاحات الأساسية في

---

(١) صحيفة (لوموند) الفرنسية ١٩٥٦/٤/٣٠ .

الميادين الزراعية والإجتماعية والاقتصادية والإدارية ، **لمنح العنصر الاسلامي الثقة واليقين بأننا عازمون حقاً على الاستجابة لرغبته في التحرر** . إن جميع ذلك يتطلب سلطة ثابتة وقوية وعادلة . ولهذا السبب ذاته ، طلبت منح الحكومة ـ سلطات مهمة وواسعة (حسب نص المادة الخامسة من المشروع القانوني المقدم ، والقاضي بمنح الحكومة أوسع السلطات المختلفة ، واتخاذ أي إجراء استثنائي نراه ضرورياً . وليس يخفى عليكم بأن الحاكم العام في الجزائر هو شخصية مدنية وعسكرية في وقت واحد . وسيطبق النص المذكور على العصاة وغيرهم من مثيري الاضطرابات على السواء»[٢] .

(٢) صحيفة (لوموند) الفرنسية ١٩٥٦/٥/٣ .

٣ ـ شاب ـ على خطى (نافار)(*)

نشرت صحيفة صدى الجزائر (ليكودالجي) الاستعمارية المعروفة ، في عددها الصادر يوم ١٧ نيسان ـ أفريل ـ **١٩٥٩** عنواناً ضخماً بالأحرف الغليظة في الصفحة الاولى : « **الجنرال ديغول يهنىء القادة العسكريين وفرقهم على عملياتهم الأخيرة في ولاية وهران** » . وكتبت تحت هذا العنوان ما يلي : « وجه الجنرال ديغول إلى الجنرال (شال) الرسالة التالية : إن العمليات العسكرية الأخيرة التي جرت في وهران تحت إشرافكم ، قد سارت سيراً حسناً ، ونفذت تنفيذاً رائعاً ، وأرجو أن تبلغوا ـ الجنرال غامبيز ـ وبقية القادة والفرق الموجودة تحت قيادته ابتهاجي بعملهم . أما فيما يخص التطورات القادمة لبرنامجكم الذي سطرتموه لتحقيق التهدئة ، فأرجو أن تتأكدوا من ثقتي الكاملة بكم » .

ثم أوردت صحيفة (ليكودالجي) ما قاله المسيو (ديلوفري) للجنرال (شال) وهو يسلمه رسالة التهنئة التي حمله إياها الجنرال ـ ديغول ـ : « إنني أسلم لكم بابتهاج عظيم رسالة رئيس الجمهورية وأقدم تهاني لكم ولجميع القوات العسكرية بالجزائر التي تمكنت

(*) مجلة (المجاهد) الجزائرية ١٩٥٩/٥/١ والبحث تحت عنوان (برنامج شال دليل على العجز لا على القوة) .

بفضل نشاطها خلال هذين الشهرين من اجتياز مرحلة جديدة على طريق التهدئة » . وبعد هذا أدلى الجنرال (شال) إلى صحيفة إسبانية بتصريح ، أعقبه بتصريح ثان إلى صحيفة ـ لوموند ـ الفرنسية أكد فيه : « بأن الانتصار العسكري على الثورة هو أمر ممكن . وأنه آخذ بزمام الموقف » .

ليس المجال هنا هو مجال التعرض بالتحليل للأسباب والعوامل التي حملت ـ الجنرال ديغول ـ على توجيه تهانيه إلى الجنرال شال والقادة العسكريين الفرنسيين بالجزائر ـ مغتنماً من أجل ذلك كل مناسبة وأحياناً من غير مناسبة ـ . والمهم في الأمر ـ بالنسبة للثورة ـ هو تقديم البرهان على أن برنامج شال الجديد ، لن ينجح ، ولا يمكن له أن ينجح في القضاء على الثورة الجزائرية ، كما لم تنجح جميع البرامج التي سطرها الفرنسيون منذ بداية الثورة في سنة ١٩٥٤ .

* * *

إن القيادة الفرنسية ـ في الحقيقة ـ رغم انتصاراتها المزعومة التي تزخر بها بلاغاتها في كل يوم ، ورغم تظاهرها بأن البرنامج الجديد سيقودها حتماً إلى الانتصار العسكري ، لم تعرف أي طريق تسلك للقضاء على فرق جيش التحرير الوطني ، فقد جربت القيادة العسكرية الفرنسية مجموعة من الطرائق والأساليب ، ووضعت جملة برامج ، فشلت كلها أمام تصميم جيش التحرير الوطني وإرادته الصلبة .

لقد عمد العسكريون الفرنسيون في بداية الأمر إلى سلوك الطريقة التقليدية المعهودة في الحروب ، وهي محاولة القضاء على العدو بقتله أو بأسره . لكن هذه الطريقة فشلت . وظن الفرنسيون

أول ما لمسوا فشلهم أن المسألة هي مسألة زيادة في عدد الجنود والعتاد ، فتواردت الإمدادات الضخمة والأجهزة الحربية العصرية على الجزائر ، طوال أربع سنوات ، ولكن من غير فائدة ولا جدوى . وقد اعترفت مجلة (الدفاع الوطني الفرنسي) في عدد لها : « بأن البارود لم يكن كافياً للقضاء على جيش التحرير الوطني » . وبعد هذا الفشل ، توهم بعض قادة الجيش وأجهزته (إطاراته) أن الفشل يرجع فقط إلى أسلوب الحرب لا إلى طبيعتها ، والذي عزز هذا الشعور عند أولئك الضباط هو تجربتهم في الهند الصينية : فقد شاهدوا هناك كيف انهزم الجيش الفرنسي هزيمة نكراء ، لكنهم عوض أن يستخلصوا العبرة من تلك الهزيمة ، وعوض أن يفهموا أن هزيمتهم كانت أمراً حتمياً يقتضيه التطور الطبيعي للشعوب ، ويفرضه منطق الأشياء بطبيعتها ، وعوض أن يبنوا على أساس هذا الفهم سلوكهم في الجزائر عوض ذلك كله ، توهموا أن انتصار شعب الهند الصينية ، إنما يرجع إلى أساليب الحرب الثورية . والدعاية النفسية التي طبقها (هوشي مينه) بعد أن اقتبسها من (ماوتسي تونغ) . وبنوا على هذا الوهم أنهم لو طبقوا بدورهم ذلك الأسلوب ، لكانوا قد نجحوا في الهند الصينية . وأن تطبيقه في الجزائر سيمكنهم من الانتصار على الثورة . وكان أصحاب هذه النظرية هم الذين مهدوا فيما بعد لانقلاب ٢٣ ـ أيار ـ مايو ـ وهم الذين نظموا مظاهرات التآخي ، وعمليات رفع الحجاب ، وهم الذين تزعموا دعوة دمج الجزائر بفرنسا الخ . . . .

وظنوا أن هذه السلسلة فن العمليات (النفسية) هي التي ستقضي على الثورة ، وتمكنهم من الانتصار بالجزائر ، إلا أن عدم تصور العسكريين الفرنسيين لمجموع العوامل التي أدت الى انتصار

(ماوتسي تونغ) و (هوشي مينه) من جهة . وفصلهم بين الهدف الذي عمل له (ماوتسي تونغ) وبين الأسلوب الذي استعمله لتحقيق ذلك الهدف من جهة أخرى . وجهلهم بطبيعة وضرورات التيار التحرري الذي غمر البلدان المستعمرة ، وجهلهم بعقلية الشعب الجزائري من جهة ثالثة ، إن كل هذا جعل مخيلة العسكريين الفرنسيين تتفتق عن أساليب مضحكة قد تصلح لكل شيء ، إلا أن تكون ذات فائدة لأهدافهم الاستعمارية ودعايتهم . وقد يكون من المناسب التعرض لبعض عينات (نماذج) تلك الأساليب النفسية التي يتوهم أصحابها من العسكريين الفرنسيين بأنها هي التي تقودهم إلى النصر .

* * *

كان هناك ضابط كبير يشغل منصباً هاماً في مكتب الحرب النفسية ، يفتخر بأنه وفق أثناء انتخابات تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٨ إلى إيجاد طريقة رائعة لدعوة الجزائريين إلى الانتخابات وترغيبهم في المساهمة فيها : وهي نشر لافتات فيها صورة فلاح وحمار وصندوق الانتخاب ، وقد كتب تحت الصورة : (أنت تصوت وحمارك لا يصوت) . وفي المحتشدات ، من بين الأساليب التي يستعملها ضباط الحرب النفسية لجعل الجرائريين يؤمنون بأنهم فرنسيون ، أنهم يأمرون الموقوفين الجزائريين بأن يستديروا على شكل حلقة ، ويدورون - كالأطفال - وهم يرددون : « إني فرنسي ! إني فرنسي ! » لمدة ساعات طويلة .

ومن هذين المثالين ، وغيرهما من عديد الأمثلة ، يتبين أن الفرنسيين أخذوا أساليب الحرب النفسية ، لكن هذه الأساليب صارت بين أيديهم أساليب فارغة جوفاء ، ليس فيها أي محتوى

سياسي يجذب إليها الجماهير الجزائرية ويستميلها . إن الجماهير تستجيب لقياداتها الثورية لأنها تعمل معها من أجل التحرر من الاستعمار الكريه ، ولأنها تسير على طريق الحرية والاستقلال . فكيف يطمع الافرنسيون أن يجتذبوا إليهم الجزائريين بدعوتهم إلى الادماج و(التفرنس) . وهو بالضبط ما ثاروا لمحاربته .

لقد أدى فشل المخططات الفرنسية إلى ظهور اختلاف حاد بين القادة العسكريين بشأن أنجح الوسائل للقضاء على الثورة الجزائرية . فهناك أنصار مدرسة (الحرب التقليدية) التي يتزعمها (بيجار) . وهناك أنصار مدرسة (الحرب النفسية) وفي مقدمتهم (لاشو روا) . وبين هذين الجناحين يجري خلاف عنيف ، وتبادل للانتقادات والاتهامات ، الأمر الذي زاد من ارتباك القيادة الافرنسية . وجاء الجنرال (شال) فوضع برنامجه على أساس (الحرب التقليدية ، وحاول أن يعزز ذلك بقادة اكفاء لهم شهرتهم وخبراتهم (مثل بيجار) . ونظم وحدات خاصة مهمتها مطاردة قوات جيش التحرير في الجبال . وتبع ذلك بالضرورة ، اختفاء الحديث عن أساليب (الحرب النفسية) في الولاية العامة ـ الجزائر ـ وكثر الحديث عن (تطوير وسائل الحرب التقليدية ومخططاتها) . غير أن هذا الحديث لم يتجنب توجيه النقد لبرنامج (شال) منذ بداية ظهوره ، وقد يكون من الضروري التعرض لبعض ما قاله العسكريون الفرنسيون أنفسهم بهذا الشأن ، مما أكد فشل (برنامج شال) حتى من قبل أن يبدأ تطبيقه .

لقد قال عقيد افرنسي ـ في قسنطينة ـ ما يلي : « إن المسألة بسيطة ، فنحن نسير بمعدل أربعة كيلومترات في الساعة ، والجزائريون يسيرون بمعدل سبعة كيلومترات في الساعة ، فكيف يمكن أن نلحق بهم إن دامت الحال على هذا ؟ » . وقال ـ بيجار ـ :

« يوجد في الجيش الفرنسي من الجنرالات أكثر من اللازم ، مع أن المعارك تربح في الميدان لا في مكاتب القادة - الجنرالات - ثم إن كثرة السيارات والدبابات تعرقل الجيش عن خفة الحركة وتعوقه عن سرعة التنقل » .

ويؤكد ضابط آخر : « من بين أربعمائة الف جندي ، يوجد ثمانون ألفاً مخصصون لحراسة السيارات العسكرية » . وهذا عقيد آخر - كولونيل - يصرخ يائساً : « **ما فائدة الطائرات والدبابات في محاربة مقاومين مدربين على حرب العصابات ، ويختفون في الحراج ووراء الصخور في الجبال ؟ هذا مع العلم أن الطيران الفرنسي يقوم في كل يوم بثلاثمائة عملية** » . والى هذا يجب أن يضاف بأن معدل عمر الضباط الفرنسيين برتبة نقيب - كابتن - هو (٤٢) سنة ، وهو عمر لا يسمح لصاحبه بأن يجري في الجبال ، في حين أن أغلب إطارات جيش التحرير الوطني من الشباب الناشط .

هذه بعض العوامل التي تبرهن - وبرهنت فيما بعد - على أن الجيش الفرنسي عاجز عن أن يواجه جيش التحرير مواجهة منتصرة ، وهي عوامل لا تستطيع قوات فرنسا إزالتها لأنها تحمل في مضمونها الأصالة الثورية التي تضرب جذورها في أعماق المجتمع الجزائري لأكثر من عشرات السنين . كما لا تستطيع فرنسا تقليدها ، حتى لو أمكن للحكومة الفرنسية تغيير هذا الواقع ودعم قواتها بإطارات (كادرات) من الشباب ، إذ أن تنفيذ مثل هذا الإجراء يتطلب سنوات كثيرة . هذا مع ملاحظة أن حرب الجزائر قد جعلت الإطارات الفرنسية ناقصة جداً ، وما تزال في كل يوم تزيد في فداحة هذا النقص ، وهذا كله يدل دلالة قاطعة على أن برنامج شال - لن يكون مصيره أحسن من مصير البرامج السابقة .

أما الجنرال (شال) فيكفي تذكيره ، بان (الجنرال نافار) كان هو الآخر قد أعد برنامجاً عسكرياً ، وكان هو الآخر مقتنعاً بأنه : سيقضي على ثورة الهند الصينية (فييتنام فيما بعد) بوسائطه العسكرية ، وأنه (ماسك بزمام الموقف) . ولا حاجة إلى التذكير بنهاية نافار في الهند الصينية ـ حيث اقتحم عليه الثوار أمنع حصونه في (ديان ـ بيان ـ فو) .

* * *

جاءت الأحداث بعد ذلك فأكدت صحة تحليل الثوار ، وبرهنت على حتمية انتصار الثورة ، وسقط (شال) ودهاقنة الاستعمار ومخططوه ومنفذوه ومستثمروه . والقضية بعد ذلك وقبله ليست قضية نبوءة أو تكهن بقدر ما هي تحليل سليم لمسيرة تيار التاريخ الذي التقى في موعد التاريخ مع الثوار التاريخيين ، فكان في ذلك انتصار (الحدث التاريخي) . وكانت مسيرة الاستعمار مضادة للتاريخ وقد حاول الاستعماريون التشبث بالماضي وإيقاف عجلة الزمن ، فسحقهم تيار التاريخ ، وقذف بهم إلى ركام الماضي المهمل ، والذي ليس له نصيب من الذكر في صنع التاريخ . وتلك هي الحقيقة الخالدة التي يمكن التوقف عندها .

٤ ـ ذريعة (أوروبيــي) الجزائر

طرحت فرنسا منذ انفجار ثورة التحرير (في الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٥٤) قضية الأقليات الأوروبية في الجزائر . واعتبرت فرنسا أن هذه الأقليات هي (الجزائر) . وانطلاقاً من هذه الفرضية الاستعمارية عممت فرنسا قضية (الجزائر الافرنسية) . وقد سبقت الإشارة إلى هذه القضية في العرض السابق ، باعتبارها ذريعة تذرعت بها السياسة الافرنسية (لرفض أي اتصال مع جبهة التحرير الوطني) . وعلى هذا الأساس أيضاً تعاملت فرنسا مع مجاهدي جيش التحرير باعتبارهم (عصاة ـ فلاقة) . ولم تكن هذه الذريعة هي السلاح الوحيد في (ترسانة الاستعماريين) ؛ فقد كان لديها مجموعة من الأسلحة الذرائعية المختلفة مثل :

١ ـ قضية الاختلاف بين البربر والعرب . باعتبار أن الأولين ـ من وجهة نظر الاستعمار ـ هم أصحاب البلاد الأصليون ، وأنهم يتصلون مع الغاليين القدامى ـ أصل الافرنسيين ـ في لغتهم ودينهم . وانتصر العرب والبربر ـ بوحدة الاسلام ـ على هذه الحجة الذرائعية .

٢ ـ قضية الصحراء ، التي اعتبرتها فرنسا جزءًا لا يرتبط (جغرافياً) بالجزائر ، وكانت هذه الحجة الذرائعية محاولة يائسة لإبقاء النفوذ الإفرنسي في المنطقة التي تعاظمت أهميتها بعد اكتشاف آبار البترول فيها .

٣ ـ قضية التمثيل ـ إذ اعتبرت فرنسا أن لها مراكز القوى التابعة لها ، والتي لها الحق بالتمثيل (من وجهة نظر فرنسا) ومن هذه المراكز (حزب الشعب) و(الجزائريون المقيمون في فرنسا ـ العمال والطلبة ـ) و(بعض مراكز القوى التي حاولت فرنسا تجميعها مثل بن لونيس) ، وكذلك الاتصال مع بعض زعماء القبائل لتكوين قوات مضادة للثورة (أحمد زيدات ورفاقه) ، وفشلت ذرائعية الاستعمار الافرنسي عبر هذه المحاولات كلها . لم تقف (جبهة التحرير الوطني) وما وقف (جيش التحرير الوطني) صامتين أمام ذرائعية الاستعمار إذ لم يكن السلاح الذي حمله الثوار التاريخيون إلا إحدى وسائلهم في الصراع ضد الاستعمار وأجهزته ووسائطه ، واستخدمت القيادة الثورية ذات السلاح ولكن بمنطق الثوار وتعقل الأحرار ، وكان لا بد (للذرائعية الضعيفة المخادعة) من السقوط أمام وهج المنطق السليم المدعم بالإيمان وبقوة السلاح . وقد يكون من المناسب التوقف عند ثلاث ظواهر ـ تشكل مواقف مبدئية ـ من قضية الذرائعية الفرنسية :

آ ـ الأقليات الأوروبية في الجزائر :

نشرت وزارة الأخبار ـ في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ـ دراسة عن الأقليات الأوروبية في نشرتها الصادرة بالفرنسية . وتضمنت هذه الدراسة ما يلي :

ليست هناك أقلية واحدة بل عدة أقليات . وقد اعتادت الاحصائيات والنصوص الادارية الفرنسية حشرهم في عبارة (الفرنسيون من الأصل الأوروبي) أو (غير المسلمين) وقابل (الفرنسيين المسلمين) ـ على حد زعمها ـ . والحقيقة أنه يجب اعتبار ثلاث أقليات أوروبية على الأقل في الجزائر ، نشأت بسببها

مشاكل سياسية واقتصادية مختلفة . ففي سنة **١٩٥٤** ، كان عدد أوروبيي الجزائر الذين يسمون (بغير المسلمين) هو : **مليون وثلاثة وثلاثون ألفاً** (١,٠٣٣,٠٠٠) خلافاً لما يزعمه ويردده (سوستيل) وغيره أمثال (فوستردالس ـ وزير الخارجية الأمريكي آنذاك) فقد ادعى الأول ، أن عدد الطبقة الأوروبية التي تعيش في الجزائر يبلغ مليوناً ومائتي ألف (١,٢٠٠,٠٠٠) ، وادعى الثاني أن مليوناً ونصف المليون هو عدد الطبقة الأوروبية التي تعيش في الجزائر . ومن بين هذه الأقليات ، يجب اعتبار الأقسام الآتية :

أ ـ الأجانب الذين يرجعون إلى قناصلهم الخاصة . ومن هؤلاء الايطاليون والاسبان والمالطيون غير المتجنسين ، وبعض اليونانيين والسويسريين والألمان والاسكندينافيين ، ويبلغ مجموع هؤلاء **ستين ألف شخص** (٦٠ ـ ألف) .

ب ـ اليهود الجزائريون : وقد اختلطوا نظرياً بالفرنسيين وبالأوروبيين بصفة عامة منذ صدور قانون كريميو (سنة ١٨٧١) لكنهم ليسوا فرنسيين في الحقيقة ، ولا هم من الأوروبيين بل هم من سكان الجزائر الأصليين . ويرجعون في الغالب إلى العنصر البربري . إنهم من المجتمع الجزائري ، ورغم مواقفهم السياسية والعنصرية المؤيدة لأوروبيي الجزائر . وهذا من العوامل منحت للأقلية اليهودية مكانة ممتازة . فهم أقلية على حدة، لا يمكن عدها من بين الأقليات الأوروبية . وكان عدد أفراد هذه الأقلية اليهودية في الجزائر سنة (**١٩٥٤**) حوالي **مائة وخمسين ألفاً** (١٥٠ ـ ألفاً) ، وهي تعيش في المدن ، وتشتغل بالصناعات التقليدية وفي الوظائف العامة . ويحتل إلى جانب ذلك اليهود في الجزائر مكاناً مرموقاً في ميداني المهن الحرة والتجارة، وإذا كانت هناك طبقة بورجوازية

محظوظة من اليهود ، سكان (تلمسان) و (الجزائر) العاصمة ، وجهة (الشلف) . فإن هناك كذلك طبقة تعيش في مستوى منحط . كما هو حال يهود (قسنطينة) والجنوب (الجزائري) فهؤلاء يشاطرون المسلمين عيشهم المميز بالبؤس والفقر والحرمان .

ماذا بقي من العدد الذي تردده الإحصائيات الافرنسية ؟ لم يبق إلا ثمانمائة ألف (٨٠٠ ـ ألف) نسمة التي تؤلف ما يعرف بفرنسيي الجزائر . وحتى بالنسبة لهذا العدد فمن المبالغة في التقدير أن يتكلم عنهم بصفتهم فرنسيين لأن نسبة خمسين بالمائة إلى ستين بالمائة من تلك المجموعة تتألف من عناصر أوروبية غير فرنسية الأصل . ولكن اكتسبت الجنسية الفرنسية بالولادة في الجزائر على مقتضى قانون (١٨٨٩) ، وفي هذا الصدد تجدر الملاحظة بأن الأوروبيين المنحدرين من أصل فرنسي لا يتجاوز عددهم أربعمائة ألف (٤٠٠ ألف) في الجزائر ، ينحدرون من المغامرين والمضاربين الذين نزحوا مع الاحتلال ، ومن هؤلاء الذين أبعدوا عن منطقة باريس لأسباب سياسية في سني الاضطراب (ما بين ١٨٤٨ و١٨٥٢) ، ومن مقاطعتي (الالزاس واللورين) اللتين احتلهما الألمان في الحرب الألمانية ـ الافرنسية (١٨٧١) حيث نزح عدد كبير من المقاطعتين المذكورتين إلى الجزائر ، على أن أكبر عدد هاجر إلى الجزائر هو ذلك الذي جاء في فترات الأزمات الاقتصادية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ـ بالاضافة إلى أولئك الذين هاجروا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

هؤلاء الأربعمائة ألف (أو حتى الثمانمائة ألف) هم الذين أرادت فرنسا استخدامهم ذريعة للاحتفاظ (بالجزائر الفرنسية) التي كان عدد سكانها المسلمين يزيدون على تسعة ملايين . ويذكر أنه كان في

فرنسا (٢٠٠) ألف جزائري خلال تلك الفترة - من العمال - وعلى كل حال - فقد كان رد (الثورة) على ذرائعية الاستعمار الفرنسي ، واضحاً في البيان التالي :

ب - رسالة من جبهة التحرير الوطني إلى الفرنسيين :

رغم التحديات والمراهنات المتتالية للسيدين (غي موليه) و(لاكوست) . ورغم انتصار واقعية الرأي العام الفرنسي وانضمامه الى جانب الشعب الجزائري ، فإن حرب الجزائر تزداد تأزماً . ونحن الآن على عتبة اللامفهوم ، وقبيل حدوث ما لا تحمد عقباه . ولذا فان الذين يحاربون باسمكم - الذين ضدهم تسفك دماء أوليائكم وأقاربكم - هؤلاء الناطقون باسم شعب واعٍ بأنه مضطهد ، واضطهاده ثمن خديعة أنتم ضحيتها ، هؤلاء الرجال يريدون اليوم أن يتوجهوا إليكم رسمياً من أجل أن تكف هذه الفضيحة ، فضيحة القلب والعقل .

وما من شك أن أبشع شيء في هذه المأساة الدامية هو هذا الجو من اللامعقول ، واللاشعور الذي تجري فيه ، لماذا هذه المجازر ؟ كيف تم الوصول إلى ذلك ؟ ما هي القيم الحقيقية والعميقة التي هي موضوع الخلاف ؟ إلى أين هم متجهون ؟

إن هذا الجهل الذي تعانيه أغلبية الرأي العام الفرنسي وعدم قدرتها على إعطاء معنى للمغامرة الجزائرية ، تلك هي نتيجة دعاية طويلة أبرزها تلك الكذبة التي ترمي إلى وصف الثورة الحالية كعاصفة في يوم صحو أو كحدث غير متوقع ، واللامعقول في تاريخ هذه المقاطعات الثلاث ، وظاهرة لا تمت للواقع بأية صلة .

إنه يجدر بكم رفض هذا الكذب ، فإن ما يدفع للضحك اليوم وإلى السخرية هو إنكار اندفاع الشعب الجزائري بكامله في هذه

الثورة التحريرية . إن الجزائر ، قمة وقاعدة ، لم تقبل في أي وقت كان السياسة التي فرضتها عليها الحكومات الفرنسية المتتالية منذ الاحتلال وحتى اليوم . وكانت طلباتها الأساسية تجد تعبيراً لها في المنظمات السياسية ، تلك المنظمات التي كانت تحلها الإدارة الفرنسية الواحدة تلو الأخرى ، لأنها كانت الصوت المتجدد باستمرار على أشكال مختلفة لأنه الصوت العميق لشعب بكامله من أجل الكرامة والحرية . فتاريخ الحوار الديموقراطي الذي حاول الشعب الجزائري إقامته مع فرنسا ، في إطار الأنظمة التي فرضتها هذه الأخيرة عليه ، لم تكن سوى سلسلة طويلة من الرفض المهيمن والاضطهاد العنيف . إنكم لن تستطيعوا تصور الشعور الذي تركه في نفوس الجزائريين منذ سنة (١٩٤٨) . بتزوير الانتخابات . كان شعوراً بالكرامة المداسة ـ المسحوقة ـ فكانت تلك الحرية المزعومة أمر وأقسى في كثير من الحالات من الحرمان من الحرية .

إن أبواب الثورة تفتح تدريجياً عند عدم احترام إرادة الشعب ، وهكذا عزم الشعب الجزائري على حمل السلاح بعد أن فشلت جميع الوسائل التي استعملها للتعبير عن مطامحه . لقد فهم أن كل ثقة لم تكن إلا خدعة . فالثورة التي أشعل نارها في الفاتح من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ **١٩٥٤** حزبه ـ وهو جبهة التحرير الوطني ـ التي كانت الوسيلة الأخيرة لفرض الحوار ، ولإسماع صوته للرأي العام العالمي . إن الثورة الجزائرية تندرج في إطار الحركة العالمية من أجل رقي جميع الأمم الواعية بشخصيتها ، والواعية كذلك بأنه لا كرامة بدون استقلال .

لا ! إن الثورة الجزائرية التي عجز عن خنقها ما يقرب من نصف مليون جندي من جيش عصري ، لا يمكن أن تكون من صنع بعض

قطاع الطرق ، لا يتمتعون بثقة الشعب ، سلاحهم الوحيد هو الإرهاب ، كما أرادوا أن يوهموا الناس بذلك ، **إنها ثورة لا تمت بأية صلة للصورة القبيحة التي أعطوها إياها . والتي يكون التعصب الديني الإسلامي البحت قد ازداد شدة بحكم حب القوة ، والأمل في أن تخرج الجزائر من تحت السيطرة الغربية ، واندماجها في امبراطورة عربية غازية . لا ! إن الثورة الجزائرية ليست حرباً دينية ، بل ثورة تحريرية . إنها ليست مبنية على الحقد ، بل هي كفاح ضد نظام تعسفي ، وهذا هو ما يريدون أن يجعلوكم تجهلونه .**

كما أنهم نجحوا جزئياً في جعلكم تنسون أن الاعتداءات الموجهة ضد المدنيين الأوروبيين ، والتي عرفت المقاومة الجزائرية كيف تتجنبها منذ الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ **١٩٥٤** وحتى غاية **٢٠** أوت ـ آب ـ **١٩٥٥** . لم تبدأ إلا بعد عمليات الإبادة التي ذهب ضحيتها الآلاف من المدنيين الجزائريين ، هناك حقاً منطق الحرب ، غير أنه يجب الاعتراف هنا بأن تزايد الاعتداءات كان النتيجة الحتمية والمباشرة لشراسة عمليات التهدئة . **وإذا كانت هناك اعتداءات فإنها لم تكن إلا بعد أن سقطت النساء والأطفال والشيوخ تحت الرصاص والقنابل الفرنسية ، بعد أن أحرقت بيوت وقرى بكاملها ، وبعد أن أصبح العديد من الأبرياء يقتلون . هؤلاء الذين يعلنون لكم عن موتهم يومياً والذين يسمونهم المتمردين . أنتم الذين لازلتم تتذكرون ضحايا (أورادور سورغلين)[*] . إعلموا أن**

(*) أورادور ـ سورغلين : (ORADOUR-SUR GLANE) ـ بلدة في أعالي ڤيينا دائرة (روشوشوارت : (ROCHECHOUART) . وقد أباد الألمان يوم (١٠ ـ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٤) سكانها البالغ عددهم (١١٠٠) شخص بسبب المقاومة . واعتبرت هذه العملية ، من أعمال الإبادة الوحشية التي أدين بها النازيون .

إنه لأمر ضروري معرفة هذه الحقائق ، وترويجها ، وعدم التأثر بأكاذيب أغلبية الصحافة ، والبحث عن معرفة ما يكمن وراء كلمتي (الأمن) و(التهدئة) . ويجدر بكم أن تنظروا إلى حقيقة الوضع في الجزائر ، وألا تنخدعوا باسم الواجب الوطني . فهل حقيقة يقاتل الشعب الفرنسي ويموت في الجزائر من أجل مصلحة وطنه وسمعته ؟ أم من أجل المحافظة على الامتيازات الهائلة التي يتمتع بها (بورجو) و(بلاشين) وأمثالهم ؟ وهل يقبل الشعب الفرنسي التضحيات الجسيمة التي تتطلبها هذه الحرب الجائرة والتي سيخسرها مسبقاً ؟ .

إننا نعلم بأننا لن نغلب ، وهذا لا يعني أن جيشاً مكون من خمسمائة ألف أو مليون جندي كالذي تستطيع فرنسا حشده ، لا يستطيع أن يخنق بالحديد والنار التعبير الحالي عن إرادة الشعب الجزائري ، غير أن التحدث بالنسبة للجزائر عن حل عسكري يعتبر تلاعباً بالألفاظ ، لأنه ليس هناك حل عسكري إلا لقضية عسكرية ، فتحرير شعب يعد عشرة ملايين نسمة ليس مسألة عسكرية . جزائر مخربة ، وفرنسا مخنوقة ، في الوقت الذي تتطلب فيه الظروف ، وأغلبية شعبها العمل على النهوض : تلكم هي الآفاق التي يعملون يومياً على جعلكم تقبلونها باستعمال أبشع الأكاذيب. أما سمعة فرنسا فإنها ليست في انتصار عسكري ، أو في سياسة الإبادة لشعب بكامله ، على نحو ما يطبقها المسؤولون الفرنسيون .

إن هذه الأعمال ـ بالعكس ـ تضر به ، ففي نظر شعوب أفريقيا وآسيا ، وفي نظر جميع الشعوب الحرة والمسالمة ، فإن هذه المجازر الجماعية ، وهذه الأحزان ، وهذه الدماء التي تهدر ، وباختصار

مؤسسة التهدئة ، هذه التي لم تجرأ بعد على تسمية نفسها باسم مدرسة (إعادة الاحتلال) أو مدرسة (حرب تجديد الاحتلال) . وهي تدفع كل يوم الى الشك في القيم الأكثر رسوخاً في القارة القديمة وخاصة في فرنسا .

إن سمعة فرنسا تكمن في مبادىء الحرية والمساواة والأخوة التي تعلمنا حبها ، إنها تكمن في تقاليد تنكر لها اليوم أولئك الذين بين أيديهم مصير بلدكم .

إن سمعة فرنسا ستزداد قوة بإيجاد حل عاجل عن طريق المفاوضات للقضية الجزائرية ، لأنها بذلك تؤكد وفاءها لمبادئها الثورية والديموقراطية . كما سيسمح لها ذلك بالمحافظة ـ في العالم الإسلامي ـ على سمعة قد تفقدها نهائياً من جراء سياسة القوة التي تطبقها في الجزائر .

لقد تضاعف عدد الجنود الفرنسيون في الجزائر منذ أن أخذ زمام السلطة رجال انتخبتموهم من أجل إحلال السلام ، وتوسعت رقعة المناطق المراقبة من طرف جبهة التحرير الوطني ، وتزايد (انعدام الأمن) . والتحقت آخر العناصر الموصوفة (بالمعتدلة) من الرأي العام الجزائري بصفوف (جبهة التحرير الوطني) . فبأي انتفاضة للضمير الفرنسي ـ ليس باسم تعلقه التقليدي بالحرية فحسب ، ولكن باسم الواقعية أيضاً ـ وبأي ضغط من طرف الرأي العام أيضاً ستجد حكومة الجبهة الجمهورية نفسها مضطرة لفتح عيونها للسير في طريق التسوية الواضحة والنزيهة بواسطة المفاوضات ؟ .

وعلى عكس ما تزعمه بعض الأكاذيب الفاضحة ، فإن الثورة الجزائرية ليست موجهة ضد الشعب الفرنسي الذي تريد الجزائر أن ترتبط معه بأحسن العلاقات ، وذلك في نفس الوقت الذي تطمح فيه

إلى الحرية والاستقلال وتعمل لتحقيقهما بكل ما أوتيت من قوة . كما أنّه يمكن الاحتفاظ بروابط صداقة وتعاون نزيه خصوصاً في الميادين الاقتصادية والثقافية بين بلدينا ذوي السيادة . **إن الجزائر ـ وهي الأمة الفتية والمسالمة ـ مهتمة أساساً بتجهيزها عندما تكون قد عادت إلى نفسها ، ستضمن الممارسة الحرة لحقوق المواطنة وواجباتها لكل الفرنسيين الذين سيختارون الجنسية الجزائرية ويتخلون عن وضع الأجنبي ، الذي سيكون على كل حال متمتعاً بنفس الوضع الذي تضمنه كل الديموقراطيات لضيوفها . والجزائر الواعية لوجهتها الاقتصادية والثقافية والسياسية ، ستكون دولة ديموقراطية ، تقبل ضمنها وفي صفوفها تنوع الأجناس والأديان والآراء . ولا يمكنها بالتالي إلا أن تقيم علاقات ودية مع القطرين الأخوين في المغرب العربي ، وبلدان المشرق الشقيقة للشعب الجزائري في تقاليده العربية ـ الاسلامية .**

إن من واجب الأمة الفرنسية ألا تخاف من ذلك ، وعليها أن تدرك الدور الذي يمكنها أن تمارسه بفضل تعاونها مع شمال أفريقيا ، في هذا العالم الذي يعيش أوج ازدهاره وتنميته ، وذلك بأن تنضم قبل فوات الأوان إلى سياسة الصداقة والتعاون الحرّ . ذلك أنه انطلاقاً من هنا يجب أن تنطلق شرارة الاتصال بين حضارتين ، وهذا بكل وضوح ، وبعيداً عن كل لبس وغموض . هو ما يتطلع إليه المغرب العربي كهمزة وصل بين ثقافتين ، وبين عالمين . **ولتحقيق ذلك ، لا بد من وقف هذه المجزرة التي لا مبرر لها قبل أن يصبح الجرح أعمق ، وقبل أن تصبح القضية لا رجعة فيها . إن حرب الجزائر (علاوة على الدم الذي يراق كل يوم) هي هذان العالمان اللذان يرفضان الحوار ، رغم ما يحمله هذا الحوار من آمال عريضة . إنكم**

إلى جانب كل الوطنيين ، وكل الشعوب المحبة للحرية ، ونحن كذلك[*] .

٢٠ ماي ـ أيار ـ ١٩٥٦

ج ـ رسالة جبهة التحرير الوطني إلى اليهود :

إلى السيد الحاخام

إلى السادة أعضاء المجلس الديني الأعلى للاسرائيليين .

إلى جميع النواب والمسؤولين عن طائفة الإسرائيليين بالجزائر .

سيدي الحاخام ،

معشر السادة والمواطنين الأعزاء .

إن جبهة التحرير الوطني التي تتحمل عبء قيادة الثورة ضد الاستعمار منذ سنتين بقصد تحرير الوطن الجزائري لترى أنه قد حان الوقت على كل جزائري إسرائيلي ليفرض على نفسه ، وبناء على ضوء تجربته الخاصة ، تحديد موقفه دون غموض أو إبهام في هذه المعركة التاريخية العظيمة .

إنه من المعلوم اليوم أن حرب (تجديد الاحتلال) التي أرغم عليها الشعب الجزائري ، قد أتت نهائياً بفشل مزدوج في الميدانين العسكري والسياسي . ويعترف القادة الفرنسيون اليوم ، وعلى رأسهم (المازيشال جوان) بعدم إمكانية القضاء على الثورة الجزائرية الظافرة .

وإن الحكومة الفرنسية الآن في بحثها عن حل سياسي لا مفر

(*) ملفات وثائقية (٢٤) وزارة الاعلام والثقافة . أوت ـ آب ـ ١٩٧٦ ص ٦٢ ـ ٦٣ (الجزائر) .

منه ، لتريد الاستسلام إلى أمانيها في سلب الشعب الجزائري انتصاره بتماديها في الأعمال السفيهة والمناورات الدنيئة التي لن يكون نصيبها ، ومنذ الآن ، إلا الفشل الذريع . وأهم ما في هذه المناورات أنها تحاول عزل جبهة التحرير الوطني عن الشعب ، ولو بكيفية جزئية ، وذلك بحملها على إجماع الوطن إجماعاً حصيناً في قيامه ضد الاستعمار .

إنكم لا تجهلون يا معشر المواطنين الأعزاء أن جبهة التحرير الوطني التي جعلت رائدها إيماناً وطنياً رفيعاً بيناً ، قد قضت على السياسة الشيطانية التي كانت تحاول بث التفرقة ؛ إذ برزت أخيراً في مقاطعة إخواننا التجار (الميزابيين) التي كادت تتعداهم إلى كافة التجار الإسرائيليين ـ ان هذه المحاولة التي قضينا عليها قبل استفحالها ، كانت كأخواتها السابقات من صنع الإدارة الافرنسية العليا ، وقد قامت بتطبيقها شرذمة من المغامرين والمخادعين التابعين لمصلحة البوليس . ـ إن رجال الشرطة والخونة والوشاة ورجال الإرهاب السفاكين ـ قد قتل من قتل منهم لا باعتبار ملته ودينه ، ولكن قتلوا باعتبارهم أعداء للشعب .

إن جبهة التحرير الوطني التي هي الممثل الحقيقي الوحيد للشعب الجزائري لترى اليوم أنه من الواجب عليها أن تتوجه رأساً إلى جماعة الإسرائيليين ؛ لتطلب منهم أن يصرحوا علناً بانتمائهم إلى الأمة الجزائرية ، وإن هذا الاختيار إن وقع التعبير عنه بكل وضوح لمما يبيد الشكوك والخلافات وينتزع بذور الحقد التي غرسها الاستعمار الفرنسي في القلوب . وإنه من ناحية أخرى لخير معين على خلق الأخوة الجزائرية خلقاً جديداً ، بعد أن حطمها الاستعمار الفرنسي يوم أن فجعنا به . إن جماعة الإسرائيليين بالجزائر في

تخوفها من سوء مصيرها ومستقبلها كانت منذ ثورة فاتح نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ **١٩٥٤** . محل اضطرابات وتغييرات سياسية مختلفة .

إن المندوبين الجزائريين في المؤتمر اليهودي العالمي الأخير ، الذي انعقد بلندن ، قد أظهروا تعلقهم بالجنسية الفرنسية خلافاً لإخوانهم التونسيين والمغاربة ونحن على هذا الموقف متأسفون .
ولم تتجه الجماعة الاسرائيلية نحو اتخاذ موقف محايد إلا بعد أن ظهرت قلاقل السادس من فبراير ـ شباط ـ ذات الصبغة الاستعمارية الفاشستية . وظهرت فيها من جديد تلك العبارات المعادية لليهود .
ثم ظهرت من بعد جماعة من الإسرائيليين تنتمي إلى جميع الطبقات ، وظهرت خصوصاً بعاصمة الجزائر ، وأدت بها شجاعتها إلى القيام بعمل مضاد للاستعمار . بكيفية واضحة ، إذ صرحت باختيارها الحكيم النهائي للجنسية الجزائرية . إن هؤلاء لم ينسوا تلك القلاقل المعادية لليهود سواء منها الاستعمارية والعنصرية . إذ تتابعت بكيفية طاحنة سفاكة إلى نظام (فيشي) الدنيء . فعلى الجماعة الإسرائيلية أن تفكر في الحظ القاسي الذي حازه إليها (بيتان) وكبار المستعمرين من نزع للجنسية الفرنسية ، وإصدار قوانين وقرارات استثنائية ، واغتصاب وإذلال واعتقال ورمي في النيران . وبعدما ظهرت حركة (بوجاد) وظهر انبعاث الفاشستية ، فإنه يمكن اليهود أن يعرفوا من جديد رغم جنسيتهم الفرنسية ذلك الحظ الذي عرفوه أثناء نظام (فيشي) .

إننا لا نريد تتبع مجرى التاريخ القديم ، ولكنه يجدينا نفعاً أن نذكر بالعهد الذي كان فيه اليهود بفرنسا أقل اعتباراً من الحيوان . وكان ممنوعاً عليهم دفن موتاهم ، وكانوا يضعون الأموات تحت

التراب اختلاساً في الليل ، في أي مكان ، لأنه كان ممنوعاً عليهم منعاً كلياً أن يملكوا أدنى مقبرة من المقابر . وقد كانت الجزائر في ذلك الوقت ـ ذاته ـ مأوى لجميع الإسرائيليين ، وأرض حرية لهم يفرون إليها من القمع والاضطهاد الديني . وهذا ما جعل الجماعة الاسرائيلية تفخر بأن تقدم إلى وطنها الجزائري الشعراء والفنانين والتجار وأهل القانون بل حتى القناصل والوزراء .

إن يكن الشعب الجزائري قد أبدى أسفه لسكوتكم وصمتكم ، فإنه أخذ بعين الاعتبار أيضاً الموقف المعادي للاستعمار الذي أبداه الرهبان الكاثوليكيون ، مثل أولئك الذين كانوا في مناطق الحرب (كالرمشي) و (سوق اهراس) . وإنه ليرى بعين الاعتبار حتى موقف كبير الأساقفة الآن ، رغم أنه كان في الماضي القريب يتصف بصفات القمع الاستعماري . **إن جبهة التحرير الوطني لترجو من قادة الجماعة اليهودية (الطائفة) أن تؤدي بهم الحكمة إلى المشاركة في بناء الجزائر الحرة ذات الإخاء الحقيقي ، وما هذا الرجاء منها إلا لأنها تعتبر الاسرائيليين الجزائريين من أبناء وطنها .**

إن جبهة التحرير الوطني واثقة من أن المسؤولين سيفهمون أن من واجبهم ، ومن المصلحة الرشيدة لجماعتهم الإسرائيلية ، أن لا تبقى بعيدة عن الغوغاء ، وأن تحكم بدون تحفظ على النظام الاستعماري المحتضر ، وأن تصرح باعتناقها الجنسية الجزائرية . وتقبلوا تحياتنا الوطنية .

حُرِّر بمكانٍ ما بالجزائر

ـ في فاتح اكتوبر ـ بتشرين الأول ١٩٥٦

جبـهة التحـرير الـوطني

٥ ـ ثورة الجزائر تنتقل إلى فرنسا

استيقظ العالم صباح يوم (٢٥ ـ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٨) على أخبار مثيرة . فقد تناقلت وكالات الأنباء ، وصدرت الصحافة ، وهي تستنفر المشاعر ، وتشد الأعصاب بما حدث من تطورات جديدة على ساحة الصراع الجزائري ـ الفرنسي . فكانت معظم صحافة العالم تبرز على صفحاتها الأولى ـ بالألوان المختلفة ـ وبالأحرف الكبيرة ، عناوين ضخمة مثل :

« الجزائر تنقل الحرب إلى فرنسا » و « الجزائر تدمر مصافي البترول في فرنسا » و « الثوار الجزائريون يهاجمون قيادة الشرطة ـ البوليس ـ في قلب باريس » و « الحرائق تشتعل بكل مكان من فرنسا » و « المقاومة الجزائرية تدمر نصف مخزون البترول الفرنسي » . و« مصرع عشرين قتيلاً من رجال الإطفاء بمرسيليا أثناء انفجار مصفاتها » و « رجال الشرطة ـ البوليس ـ في باريس ، يصابون بالذعر » و « قوات البوليس تجوب شوارع باريس بخوذها الفولاذية » . وإلخ . . .

كان ذلك تطوراً مثيراً في الصراع الجزائري الفرنسي ، غير أنه لم يكن تطوراً مباغتاً ، فقد ردد قادة الثورة والمسؤولون فيها ، مرات عديدة من قبل ، إنذارهم إلى الحكومة الإفرنسية بنقل رحى الحرب

إلى فرنسا ذاتها إن هي تابعت قمعها الوحشي واستمرت في أساليبها اللاإنسانية في التعامل مع الجزائر (ثورة وشعباً) غير أن فرنسا لم تحمل إنذار الثورة الجزائرية على محمل الجد ، فمضت في التعرض لمدنيي الجزائر، لا تمييز بين شيوخ ونساء وأطفال ، ولا تفريق بين مجاهدين يحملون السلاح ومواطنين عزل لا يملكون الوسائط للدفاع عن أنفسهم ، أو حماية حياتهم .

ولقد تطلب هذا التطور في الواقع جهداً كبيراً من قادة الثورة الذين عكفوا على دراسة قرارهم مرات عديدة قبل نقل الحرب من أرض الجزائر الطيبة إلى قلب فرنسا ، وكانوا يرون أن فتح هذه الجبهة هو أمر ممكن ، وأن نتائجه ستكون بعيدة المدى ، ولكنهم لم ينفذوا خطتهم قبل ذلك لأنهم رغبوا تجنب إستثارة الاستعماريين والرجعيين في فرنسا للشعب الفرنسي ، وحشده ضد الجزائر المجاهدة بحجة أن الثورة الجزائرية تتحدى القدرة الفرنسية في وطنها وأرضها ، بعد أن تحدت فرنسا وشعبها ـ من المستوطنين ـ على أرض الجزائر ذاتها . وأن الثورة الجزائرية استهترت بالدم الفرنسي ، فأخذت في إزهاق أرواح الفرنسيين في فرنسا .

ولكن عندما تألبت الرجعية الفرنسية في فرنسا ذاتها وفي الجزائر ، وأوصلت ديغول إلى الحكم ليتابع المحاولات الفرنسية في قمع ثورة الجزائر ، وإعاقة شعبها عن بلوغ أهدافه في الحرية والاستقلال ، لم يبق أمام الثورة الجزائرية من خيار إلا تطوير الصراع ونقل الحرب إلى فرنسا . ولكن ، حتى في هذه الحالة ، فإن ضربات الثورة الجزائرية لم تستهدف (المدنيين الفرنسيين) وإنما تركزت على (آلة الحرب الفرنسية) والموارد الاقتصادية التي تغذي (آلة الحرب) وترفدها بالقدرة والقوة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن قيادة الثورة لم تسقط من حسابها ما قد يتعرض له الفدائيون في فرنسا من التنكيل والتعذيب وهم تحت رحمة العدو ، غير أنها أدركت أن تضحية هؤلاء لن تتجاوز في كل الأحوال ما كان يتعرض له أهلهم وذووهم في معتقلات العدو وسجونه في الجزائر ذاتها . كما أنه ليس باستطاعة فرنسا حجز الجزائريين في فرنسا وهم الذين يضطلعون بالخدمات وتقديم اليد العاملة الرخيصة للصناعة الفرنسية ، إذ أن مثل هذا الإجراء سيدمر الصناعة الفرنسية وسيصيبها بالشلل .

يظهر من خلال ذلك ، أن قيادة الثورة الجزائرية لم تسقط من حسابها أي عامل من العوامل وهي تعد مخططاتها لتطوير الصراع الشامل .

وجاءت بعد ذلك مرحلة التحضير لتنفيذ العمليات التدميرية بحيث تأخذ شكل تظاهرة عنيفة وقوية تستنفر الرأي العام الإفرنسي خاصة والرأي العالمي بصورة عامة للحصول على تأثير معنوي معادل للتأثير المادي ، ولهذا تم اختيار عدد من الأهداف في أنحاء مختلفة ، وليس هدفاً واحداً في منطقة واحدة . وكان لا بد في مرحلة التحضير هذه من اختيار العناصر المنفذة (الفدائيين) اختياراً دقيقاً ، ثم تجهيز هذه العناصر بما تحتاجه من أسلحة ومتفجرات ، وإذا لم يكن من الصعب اختيار العناصر المنفذة وسط جمهور الجزائريين المقيمين في فرنسا ـ وكلهم ثوار مجاهدون على استعداد لتنفيذ أصعب الواجبات وأخطرها ، إلا أن تجهيز هؤلاء بما تحتاجه عملياتهم لم يكن من الأمور السهلة . غير أن التصميم العنيد والإرادة الصلبة ، استطاعت تذليل كافة العقبات ، فأمكن تطوير الصراع في الوقت المناسب ، والانتقال من مرحلة الإنذار والتهديد ، إلى مرحلة التنفيذ العملي .

أ ـ تقرير الصحافة عن الحرب في فرنسا :

لقد تشابهت التقارير الصحافية ـ في شكلها ومضمونها ـ وهي تنقل للعالم خبر الحدث المثير . وإذن ، فإنه يكفي اختيار ما ذكرته (وكالة اليونايتد برس)(*) في تقريرها الذي جاء فيه :

قام الوطنيون الجزائريون بحملة شاملة في فرنسا ـ للمرة الأولى ـ منذ أن بدأت الثورة الجزائرية قبل أربعة أعوام . وقد وجه الوطنيون الجزائريون ضربات منسقة ساحقة في باريس وفي جنوب فرنسا حيث أشعلوا النيران في ثلاثة مخازن ضخمة للبترول وقتلوا أربعة من رجال الشرطة الفرنسية . وتجدر الإشارة إلى أن الوطنيين الجزائريين لم يقوموا من قبل بتوجيه مثل هذه الضربات البالغة العنف داخل فرنسا . وتخشى الشرطة الفرنسية أن يكون هذا العمل هو البداية لحملة من الإرهاب المتعاظم باستمرار ، حتى يوم ٢٨ أيلول ـ سبتمبر ـ القادم حين يجري (ديغول) استفتاءه على الدستور الفرنسي الجديد . ومن المعروف أن الوطنيين الجزائريين يعارضون بشدة هذا الدستور .

وقد وقعت الحرائق الهائلة الثلاث في آن واحد في مدن (تولوز) و (فريون) و (مرسيليا) في أعقاب انفجارات قوية وقعت بالمصافي والخزانات البترولية .

ووصفت وكالتا (رويتر) و (الصحافة الفرنسية) حريق (مرسيليا) بأن انفجاراً مريعاً وقع في أحد الخزانات التي تشكل مستودعاً للبترول في (موربيان) قرب (مرسيليا) . وقد امتدت ألسنة النيران فوراً إلى أربعة خزانات أخرى . وقام رجال إطفاء البحرية

(*) الرأي العام ـ الدمشقية ـ صباح الأربعاء ـ ٢٧ ـ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٨ (الموافق ١٢ صفر ـ ١٣٧٨ هـ) العدد : ١٢٥٧ ص ١ و٤ .

باستخدام أجهزة قوية للغاية من أجل السيطرة على الحريق . ولم تمض سوى فترة قصيرة جداً حتى أصيب (١٥) منهم بجراح مختلفة ، ومن بينهم أربعة فدائيين تعتبر حالتهم خطرة ، ثم جاءت أنباء بعد منتصف الليل ؛ فأكدت أن فرنسا فقدت عشرين آخرين من رجال مطافئها في (مرسيليا) ، وذلك عندما وقع انفجار في مصفاة البترول أثناء مكافحة حرائق الخزانات المحيطة بالمصفاة .

وفي تمام الساعة الثالثة من صباح ٢٥ آب ـ أغسطس ـ اندلعت ألسنة اللهيب في خزان آخر ، وقد أسفر هذا الحريق ـ حتى تلك الساعة عن تخريب خزانين تخريباً كاملاً واندلاع النيران في أربعة خزانات أخرى . وقد تركزت جهود رجال الإطفاء على منع النار من الامتداد إلى (١٤) صهريجاً ـ خزاناً ـ في المنطقة . وفي الوقت ذاته يخوض رجال الإطفاء الفرنسيون ، صراعاً ضد النيران التي زاد ارتفاعها على مائة متر بعد حدوث انفجار في مستودعين للبترول قرب (تولوز) . ويحتوي أحد المستودعين على (٩٠٠) ألف ليتر من البنزين ، بينما يحتوي الآخر على (٣٠٠) ألف ليتر ، وتقدر الخسائر بنحو (١٥٠) مليون فرنك . وذكرت سلطات الشرطة ـ البوليس ـ أنها اكتشفت قنبلة بلاستيكية في مستودع (مارتيغ ـ لاميزا) بالقرب من (مرسيليا) .

ولم يكتف الثوار الجزائريون بتوجيه هذه الضربات الحاسمة التي وجهوها إلى المصافي والخزانات البترولية الفرنسية ؛ بل إنهم هاجموا أيضاً مراكز الشرطة الفرنسية ـ البوليس ـ في وسط العاصمة الفرنسية . ووصفت وكالة (رويتر) الهجوم فقالت : توجهت جماعة من الجزائريين بالسيارة إلى كراج للشرطة ـ البوليس ـ وما كاد أفرادها يصلون إليه ، حتى قفزوا من السيارة ، وأصلوا رجال الشرطة الذين

يقفون أمام المرآب ـ الكراج ـ بنيران مدافعهم الرشاشة ومسدساتهم ، فقتلوا ثلاثة منهم ، وأصابوا رابعاً بجراح . ثم عمدوا إلى إلقاء زجاجات من البنزين المشتعل أدت إلى نشوب حريق . وقد تمكن المهاجمون من الفرار . وفي منطقة (فانسين) أطلقت جماعة من الجزائريين النار على شرطي فيما كان يخرج من سيارة للشرطة في كراج آخر ، فأصيب بجروح ونقل إلى المستشفى حيث ما لبث أن فارق الحياة .

وعلى الأثر قامت قوات الشرطة بحملة إرهاب عنيفة على الجزائريين في فرنسا ، وقد قتل ثلاثة منهم برصاص الشرطة عندما احتجوا على اعتقالهم وتعذيبهم . وذكر مراسل الإذاعة البريطانية في ـ لندن ـ بأن إحدى هذه الهجمات حدثت على المقر الرئيسي لإدارة الشرطة في باريس ، وأضاف ـ المراسل ـ أن دوريات من الشرطة المسلحين قد انطلقت إلى الشوارع . ولبس أفرادها خوذهم الفولاذية على رؤوسهم ، وأقيمت المتاريس عند مداخل باريس .

وقد ارتبطت حملة الإرهاب ضد الجزائريين في فرنسا بحملة الإرهاب في الجزائر ذاتها ، حيث أفادت أنباء الجزائر بأن القوات الفرنسية تمارس عملياتها الإرهابية في مختلف مناطق الجزائر ، وخاصة في المدن ، وذلك بهدف إرغام الجزائريين على تسجيل أسمائهم في قوائم الانتخاب ، وبالتالي الإشتراك في الاستفتاء على دستور (الجنرال ديغول) الجديد . وتفيد هذه التقارير بأن السلطات الفرنسية قد لجأت من أجل تنفيذ أغراضها ، إلى تعذيب المعارضين ، وتجويع قرى بأسرها حتى ترغم المواطنين على الإدلاء برأيهم في هذا الإستفتاء .

وصرح السيد (أحمد توفيق المدني) مدير مكتب جبهة التحرير

الوطني في القاهرة ، بأن الشعب الجزائري كله مجمع على رفض الاشتراك في الاستفتاء ، ولذلك يلجأ الفرنسيون إلى عمليات القمع والإرهاب بصورة لم يسبق لها مثيل. فهل يستطيع (ديغول أن يعلن أن الجزائر هي جزء من فرنسا بدليل استفتاء الجزائر؟ . . وقال (الأستاذ المدني) : إن جبهة التحرير الوطني أبلغت الأمم المتحدة ، وكذلك جميع ممثلي الدول في نيويورك بما تقوم به فرنسا من أعمال إرهابية . وأضاف : إن الجبهة لا تعترف بهذا الاستفتاء ، كما ترفض الإعتراف بكل ما يسفر عنه من نتائج ، نظراً لما تتسم به عملية الاقتراع ـ التصويت ـ من تهديد وإرهاب .

وذكر في معرض التعليق على حملة الإرهاب الجديدة ، أنه قد تم بالأمس تنفيذ حكم الإعدام في اثنين من الجزائريين في السجن المدني في مدينة الجزائر ، وهذا أول حكم إعدام ينفذ في الجزائر منذ ثلاثة أشهر ونصف الشهر .

وجاء في نبأ (لوكالة اليونايتد برس) أن الجنرال ديغول رئيس وزراء فرنسا الذي يقوم حالياً بجولة في المناطق الإفريقية التي تستعمرها فرنسا بغية الدعوة للدستور الفرنسي الذي سيجري الاستفتاء عليه في الشهر القادم قد أخفق فيما أراد أن يحققه من وراء هذه الجولة .

وتقول الوكالة : إن (ديغول) الذي يمكن أن يكون قد حقق نصراً سياسياً شخصياً في جولته ، لم ينجح في إقناع زعماء المناطق الإفريقية التي تحكمها فرنسا بالبقاء تحت الحكم الفرنسي ، لأن معظمهم أصر على الإستقلال التام ، ومعنى ذلك أن هؤلاء الزعماء سيطلبون من مؤيديهم أن يصوتوا ضد الدستور الفرنسي الجديد عندما يجري الاستفتاء عليه في الثامن والعشرين من أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٨ .

يظهر ذلك أن قيادة جبهة التحرير الوطني قد ربطت بين تطوير الصراع المسلح ونقل الحرب إلى فرنسا ، بالصراع السياسي مع الحكومة الفرنسية ، وكان من أبرز نتائج هذا التطوير :

١ ـ إحداث انفجار هز مرسيليا التي تقع قريباً من معمل تكرير البترول . وقد ساد الرعب على الأماكن المجاورة لهذا الانفجار ، حيث ارتفعت ألسنة اللهب وسحب الدخان قاتمة في سماء هذه المدينة ، حتى أنها كادت تخنـق أنفاس السكان في منطقة تبعد خمسة أميال عن مركز الإنفجار .

٢ ـ إن فرنسا خسرت نصف مخزونها على الأقل من الوقود الإحتياطي .

٣ ـ إن هذه التظاهرة (السياسية ـ العسكرية) لم تكن إلا البداية لصراع متطور باستمرار ، فقد استمر الصراع في فرنسا ، الأمر الذي أقلق السلطة الفرنسية ، وأحدث شرخاً في الرأي العام الفرنسي . وتجدر الإشارة إلى أن أعمال الفدائيين الجزائريين قد تركزت باستمرار على الموارد الاقتصادية والعسكرية ، وتجنبت بذكاء حاد إلحاق الأذى بالمواطنين الفرنسيين ـ قدر المستطاع ـ ومن ذلك ـ ـ على سبيل المثال ـ ما أعلن فيما بعـد : « من أن رجال الشـرطة الفرنسية قد اعتقلوا خمسة من المغاربة ، وصادروا منهم مدفعاً رشاشاً وسبعة مسدسات وكمية كبيرة من مواد صنع القنابل . وذكرت السلطة الفرنسية بأن المعتقلين قد نجحوا في تدمير محطة للبنزين ومخزناً للذخيرة في مدينة ـ غرونوبل »(*) .

(*) صحيفة (المنار) الدمشقية ـ العدد (١٨٤٠) ص ٣ ـ صباح الاثنين ١٨ رمضان (١٣٧٧ هـ) الموافق ٧ نيسان (ابريل) ١٩٥٨ .

ب ـ قصة المعركة في كتابة الثوار(*) :

مضت أيام ثلاثة ، والسيارات الثلاث التي وضعتها المنظمة السياسية ـ الإدارية لجبهة التحرير الوطني في إقليم (مارسيليا) هذه السيارات الثلاث متوقفة في ساحة(البورصة) . لم أكن قد عاينت هذه السيارات أو رأيتها ، وكنت أشعر بالقلق عندما تنتابني فكرة ألا تكون قوة دفع المحرك الميكانيكية كافية وصلبة ، أو الأخطر من ذلك : ألا يكون المحرك عاملاً وبحالة جيدة . وكنت أتأكد ـ ما بين فترة وأخرى ـ من الرقم الخاص بعمال المناجم الذي بحوزتي ، والمسجل على البطاقة الرمادية ـ الميكانيك ـ للسيارة التي خصصت لي . وعلى كل حال ، فالسيارتان الباقيتان قد غادرتا المرآب . وهذا يعني أن الأخوين اللذين سيستخدمانهما قد انطلاقا لتنفيذ المهام الموكولة إليهما في هذه الليلة . وكانت أوراق السيارة مطابقة تماماً لأوصافها وأرقامها ولم تكن هناك مشكلة أو تعقيد في هذا الأمر .

كانت عقارب ساعتي تشير إلى الثامنة مساء (٢٠) . وامتطيت السيارة ، ووضع مفتاح المحرك في مكانه (التماس) وأقلعت بالسيارة بعد قليل من التردد ، وسرت بها بصورة بطيئة . ولم أكن في حاجة للسير بالسيارة أكثر من مئات الأمتار حتى أتكيف معها وأتعرف عليها ، وعندئذ اندفعت في طريق (ميلبير) وهي مزرعة صغيرة استأجرناها ، لنقيم فيها (مقر قيادة) مؤقت . وكانت هذه المزرعة مريحة ، تصلح في غير هذه الظروف لقضاء الإجازات ، والاستراحة ، والصيد وإطلاق الخيال للأحلام الجميلة . وما هي إلا

(*) المرجع : RÉCITS DE FEU (SNED) S . N . EL MOUDJAHED . ALGER والكاتب هو (محمد حمدي) والبحث تحت عنوان : - 1977 P . P 223 - 232 (موربيان تحترق : ET MOUREPIANE BRÛLA) .

ربع ساعة حتى وصلت مزرعة (ميلبير) حيث شاهدت للوهلة الأولى سيارة سوداء تقف أمام المدخل . فأوقفت السيارة على بعد مسافة كافية ، وإلى جوار الرصيف ، ثم ترجلت منها ، وتوجهت إلى المزرعة سيراً على الأقدام . وقد شاهدت في وسط الظلمة شبح رجل يجلس وراء مقود سيارته ، وتملكني شعور بالخوف ، غير أنني حاولت التظاهر بالهدوء ، فتقدمت مباشرة نحو باب القضبان الحديدي الذي يحرس المدخل ، ودفعته بقوة . وناداني صوت أعرفه وهو يقول لي : « أهذا أنت يا عليوه ؟ » وأطلقت زفرة عميقة بددت فيها ما كنت أشعره من الخوف . ودعوت (عمار) إلى دخول المزرعة . وتبادلنا بعض الكلمات عن حرارة هذا اليوم القائظ من أيام شهر آب ـ أغسطس ـ ونحن نخترق الممر الذي يقودنا إلى الكوخ الصغير (الشاليه) حيث أقامت فيه طوال ثلاثة أيام زمرة الفدائيين التي ستقوم بتنفيذ عملية هذه الليلة .

كان باب المدخل يتصل مباشرة بالغرفة الرئيسية للمبنى . وهنا كان يجتمع سبعة من الفدائيين الشجعان حول (محمد أوزناني) . وغمز لي (عمار) بعينه ففهمت من نظرته كل ما كان يريد قوله بشأن الحالة النفسية والروح المعنوية التي يتمتع بها هؤلاء المتطوعين المفدائيين . وفي الحقيقة ، فإنه ما من أحد تنبه إلى دخولنا الحجرة ، فقد كان انتباه الفدائيين السبعة مشدوداً بكليته لدراسة الأجهزة المتفجرة التي صنعها وأعدها (محمد أوزناني) وذلك من أجل معرفة طريقة التعامل معها ، واستخدامها ، وأسلوب تفجيرها . وأرسلت سعالاً انتزع الفدائيين من استغراقهم ، فأداروا جميعهم برؤوسهم نحوي . وصدمتني نظراتهم الباردة ، وتعبيرات وجوههم الساكنة ، الهادئة . وأمكن لنا أن نستنتج من مواقفهم بأنهم لم ينتهوا بعد من

إعداد المواد المطلوبة لتنفيذ أعمالهم . غير أنه كان يكفي عد الأجهزة الموضوعة في الزاوية والتي انتهى (أوزناني) من تجهيزها لنعرف أنهم كانوا على وشك الانتهاء من عملهم ، وأنهم في سبيلهم لتصنيع القنبلة الأخيرة . وكنت أجد صعوبة في إيجاد أية كلمة مناسبة للبدء بالحديث . فالتزمت بالصمت .

كنت أعيش منذ حين على هاجس الانفجارات وأعمال التدمير التي سنقوم بتنفيذها الآن . ولم تكن أفكاري تفسح المجال للعواطف الإنسانية . وكنت ، وأنا في موقفي هذا أطمئن نفسي بأن الساعة التي تم تحديدها لإعداد العملية وتنفيذها ، ستكون في وقت متأخر جداً ، بحيث لن يكون هناك خطر كبير في تعريض حياة عدد من المخلوقات البشرية للكارثة . وبهذه المناسبة ، **فقد كانت تعليمات قيادة جبهة التحرير الوطني الجزائرية واضحة ودقيقة : اختيار أهداف في فرنسا وتدميرها على أن تكون هذه الأهداف عسكرية أو صناعية بحيث يؤدي تدميرها طبيعياً لإضعاف القدرة القتالية للعدو** . وكان هذا العدو من وجهة نظر قيادة جبهة التحرير الوطني ومن وجهة نظر الشعب الجزائري ممثلاً بهذه الأجهزة الصناعية الضخمة ، والأجهزة العسكرية ، والتي يجب تدميرها لأنها هي التي مكنت الاستعماريين الفرنسيين من إحكام قبضتهم على وطننا الجزائري منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر . أما عمليات التصفيات الجسدية ضد الأشخاص والأفراد فإنها لم تقرر ، ولم تنفذ ، إلا في الحالات التي كان فيها هؤلاء الأفراد يشكلون خطراً حقيقياً على شعبنا الذي كان يخوض صراعه المرير من أجل تحرره الوطني واستقلاله . وكان الأمر يزداد دقة في فرنسا حيث كانت كتلة العمال الفرنسيين تتعاطف تعاطفاً واضحاً مع جبهة التحرير الوطني وأهدافها .

كانت مجموعتنا تشكل فرعاً خاصاً من فروع جبهة التحرير الوطني العاملة في فرنسا .

وكانت هذه الفروع هي (منظمات خاصة) واجبها العمل في فرنسا لتنفيذ كافة الأعمال والواجبات التي يضطلع بتنفيذها (جنود جيش التحرير الوطني الجزائري ومجاهديه) على ثرى الجزائر المجاهدة .وكانت (تنظيمات الوحدات الخاصة) وتكوينها ، تتشابه مع تنظيمات جيش التحرير الوطني تشابهاً كبيراً ، وكانت تحمل أيضاً فصائل مجاهدي جيش التحرير الوطني ، وأبرزها : الانضباط وروح التضحية . **وهكذا كان (التنظيم الخاص) يشكل جيشاً من المتطوعين الفدائيين الذين قبلوا التضحية بحياتهم عن رغبة ثابتة من أجل قضية وطنهم ، والذين أخذوا في العيش بصورة سرية ، وفي عزلة عن بقية فروع (التنظيم الخاص) التابعة لجبهة التحرير الوطني والعاملة في فرنسا** . كان السكون المطبق يخيم على مزرعة (ميليير) في هذا المساء . ولما كان لا بد من الانتظار قليلاً حتى نتسلم المتفجرات ، فقد خرجت إلى فناء المزرعة ، وتبعني (عمار) مباشرة ، وسرنا معاً من غير أن نتبادل الحديث ولو بكلمة واحدة ، وقام بيننا جدار سميك من الصمت . لقد ناقشنا كل متطلبات التحضير والإعداد وطريقة التنفيذ مرات عديدة ، حتى تحقق العملية نجاحها الكامل . غير أنه كانت هناك رغبة تدفعني للتفكير في إعداد التعليمات والتوصيات الأخيرة - وإعادتها - قبل الانطلاق للتنفيذ . وسرت مع (عمار) جنباً إلى جنب ، حتى وصلنا إلى باب القضبان الحديدي الذي يحرس المدخل ، وكان (عمار) يشابك يديه وراء ظهره ، أما أنا فكنت أدس يداي في جيبي البنطال . واستدرنا على أعقابنا في وقت واحد ، وكلانا سابح في صمته وتأملاته .

ثم . . . انطلقنا في وقت واحد ، ونحن نتحدث في موضوع (المناورة التشتيتية) التي يجب أن تضطلع بتنفيذها زمرة الحماية حتى تضمن لنا العمل بحرية تامة ، ومن غير خوف أو قلق . وقال لي (عمار) بأن عقارب الساعة قد أشارت إلى التاسعة مساءً (٢١٠٠) وهذا هو الموعد المحدد لإشعال الحرائق في (غابات ايستريل) . ولم أجبه بأية كلمة ، غير أنني كنت أحاول إقناع نفسي بأن المغاوير ـ الكوماندو ـ هم الآن على وشك البدء بتنفيذ مهمتهم ، وأن النجاح سيكون حليفهم ، لا سيما وأن الحرارة اللاهبة في هذه الأيام القائظة . والجفاف الذي سيطر على (منطقة الميدي) في الفترة الأخيرة سيساعدهم كثيراً في تنفيذ المهمة . وانفرج الباب قليلاً بقدر ما يسمح للفدائي (عبد القادر) بالخروج من الغرفة ، وأعلمنا بأن (أوزناني) قد فرغ للتو من عمله . قال ذلك بلهجة طبيعية تماماً ، واستدار فوراً ، من غير انتظار ، ليلحق بالآخرين .

وانتظرت قليلاً حتى يتخذ (عمار) قراره ، غير أنه لم يفعل شيئاً ، فدعوته عندها للدخول . وقد جرت العادة في مثل هذه الظروف الخطيرة والحرجة ، أن يقول المسؤول بضع كلمات ليذكر المنفذين بهدف هذا الاجتماع ، وأهميته ، ويشجعهم على المضي في تنفيذ مهمتهم المقدسة والخطيرة ، ويضع القطار على الخط الحديدي ـ كما يقولون ـ . وكان الرجال جميعهم على أهبة العمل ، غير أنه ما من حركة صدرت عن أحدهم تنم عن التوتر أو العصبية . كان من طبيعتي الإقلال من الحديث ، إذ كنت ـ كما يقولون ـ رجل عمل . وقد أرغمت على ممارسة دور (الموجه السياسي) فكنت أجد صعوبة كبرى في العثور على تعبيرات تتجاوز كلمات (إفعل هذا) أو (قم بتلك المهمة) ، أو (تعال إلى هنا) ، أو

(إدهب إلى هناك) . وألقى عليَّ (عمار) نظرة متسائلة ـ إستفهامية ـ عما سأقوله أو أفعله . والوقت يمضي سراعاً ، وأنا لم أتمكن بعد من السيطرة على أفكاري ـ ومضت ثوان وذهني خاضع لحالة من الاضطراب والتشتت . وكان لا بد من مجابهة الموقف السلبي ـ الجامد ـ الذي وقفناه جميعاً ، فطلبت إلى (أوزناني) أن يقوم بمراجعة عامة للحركات التي يجب تنفيذها لإكمال سير عمل الأجهزة المتفجرة (آلية التفجير) وذلك عندما سينطلق كل فدائي وحده لتنفيذ مهمته على الهدف المحدد له . وكانت هذه العملية بالنسبة لي (مناورة تأخيرية) تسمح لي بفسحة من الوقت لإعادة تنظيم أفكاري .

نفذ (محمد أوزناني) ما طلبته إليه بسرعة ، وانصرف الفدائيون ـ بصمت كصمت المتعبدين في صلواتهم ـ وهم يتابعون بكل يقظتهم وانتباههم ما كان (أوزناني) يقوله من إيضاحات وتوجيهات وتحذيرات . ولما كان هؤلاء الفدائيون جميعاً ممن نفذوا مهمات مختلفة ، فإنه لم تكن بهم حاجة لمثل هذه البيانات التفصيلية من أجل وضع قنبلة في مكان محدد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد أظهروا اهتماماً كبيراً بما يتم تقديمه لهم من بيانات ، ولعل مرجع ذلك إلى ما عرف عنهم من الانضباط الصارم في تنفيذ كل ما يطلب إليهم تنفيذه ، أو لعله الحافز للتذكير بما هو معروف من معلومات .

دق جرس باب المدخل في هذه اللحظة ، فذهبت بنفسي لفتحه . وعندئذ شاهدت عميلتنا المسؤولة عن تأمين الاتصالات (ناديا) التي وصلت لاهثة ؛ لقد جاءت راكضة من الطريق العام إلى المزرعة ، بعد أن أوصلتها شاحنة عامة (باص) إلى الموقف الكائن على الطريق العام . وأخذت (ناديا) في الحديث بكلمات متقطعة ، فطلبت إليها التزام الصمت حتى تستعيد أنفاسها . ورافقتها إلى

الحجرة حيث طالعتها وجوه لم تكن قد تعرفت عليها من قبل . غير أنها لم تشعر بضيق أو حرج وهي تشهد مناخ القتال الذي كان مخيماً على المزرعة . ثم أخذت في الحديث وهي تقتحم الموضوع مباشرة بشأن (المناورة التشتيتية) . فذكرت بأن الحريق قد أندلع في (غابات ايستريل) من كل جهاتها . وأن عربات إطفاء الحريق قد انطلقت في هذه اللحظة عبر شوارع (مارسيليا) كلها وهي متجهة لإخماد الحريق الهائل .

ظهر لي بأن (أوزناني) قد مضى سريعاً في شرحه وبياناته ، أو لعلي لم أشعر بمضي الوقت إذ فقدت الإحساس بانقضائه . وقد جاءت الأخبار الجيدة التي حملتها معها (ناديا) فاستثارتني ، وأهاجت انفعالاتي ، وبت متفائلاً ، وحاولت نقل هذا الإحساس بالتفاؤ ل إلى إخوتي الفدائيين ، فألقيت بنكتة ساخرة انفجر لها الجميع ضاحكين . واغتنمت هذه اللحظة من المرح لأعلن بلهجة جادة ، صارمة ، بأن عملية (العاصفة) قد أخذت طريقها إلى التنفيذ . وأوضحت أن الاسم الاصطلاحي (لعملية العاصفة) يشمل كل العمليات ألتي سيتم تنفيذها في هذه الليلة ، فوق الأرض الفرنسية ، وفقاً للتعليمات التي أصدرتها القيادة العامة لعمليات جبهة التحرير الوطني . وقلت لهم بأنهم لن يكونوا الوحيدين الذين سينفذون في هذه الساعة الأعمال التدميرية ، بل إن هناك زمراً أخرى من الفدائيين التابعين (للمنظمة الخاصة) ينتشرون في كل أنحاء فرنسا ، وهم يستعدون مثلنا للهجوم على الأهداف المعادية وتدميرها .

وعلى هذا فإن عملياتنا ليست منعزلة بعضها عن بعض . وغداً ! سيستيقظ الشعب الفرنسي ليجد نفسه أنه بات مضطراً للعيش في

مناخ الحرب . غداً ! سيردد الرأي العام العالمي ، ويقول : بأن الشعب الجزائري قد نقل الحرب لى قلب بلاد العدو. غداً ! . .
وخرج (عمار) وتبعته (ناديا) وقلت للفدائي (أوزناني) بأن ينطلق معهما ، وأشرت إليه : «بأن ـ ناديا ـ سترشدك إلى مكان التقائنا في المدينة» . وتملكني مباغتة شعور إنسان متهم يقف أمام قضاته أو حكامه ، أو بالأحرى شعور محكوم أمام جلاديه . غير أنني تمالكت نفسي بسرعة ، وأنا أردد في سري بأنها ليست اللحظة المناسبة الآن ـ للاستسلام لمثل هذا النوع من العواطف. . . فغداً ! ستصدر الجزائر حكمها علينا جميعاً . ولا يهمني أبداً أن أفكر بحقوقي وواجباتي . إن كل ما يهمني هو أن أنفذ واجبي ، وأن أحمل الآخرين على تنفيذه . وسلمت كل واحد من الفدائيين السبعة مبلغاً من المال حتى يتدبر به أمره، ويضمن به الوصول إلى ملجأ أمين يختاره بنفسه، وذلك بعد الانتهاء من تنفيذ عمله . على أن يتم الاجتماع في اليوم التالي عند (كريبي) . ثم وزعت الأسلحة ، وأوصيت الفدائيين بعدم اللجوء إلى استخدامها ، الا في حالة الضرورة القصوى .

وكانت تدابير الأمن والحيطة تفرض علينا إخفاء المتفجرات المصنعة في خزانات الحليب الصغرى (بيدونات) يتسع الواحد منها الى خمسة أو عشرة كيلوغرامات . وأخذ كل واحد من الفدائيين خزاناً ـ بحسب مهمته المكلف بتنفيذها ـ وخرج أفراد زمرة ـ موريبيان ـ المكونة من (مصباح) و (كريبي) و (عبد القادر) قبل سواهم . وبعد خمس دقائق لحق بهم (حنش) و (ملياني) ومعهما حمولتهما من المتفجرات المخصصة للعمل في (آيغلادس) . وغادرت المزرعة في آخر الجميع ومعي (مختار) و (قطوش) . وانفصلت عنهما لدى الوصول إلى باب مدخل المزرعة ، حيث كان

لزاماً عليهما التوجه إلى (كاب ـ بينيد) . ونظرت إليهما وهما يبتعدان وسط الظلمة وأنا أفكر بأنه من المحتمل ألا يكتب لي رؤ يتهما مرة ثانية . وأصابتني رعدة وقشعريرة عندما راودتني هذه الفكرة . واتجهت إلى عربتي ـ سيارتي ـ ووضعت مفتاح التماس ـ كونتاك ـ في موضعه . وانطلقت بالعربة مسافة لا تتجاوز ثلاثمائة متر أو حتى أربعمائة متر ، وهنا وقع عطل مباغت قبل أن أصل إلى الطريق العام . ولم أحاول معرفة سبب العطل أو أجرب إصلاحه . فوضعت العربة إلى جانب الطريق ، وتابعت طريقي سيراً على الأقدام حتى وصلت الطريق العام ـ الرئيسي ـ . وهنا ، وأثناء سيري ، عاودني الشعور بثقل الحرارة الخارجية ، فالمناخ لم يعتدل في الليل عما كان عليه أمر القيظ الشديد في النهار ، بل إن ما حدث هو النقيض تماماً ، فقد شعرت بالحرارة تتزايد وطأة ، وبالمناخ يتزايد ثقلاً ، وكان ذلك أمراً طبيعياً بعد أن أخذ نطاق النيران يحيط بمدينة (مرسيليا) من كل اتجاه .

مضت ربع ساعة وأنا أركض خبباً ، وأشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشرة ليلاً (٢٣٠٠) ولا زالت حافلات النقل العامة (الباصات) التي تصل إلى الضواحي مستمرة في عملها الآن . وجلست على قارعة الطريق وأنا أنتظر وصول الحافلة بصبر نافذ ، مستغرقاً في تفكيري بعملية (موريبيان) . ولا أدري بدقة السبب الذي حملني على الاهتمام بتدمير هذا المستودع الضخم من مستودعات الوقود ، أكثر من كل العمليات الأخرى التي سيتم تنفيذها في هذه الليلة .

لقد استأثر هذا الهدف بأكبر قسط من اهتمامي ، واستحوذ على أكبر قدر من وقتي ، خلال مرحلة التحضير للعملية ، فعملت على

دراسة المنشآت وأجهزتها بصورة تفصيلية ودقيقة . غير أن تفكيري الآن قد امتد إلى أفق العمليات الأخرى في : (بير) و (لافيرا) و (اليس) و(بوردو) و (ليون) و (بيربينيان) و (تولوز) و (كاب - بينيد) و (ليزا يغلادس) . . . وهنا وصلت حافلة نقل (أوتوكار) متوجهة إلى (مارسيليا) . فقفزت من مكاني ، وأشرت إليها ملوحاً بكلتا يدي . فتوقفت ، وتسلقت درجتي الباب ، واشتريت بطاقة الرحلة . وكان هناك أربعة من الركاب قد احتلوا المقاعد الأولى من الحافلة ، فتطلعوا إلي جميعاً بنظرات فضولية غريبة ، فتعمدت أن أتجاهل نظراتهم . وتوجهت للجلوس على مقعد بعيد الى الخلف منهم ، بحيث أضعهم باستمرار تحت مراقبتي . ولقد تمكنت حتى الآن من الاضطلاع بدوري بجدية تامة ، مما عزز قناعتي وثقتي بكل ما قمت بتنفيذه .

ولكن ها أنا وقد أخذت أشك بكل من حولي ، فأقف موقف الحذر من ركاب الحافلة ، وأراقب كل حركة من حركاتهم . إنني أشعر بالقلق ، بل إن هذا القلق قد وصل إلى حد الخوف ، ووصل بي الأمر في لحظة من اللحظات إلى حد بروز رغبة للتقدم من سائق الحافلة والطلب إليه برجاء أن يتوقف حتى أغادر المركبة . غير أنني سرعان ما استعدت في ذهني ذكريات المخاطر التي سبق لي أن تعرضت لها ، والمجازفات التي اقتحمتها ، والعقبات التي أمكن لي التغلب عليها وتجاوزها . . .

دخلنا المدينة، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولم أكن أفكر بأنني سأجد الشوارع مكتظة بحشود الناس في مثل هذا الوقت . ويظهر أن معظم هؤلاء قد فروا من مساكنهم الخانقة . بحثاً عن نسمات من الهواء العليل المنعش . وكانت المقاهي عند الميناء

القديم حافلة بروادها . وهنا اخترت النزول من الحافلة . كان هواء الريف قد اعتصرني ، فشعرت بالجوع ، وأخذت في البحث على مكان لي في المقهى . لقد كان اقتحام هذا المكان مغامرة حقيقية ، فالناس يتدافعون في هذه المقاهي والمطاعم التي تنتشر على امتداد جبهة البحر . ثم ما حاجتي لاقتحام هذا المكان وكل ما أحتاجه هو قطعة من الجبن وقطعتان أو ثلاث قطع من (البسكويت) وقدح من الحليب البارد ، وهذا متوافر في منزلي الذي لم يعد بعيداً ؟ . . .

كانت (ناديا) تنتظرني أمام المبنى ، وكانت مباغتة لي أن أجدها واقفة في انتظاري ، وقالت لي بأن عربتهم ـ مركبتهم ـ قد توقفت بسبب نفاد الوقود . وأن (عماراً) قد أرسلها لتصل بسرعة وتعلمني بجلية الأمر . وضحكت ، فذهلت (ناديا) لهذا الضحك ـ في وقت غير مناسب ـ وإذ ذاك أعلمتها بأن عربتي قد توقفت بدورها ، وأنني اضطررت إلى تركها على قارعة الطريق ، عند نقطة لا تبعد كثيراً عن المزرعة ، وصعدنا إلى شقتي ، وعقارب الساعة لم تصل بعد إلى منتصف الليل .

أعددت لنفسي بعض الشرائح (ساندويتشات) وقدحاً من الحليب ، وكذلك فعلت (ناديا) . وفتحت باب الشرفة ، وخرجت إليها . وكان القمر قد ارتفع عالياً في قبة السماء . وأرسل أشعته لترسم لوحات رائعة الجمال فوق سطح البحر الذي يمتد منبسطاً أمامي حتى الأفق . وفي هذه اللحظة ، قرع جرس الباب . وفتحت (ناديا) الباب ، فدخلت عميلتنا الثانية المسؤولة بدورها عن الاتصالات (واسمها حليمة) . وكان وجهها يضج بابتسامة عريضة ، تفضح ما كان يعتمل في نفسها من سعادة غامرة . وكانت ملامح وجهها ، ومزاجها المرح يعبران أصدق تعبير عما تشعره من الرضى

عن الذات . وكان ذلك يعني أن الأمور تسير - في الجهة الأخرى - على خير ما يرام . وانطلقت (حلَيمة) لتعلمنا بأن جميع الفدائيين قد غادروا مراكزهم ، واتجهوا لتنفيذ واجباتهم المحددة لهم . وتابعت حديثها في ذكر تفاصيل لم تكن تهمني ، إذ لم تكن بي رغبة لا للحديث ولا للاصغاء . فابتلعت ما تبقى من الحليب في الكوب ، وخرجت من المنزل متعجلاً ، تاركاً فيه الحرية للفتاتين حتى تتبادلا الحديث كما تشاءان .

مضيت متسكعاً في الأزقة والطرقات ، مستسلماً إلى حيث تقودني قدماي . كانت (مرسيليا) تذكرني في بعض أماكنها ببلدتي (عنابة) .وفكرت بأمر هذه المدينة التي يجب لها أن تنام نوماً قلقاً ، مضطرباً . فهناك تبدأ الليالي مبكرة ، وتنتهي متأخرة . ثم إن الليالي وفترات النهار تتعاقب هناك مختلطة بعضها ببعض بسبب ما يعانيه أهل المدينة (عنابة) من الضغوط والإرهاب والظلم . هناك يوجد أناس أيضاً ، ولكن لا توجد حياة .

* * *

الناس هنا ، من حولي ، يعيشون في يسر ، من غير قلق ولا هموم أو مخاوف . وشعرت بالغيرة وأحاسيس العنف تجتاحني : فلتحترق (موربيان ، وبير ، وبوردو ، وليون ، وبيربينيان ، وتولوز) إنها ليست أفضل أبداً من عشرات القرى التي أحرقتها قنابل النابالم وأزالتها من عالم الوجود . ولتدمر (مرسيليا) ! إنها لا تساوي أبداً حياة مئات الآلاف من ضحايا الاستعمار الفرنسي . وهذه الحرية التي تزيل كل الهموم والمخاوف ، هذه الحرية التي تغلف حياة الآخرين وتحيط بها ، هي الحرية التي حرم منها الشعب

الجزائري منذ أكثر من قرن . ومن هنا ، فإنه يجب على الشعب الفرنسي ، سواء شاء أو أبى ، أن يدرك ذلك ، وسيدركه غداً عندما تعلن له صحافته ، وبالعناوين العريضة ، توسع أعمال الإرهاب وانتقالها إلى فرنسا . وعندئذ سيعيش كل فرنسي على هاجس احتمال وقوعه ضحية الصراع التحرري الذي يخوضه شعب الجزائر . وعندئذ أيضاً سيضطرب مناخ الحرية الذي يعيشه كل فرنسي . وسيشعر كل فرنسي بالمعاناة التي يعيشها أقرانه في الجزائر .

لقد مضت بي هذه الأفكار والتأملات إلى اتجاه لا أريده ولا أرغب في السير إليه ، إنني أحب منطقة (الميناء القديم) وكنت أريد التوجه إليها ، غير أنني وصلت إلى الاتجاه المعاكس تماماً من المدينة ، وهو المكان المقابل للبحر والبعيد عنه . واستدرت على عقبي ، وعدت من حيث أتيت . لقد كانت الحرارة اللاهبة تخنق الأنفاس . وانتابتني رغبة في خلع حذائي والسير وأنا عاري القدمين . وأخيراً ، قررت التوقف عن التسكع وقد وصلت في سيري إلى أمام المبنى الذي أسكن فيه . فلماذا لا أدخل إلى المنزل وأنام على سريري ؟ ولكن هل سأتمكن من النوم ؟ إن هناك شيئاً في داخلي أكثر قوة مما أصابني من التعب هو الذي يدفعني إلى البقاء خارج المنزل . ودقت ساعة محطة القطار معلنة الثانية صباحاً . ولما لم يبق إلا ساعة من الزمن حتى يبرز الحدث العظيم ، فقد شجعني ذلك على الانتظار ، والمضي في التسكع .

بدأت منطقة (الميناء القديم) في الإقفار من روادها . وأخذت المقاهي في إسدال ستائرها وإقفال أبوابها تباعاً . وكان هناك زوجان يجلسان على الأرض ، يستمعان إلى المذياع الصغير ـ الترانزيستور ـ ويتناقشان بحدة في موضوع الحرائق التي اندلعت في المساء . ويظهر

أن كل وحدات المطافىء في الأقلِيم قد تحركت للصراع ضد النيران المندلعة في الغابات . ومضيت في تسكعي جيئة وذهاباً ، وكنت أبطىء الخطى عندما أصل إلى جوار أحد التجمعات حتى أسترق السمع إلى ما يدور بين أفرادها من أحاديث وتعليقات على ما كان يذيعه المذياع المحلي (محطة البث الداخلية) . وكنت أشعر بالبهجة والسعادة وأنا أتابع انفعالاتهم وهياجهم لما حدث ، وتصورت ما سيدور في رؤوسهم بعد هنيهة عندما . . ووصلت حتى نهاية الشارع وأنا أسحب قدماي سحباً ، ثم رجعت على وقع الخطى ذاتها . وهنا رأيت الزوجين اللذين كانا جالسين أرضاً وهما يقفان ويستعدان للمضي نحو منزلهما . وهنا دوى انفجار مرعب بلغت قوته حداً أشعرنا أنه وقع إلى جوارنا تماماً . وشعرت بأنفاسي وقد توقفت ، ورفعت رأسي فشاهدت على البعد وهجاً متصاعداً كأنه البركان . لقد ارتفعت ألسنة اللهيب عالياً ، لقد مرت (موريبيان) . وكانت عقارب ساعتي تشير إلى الثالثة وعشر دقائق صباحاً (٣١٠) لقد حانت ساعة النوم ، لا سيما وقد أصبحت في حاجة ملحة للاستراحة والنوم .

* * *

دخلت شقتي محاولاً قدر استطاعتي ألا أثير شيئاً من الضجيج . كانت (حليمة) و(ناديا) تنامان في غرفة النوم ذات الباب الموصد ، فتمددت على أريكة (ديوان) في الردهة وأنا أرتدي كامل ثيابي ، ورحت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا بعد ساعات ، حيث أيقظني (عمار) من سبات خيل إلي أنه استمر عدة ليال متتالية . وكانت نظرات (عمار) الباردة لا تشير إلى أي شيء . واستدعيت (ناديا) حتى أكلفها الذهاب وشراء بعض الصحف الصباحية . غير أن (عمار)

سرعان ما أعلمني بأن صحافة الصباح لم تحمل على صفحاتها أي نبأ هام يتعلق بالعملية . واكتفيت بهذا الوجيز من الأخبار ، وأرسلت (ناديا) لإعداد شيء من الطعام . وبعد الإفطار ، تعجلت بمغادرة الشقة حتى أرى على الطبيعة نتائج العملية التي نفذت في الليل .

كان الشارع يضيق بسابلته وعابريه ، خلافاً لما هو معهود ، حيث كان المارة يتحلقون ، وأجهزة الالتقاط الإذاعية ـ الترانزيستور ـ تتأرجح على سواعدهم . لم يكن سلوك الناس عادياً هذا اليوم أو طبيعياً : فالضيق والقلق يرتسم على تصرفاتهم وتعابيرهم ، بعضهم حزين ، وبعضهم متصلب مشدود الأعصاب بقسوة ، وجميعهم في هياج . اشتريت صحيفة على كل حال ، ونبأ صغير يبرز على الصفحة الأولى يصور ما حدث عند آخر دقيقة قبل صدور الصحيفة . وإلى جواره صور العارضات الجميلات لأزياء فصل الشتاء سنة (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) . وهي تمثل آخر صرعات الثياب (الموضة) . ولم يكن في الصحيفة ما يجيب بصورة كافية على التساؤلات التي كان يتناقلها أهل مرسيليا) في موضوع الحرائق والانفجارات التي هزت المدينة . ولهذا لم يكن هناك من يعرف ما حدث بدقة ، فتوجه اهتمام الناس إلى أجهزة الالتقاط الصغيرة (الترانزيستور) . غير أن محطات البث ـ الإذاعة ـ لم تكن تذيع غير النداءات التي كانت تطلب إلى السكان الالتزام (بالهدوء) ما بين فترة وأخرى، مع التزام الصمت التام تجاه ما حدث ، ولم يكن ذلك كافياً لإرواء تعطش الأهلين لمعرفة الحقيقة . بل إن الأمر على النقيض من ذلك ، فقد واجه رجل الشارع ما هو أسوأ ، إذ باتت رياح الرعب هي المهيمنة على المدينة وسكانها . كانت ملامح وجهي وتكويني تتشابه مع الأوروبيين ، وكانت أوراق

إثبات شخصيتي المزورة (الهوية) تحمل اسم (ديدييه ـ جان ـ لويس) وكان ذلك يسهل مروري من نقاط المراقبة التي أقامها رجال الشرطة . ولم أكن أشعر بالخوف أو القلق من الاشتراك مع الجمهور في مناقشة رجال الشرطة بشأن ما حدث . وكان هؤلاء يعترضون كل شخص أسمر اللون تحمل ملامحه طابع الانسان العربي في الشمال الافريقي ، ويطلبون أوراق إثبات الشخصية لاعتقال كل (مسلم فرنسي ؟) . وقد رأيتهم بعيني وهم يعتقلون إخواني الجزائريين ، ويعاملونهم بقسوة وهم يدفعونهم لركوب الشاحنات الكبيرة (سيارات النقل العسكرية) . وقلت في نفسي : لا بأس ، فكلما زاد الضغط والظلم ، كلما زادت جبهة التحرير الوطني قوة ، وتعاظمت قدرة وعدداً .

كان هناك حشد كبير من الناس الذين تجمعوا عند موقف حافلات النقل في (كانوبيير) . وصعدت أول حافلة (باص) تتجه نحو الغرب . وكان الطريق إلى الميناء مغلقاً بنطاق من رجال الشرطة ، الذين حولوا خط سير الحافلات نحو الشمال ـ الغربي . ونزلت عند أول موقف . وتوغلت في الشارع الذي ينتهي بساحة تطل على الميناء . واختلطت بالجموع التي كانت تتدافع بالمناكب لرؤ ية ما كان يحدث في الجهة المقابلة . وعلمت أنه حدثت انفجارات جديدة في هذا الصباح . وعلى كل حال ، فقد كانت ألسنة اللهيب تتصاعد عالياً لأكثر من مائتي متر أو حتى ثلاثمائة متر ، حتى أنها كانت تظهر واضحة من على بعد كيلومترات عديدة . وقد تم إخلاء المساكن المحيطة بالمنطقة كلها ، وأرغم عشرات الآلاف من سكان مرسيليا على الجلاء عن المنطقة المعرضة لخطر الانفجارات . وأوقفت كافة المعامل القريبة من المنطقة إنتاجها ، وصرفت عمالها .

وحظر المرور من شوارع الساحل ضمن دائرة تزيد على أربعمائة متر .

استمرت الحرائق في (موريبيان) طوال عشرة أيام ، وذلك على الرغم من كل الوسائط الضخمة التي تم حشدها للحد من الخسائر ، والسيطرة على الحريق .

صدرت صحف المساء وهي تحمل على صفحاتها الأولى ، وبالعناوين البارزة ، أنباء الهجوم الذي شنته جبهة التحرير الوطني الجزائري في فرنسا . وتحت هذه العناوين كانت تندرج التعليقات اللاذعة التي تختلف في شدتها وقسوتها تبعاً لما تمثله تلك الصحافة من اتجاهات . فكان في جملة العناوين المثيرة ـ على سبيل المثال (الليلة الحمراء) أو (الكارثة الوطنية) . ومضت التعليقات وهي تعالج (الحدث) وفقاً لمنطلقاتها (الايديولوجية) أو وجهات نظرها السياسية . وحتى الصحافة اليسارية ـ الشيوعية ـ لم تحاول المحافظة على الحد الأدنى من التعاطف مع (الحركة الوطنية الجزائرية) ، فوصفت أحداث يوم ٢٥ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٨ بأنها (ضرب من اليأس) .

أصدرت جبهة التحرير الوطني الجزائري في مساء ذلك اليوم بياناً ، أوردت فيه الأهداف التي يخوض من أجلها الشعب الجزائري صراعه ، منذ أربعة أعوام .

٦ ـ مع المجاهدين في معاقلهم(*)

مضت سنوات الخوف على الثورة ، وأصبحت القواعد المحررة حصوناً منيعة للثوار ، تجتذب إليها الباحثين ورجال الصحافة والأحرار من كل العالم . لقد أذهلت (فصائل الثوار الجزائريين) كل المفكرين والأحرار ـ لا سيما في العالم العربي ـ الاسلامي ، وكانت بطولات ثوار الأوراس والقبائل مصدراً لإطلاق كل الخيالات الفروسية التي اندثرت منذ القرون الوسطى ، أي منذ تراجع نفوذ المسلمين وتغلبت عليه (الحضارة الغربية) ثم جاءت الثورة العملاقة لتبعث فضائل الفروسية من مرقدها . وأقبلت وفود الباحثين والفضوليين وهي تحاول استطلاع أبعاد هذه الظاهرة المثيرة . وقد يكون من الصعب حصر كافة التحقيقات والأبحاث التي تعرضت لمختلف الجوانب التي حفلت بها حياة الثورة . وقد يكون من المناسب هنا التعرض لواحد منها ، وفقاً لما أورده مراسل عسكري عربي :

(*) المرجع : صحيفة (المنار) الدمشقية . العدد (١٨٣٩) ص ٨ ـ صباح السبت ١٦ رمضان ـ ١٣٧٧ هـ المصادف ٥ نيسان (ابريل) ١٩٥٨ وكذلك العدد (١٨٤٠) ص ٤ ـ صباح الاثنين ١٨ رمضان ١٣٧٧ هـ المصادف ٧ نيسان (ابريل) ١٩٥٨ .

لقد شهدت محاكمة الأسرى الفرنسيين الأربعة ، وحصلت على خطابات بخط يدهم . رأيت المعاملة الكريمة التي عاملهم بها جيش التحرير في الوقت الذي تعذب فيه فرنسا المجاهدين الجزائريين وتشردهم . إنه درس في الإنسانية من أبطال جيش التحرير ، درس في الأخلاق والشرف لفرنسا وللعالم الغربي الاستعماري ، في الوقت الذي كان فيه زبانية فرنسا يحطمون أضلاع المجاهدة (جميلة) وأخواتها ، وفي هذا الوقت ، حيث يتساقط عدد من جنود فرنسا بين يدي الأبطال الجزائريين . فما الذي حدث للأسرى الفرنسيين في أيدي جيش التحرير ؟ والذين اعتبرناهم أسرى مع أنهم قتلة في مذبحة ، وسفاحون بلا شرف ؟ أبدلوا ثيابهم الممزقة بثياب جديدة ، وكانوا يرتجفون ـ كالفئران المذعورة ، لشعورهم بأشباح ضحاياهم الجزائريين تحيط بهم . لم يصدق الأسرى الفرنسيون ما تراه عيونهم ، وهم يجدون مقاعد لجلوسهم في مكان ما من الجزائر . لم يحطم أحد ضلوعهم ، ولم يبصق أحد في وجوههم ، ولم يفقأ أحد عيونهم ، ولم يكوهم أحد بالنار ، ولم يقتلع أحد أظافرهم . كل الذي حدث هو أنهم قوبلوا بإنسانية . وقدم لهم الطعام والكساء ، وحوكموا في محكمة عسكرية جزائرية منظمة . وأكثر من هذا : إن ضابطاً جزائرياً من أعضاء المحكمة شاهد أحد الأسرى أمامه وهو يرتجف من البرد ، فنهض من مكانه ، وخلع معطفه ، وذهب بنفسه إلى الأسير الفرنسي وألبسه إياه . هل شهد أحد مثل هذه الإنسانية ؟ ومع من ؟ مع الفرنسيين الذين ينتهكون كل المحرمات ، ولا يتورعون عن تعذيب النساء والشيوخ والأطفال .

واستمرت المحاكمة .

القضاة من ضباط جيش التحرير الوطني الجزائري ، وأمامهم

جلس أربعة من الأسرى الفرنسيين ، والتهمة الموجهة إليهم هي قتل الأبرياء من أهل الجزائر ، واستخدام أساليب وحشية في تعذيب المواطنين الجزائريين ، وتدمير البيوت وسفك الدماء بلا سبب ولا دافع إلا التنكيل والارهاب . وقبل أن تبدأ المحاكمة ، سأل الضابط الجزائري الذي يرأس المحكمة ، الأسرى عن طلباتهم ، فطلب بعضهم قهوة ، وبعضهم لفافات تبغ (سكائر) . فأجيبت طلباتهم فوراً . وأمر الضابط الجزائري بتغيير ثيابهم الممزقة بثياب جديدة من ملابس جيش التحرير الوطني ، وكان حذاء أحد الأسرى الفرنسيين بالياً بشكل واضح ، فأعطوه بدلاً منه حذاء جديداً . وأكثر من هذا ، ففي أثناء الطريق ، لم يقو (جاكوب) وهو أحد الأسرى الأربعة على السير في الطريق الصاعد إلى واحد من الجبال المرتفعة ، فساعده جنديان من جيش التحرير حتى كادا أن يحملاه حملاً لمعاونته .

أقبل الرائد ـ الكومندان ـ (سي موسى) على الأسرى الأربعة يسألهم عن نوع الطعام الذي يفضلونه ، فردوا عليه في صوت واحد ، وهم لا يصدقون أنفسهم : « أي شيء تسمحون به ! » . وعاد بعض المجاهدين من جيش التحرير وهم يحملون معهم (خبز ـ عيش ـ فينو ، ولحم مقلي ، وجبنة نستله ، وبرتقال) فاختطفها الأسرى ، وجلسوا يأكلون بشراهة ، وينظر بعضهم إلى بعض ، وإلى الطعام ، وإلى المجاهدين المحيطين بهم ، وهم لا يصدقون أنهم أحياء ، وأن هذه المعاملة قد صدرت عن الجزائريين الذين تسومهم فرنسا سوء العذاب . وبعد أن انتهى الأسرى من طعامهم ، ودخنوا لفافات التبغ (السكائر) التي قدمت لهم ، دعوا إلى فناء واسع ، وضعت في وسطه طاولة ، وحولها كراسي لأعضاء المحكمة العسكرية ولهم . وبوغت الأسرى الفرنسيون بدعوة قائد المعسكر

لهم بالجلوس . وكانت مباغتتهم أكبر ، عندما أخذ رئيس المحكمة يوجه إليهم الأسئلة بطريقة مؤدبة ، وبكلمات مهذبة غير نابية ، وكانت إجاباتهم تسجل كما هي ـ بدقة وأمانة وأمام عيونهم .

كان الأسرى طوال الوقت يتبادلون النظرات المتسائلة عن هذه المعاملة الانسانية ، حتى أن **واحداً منهم سأل رئيس المحكمة : هل ستتركونا أحياء ولن تقتلونا ؟ فرد الضابط الجزائري** : « **إن ذبح الأسرى وتعذيبهم وتشويه أجسادهم مهمة نتنازل عنها لجيش فرنسا !** » فرد عليه أحد الأسرى : « لقد أفهمونا في الجيش الفرنسي أن أي أسير يقع في أيدي الجزائريين سيذبح فوراً » .

وبعد انتهاء التحقيق تحدث الأسرى :

* ـ قال الأسير (فيالاروف ـ جان) في ألم والدموع تملأ عينيه : « أتمنى أن تنتهي الحرب في أقرب فرصة . فأنا متزوج ولي طفل صغير وأم عجوز . وقد مضت ثلاث سنوات لم أرهم خلالها إلا مرة واحدة » .

* ـ واعترف الأسير (مورالي فالو) بأنه لم يصدق أنه سيعيش ، لأن الحصار كان من كل جانب ، وكان الهجوم عنيفاً ، والنيران مركزة ودقيقة التصويب . ورأى قائده وزملاءه وهم يتساقطون من حوله ، والنار تحيط به من كل جانب ، فلم يشعر إلا ويداه مرفوعتان في الهواء ـ إشارة التسليم ـ وكان مما قاله : « عندما أسرت ، كان طيف خطيبتي التي عاهدتها على الزواج منذ عامين ، يلوح أمامي ، لقد اتفقنا على إتمام الزواج في أول إجازة أعود فيها إلى بلادي . . » .

* ـ أما الأسير (ريليا ـ هني) فقال : « أنا لم أسمع إلا صوت ضابط جزائري ، وهو يأمرنا بالاستسلام ، وشعرت بأنني لا أقوى

على مقاومة اللهجة الحازمة لهذا الصوت فألقيت سلاحي ، واستسلمت » .

* ـ وأبدى الأسير (جاكوب ـ جان) دهشته الشديدة من حسن المعاملة التي لقوها من مجاهدي جيش التحرير . وقال : لقد خجلنا من أنفسنا ونحن الذين نسمي أنفسنا جيشاً نظامياً ، ومع هذا فلا نتورع عن تعذيب الأهالي ، والتنكيل بهم . لقد علمنا الجزائريون بطريقة معاملتهم هذه ، درساً كبيراً في الأخلاق .

* * *

ويرافق (المراسل العسكري العربي) وحدات جيش التحرير الوطني ، فيقول :

شهدت بيوت الجزائريين وهي تنسف نسفاً بالقنابل الفرنسية ، وشهدت أرتال اللاجئين الجزائريين الذين طردوا من دورهم وأرضهم . شهدت الزوجة العجوز وطفلتها جالستين تبكيان في حزن وصمت إلى جوار جثة الزوج الذي قتله الفرنسيون أمامهما وتحت بصرهما . شهدت الأسرى الفرنسيين يقعون مذعورين في قبضة مجاهدي جيش التحرير . شهدت الشعب يخوض معركة التحرير . ورأيت قوات العدوان وهي تندحر في حالة من الرعب ، رغم ما يتوافر لها من دعم الدبابات والطائرات والقوات الضخمة . . . إنك إذا دخلت الجزائر مع قوات جيش التحرير ، فلن تستخدم في تحركاتك إلا قدميك مهما كانت المسافة بعيدة ، وستصعد عشرات الجبال وتهبط منها ، وكل هذا طوال الليل حتى لا يكشف العدو مكان وجودك . ولن تستطيع أن تشعل لفافة تبغ واحدة (سيكارة) وإلا دفعت حياتك ثمناً لها . إن أعصاب الفرنسيين متوترة باستمرار ، وهم يطلقون النار على أي مصدر للصوت أو الضوء ينم عن وجود حركة ما . . .

بدأنا الرحلة من على الحدود ، وانضممت إلى إحدى كتائب جيش التحرير ، وارتديت ثيابهم العسكرية . ولم يمر الأمر بسهولة ، ذلك أن ثلاثة من قادة كتائب جيش التحرير ، رفضوا أن يسمحوا لأحد بالدخول معهم إلى قلب الجزائر ، حرصاً منهم على حياته . وتدخل القائد (سي عماره) ، وأخيراً ! وافق قائد إحدى الكتائب أن يصحبني معه ، غير أنه حذرني بقوله : إن طريقنا خطر جداً ، وسنمر بأخطر منطقة في الجزائر كلها . إنها قد تكلفك حياتك . وأجبته : « حياتي ليست أفضل من حياتك ! » .

بدأنا سيرنا في الساعة الخامسة مساء ، حيث بدأت ظلمة الليل ، وصعدنا جبالاً ، وهبطنا أودية ، لم يحاول أحد خلال ذلك كله أن ينطق ولو بكلمة واحدة ، أو يحدث صوتاً ، حتى انقضى معظم الليل ، ونال منا التعب مبلغاً لا يوصف حتى شعرنا بأننا فقدنا أقدامنا ، وأن عظامنا تكاد تخرج عن مواضعها . وهنا صدر الأمر إلينا بالتوقف في غابة كثيفة ، تأتي بعدها منطقة مكشوفة يتطلب السير فيها وقتاً طويلاً ولذا كان لا بد من إرجاء السير حتى أول الليلة التالية . كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً . وانتشر المجاهدون يفترشون الثرى ويلتحفون السماء ، بالرغم من قسوة البرد وشدته . ولما كنا قد خضنا خلال مسيرنا عشرات السواقي والقنوات ، وابتلت ثيابنا حتى نصف أجسامنا ، فقد أخذت هذه الثياب في التجلد . وبدأت أرتجف من البرد ، وخلعت حذائي لأفرغ ما به من الماء وأجففه ، وباغتني أحد المجاهدين بقوله : « ماذا تصنع يا سيد ؟ هل سيكون لديك متسع من الوقت للبس حذائك إذا فاجأنا العدو بالهجوم ؟ لا تخلعه مهما كانت الأسباب ! » وحذرني من القيام بأية حركة لأن معسكرات الافرنسيين

تحيط بنا . قال هذا ، وأسند ظهره إلى جذع شجرة ، واحتضن بندقيته ، وراح في إغفاءة عميقة . أما أنا ، فقد جفاني النوم من شدة التوتر والبرد . وكان حولي مجاهدو جيش التحرير ، وقد نام معظمهم ، وحولهم الحراسة متنبهة يقظة . وعندما طلع الصباح ، أخذ المجاهدون يستيقظون تباعاً . وكان أول ما يفعله كل واحد منهم ، هو أن يتفقد سلاحه ، وينظفه ، ثم يخفيه بين الأشجار . وتلفت حولي ، فلم أجد إلا غابة كثيفة ، وقد انتشر فيها مجاهدو جيش التحرير . ومضى وقت طويل ، حضر بعده عدد من الجزائريين المقيمين في القرية القريبة منا ، وهم يحملون (الكسرة) واللحوم والشاي الساخن .

كيف عرفوا بوجودنا ؟ وكيف أمكن لهم التسلل إلى مركزنا وهم يحملون الطعام لإخوانهم المجاهدين ؟ إن هذا يحدث في كل مكان من أرض الجزائر . أبطال جيش التحرير يجاهدون ، والشعب الأعزل يضطلع بأعباء تأمين الإمداد والتموين ، وإعداد المسكن والعلاج ، وتحذير المجاهدين وإنذارهم من كل خطر يتهددهم ، وتقديم المعلومات لهم عن قوات العدو ، وعن الوحدات الصديقة إن وجدت .

قضينا النهار كله في الغابة ، وقد تخللته فترات من التوجيه والتدريب وإعطاء بعض المعلومات ، ونام البعض استعداداً لاستئناف الرحلة الشاقة في الليل . وقبل الغروب بقليل ، حضرت بعض نساء القرية تتقدمهن سيدة عجوز قتل ابنها منذ سنتين في إحدى معارك جيش التحرير ، وهن يحملن الطعام (من اللحم) وقبل أن يفرغ المجاهدون من طعامهم ، تردد صوت الضابط المسؤول عن المجموعة ، وهو يقول :

« أتقعد ؟ أتقعد ؟ » وفي ثانية واحدة ، انتظم المجاهدون صفاً واحداً . وقال لهم الضابط :

« **سنهاجم الليلة معسكر الهميس ، وسندقه بالهاونات والمدافع الرشاشة** » .

كنت أعتقد أن هذا المعسكر قريب منا ، ولكننا سرنا وسط الجبال أكثر من ساعتين . وتوقفنا عندما تقدم منا أحد جنود الاستطلاع ـ الكشافين ـ ليعلمنا بأنه لم يبق بيننا وبين المعسكر أكثر من مائتي متر . وصعدنا فوق ربوة مرتفعة ، ونظر القائد (سي بن علالة) إلى الأفق ، وأشار بيده إلى حيث ينبعث نور ضعيف ، وقال : « هذا هو معسكر الهميس ، إن أبطال جيش التحرير يعرفون كل شبر من أرض بلادهم ، ويميزونه سواء بالليل أو النهار » . واقتربنا بحذر من كل ناحية . وتمركزت مدافع الهاون في مرابض تم انتقاؤها بعناية ومهارة . ونصب المجاهدون مدافعهم الرشاشة ، وانتشر الباقون خلف الصخور والأشجار . وران صمت رهيب .

لقد أحاط المجاهدون بالمعسكر الفرنسي إحاطة محكمة . وفجأة ، أضاءت السماء بطلقة إشارة حمراء اللون . وأعقبتها مباشرة انفجارات قنابل مدافع الهاون وأزيز آلاف الطلقات ، وغمرت النيران معسكر الأعداء . ويظهر أن المباغتة كانت كاملة ، فلم يصدر عن العدو أي رد فعل منظم ، ولم يرتفع في المعسكر إلا صوت العويل والصراخ والصخب ـ واشتعلت النار في أركان المعسكر ، ومضت فترة سبع دقائق ، ولم يرد الفرنسيون بشيء ، كما هي عادتهم التي بات يعرفها المجاهدون جيداً . كما باتوا يعرفون أن الفرنسيين المذعورين في الليل ، ينتقمون لرعبهم وفزعهم من المدنيين العزل في النهار .

أمر القائد بعودة المهاجمين بسرعة ، وحرك الجنود مدافعهم وصناديق ذخيرتهم الفارغة ، وانسحبوا سالمين ، لم يصب أحد منهم بأذى . لأن من عادة الفرنسيين ألا يحاربوا إلا في وضح النهار ، وتحت حماية طائراتهم ودباباتهم .

تجمع المجاهدون ، وأخذوا في اقتحام الغابة القريبة ، ومضى ربع ساعة عندما أخذت المدفعية الفرنسية في ممارسة دورها ، حيث أخذت في إطلاق قذائفها أكثر من نصف ساعة ، على غير هدى ، وفي كل اتجاه .

أقبل المراقبون في صباح اليوم التالي وهم يحملون للمجاهدين نتائج إغارتهم : تدمير مهجع نوم الجنود تدميراً كاملاً . وتدمير جزء من مخزن التموين ، وقتل (١٣) جندياً ، وإصابة (١٨) جندياً آخرين بجراح مختلفة ، نقلوا على أثرها إلى المستشفى المركزي .



لم يعد الارهاب يرعب الجزائريين الأحرار

٧ ـ مع قائد من المجاهدين

وفي معاقل الثوار ، تم لقاء بين الصحفي المصري ـ إلهامي حسين ـ والقائد (عمران) في أواخر سنة (١٩٥٦) حيث قام (إلهامي حسين) بتحقيق داخل خطوط النار في الجزائر ، وتعرض خلال الاثني عشر يوماً التي أمضاها هناك لأخطار كادت تؤدي بحياته . وفي تلك الفترة ، كان (القائد عمران) قد حل محل (بن بللا) الذي اختطفته فرنسا مع أربعة من رفاقه المجاهدين . وطرح (إلهامي حسين) على القائد مجموعة من الأسئلة ، كانت إجاباتها صادقة وواضحة وصريحة ، وهي تمثل الموقف العسكري خلال تلك الفترة التاريخية :

*** ـ ما هي حقيقة الموقف الآن في الجزائر ؟**

ـ تتعاظم قوة جيش التحرير الجزائري يوماً بعد يوم ، وإن تنظيمنا وجهادنا يحققان الانتصار العسكري على العدو . وقد أصبح الشعب الجزائري اليوم كله مجنداً للقيام بواجبه العسكري . وفي الوقت نفسه ، يتأكد جند الاستعمار الفرنسي من عدم جدوى تلك الحرب التي يشنونها علينا بدون وجه حق . ويتأكد المسؤولون الفرنسيون أيضاً من فداحة الخسائر المالية والمادية التي يبذلونها من غير أمل بتحقيق نصر حاسم على الثورة .

*** ـ باعتبارك مسؤولاً عسكرياً ، ما هي المناطق التي يسيطر عليها جيش التحرير الوطني الجزائري ؟**

ـ للإجابة على هذا السؤال أعطيك مثلاً قدمه الفرنسيون أنفسهم ، لقد استطاعت المخابرات الجزائرية أن تحصل على خريطة وزعتها القيادة الفرنسية على ضباطها ، وفيها توضح مناطق الجزائر وتقسمها بحسب درجة خطورتها على الفرنسيين . وقد اتضح أن نصف الجزائر مناطق خطيرة جداً ، غير مسموح للفرنسيين بارتيادها إلا في مجموعات مدعمة بالدبابات والطائرات . والربع في الجبال ، وهو ممنوع ارتياده نهائياً . وأما الربع الباقي فهو المدن ذاتها ، والنشاط فيها متروك للمقاومة السرية ، ويسيطر جيش التحرير الوطني الجزائري سيطرة تامة على مناطق بأكملها : وهي منطقة : وهران ، وشمال قسنطينة كلها ، ومنطقة جبال وارسنيس ، وجبال بوزجرة ، والأوراس ، وسيدي ناجي ، ومنطقة وادي الصومام ، وجبال جرجره . وكل هذه المناطق يسيطر عليها جيش التحرير الجزائري سيطرة تامة ، حيث يقوم جيش التحرير بأعمال الشؤون الصحية والإجتماعية وجباية الضرائب ، ورعاية الأهالي ، وشؤون الزراعة والتموين .

*** ـ تردد الصحافة الفرنسية في هذه الأيام بأنكم ستقومون بهجوم عام وشامل ، فما هي الحقيقة ؟**

إن فرنسا تقول ذلك حتى تثبت للعالم أننا لا نحارب إلا قبل انعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة . ولكنني أقول للعالم : أننا في حرب دائمة منذ الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني (١٩٥٤) وحتى اليوم . حقيقة أن الحرب بدأت على نطاق محدود ، ولكنها بلغت من التنظيم والدقة من ناحيتنا الآن حداً جعل الفرنسيين

يعتقدون أن كل هجوم قوي يقوم به جيش التحرير إنما هو هجوم هائل عام ، المقصود به التأثير على الجمعية العامة لهيئة الأمم . ومن ناحية أخرى ، تأمر السلطات الفرنسية بنشر هذه الشائعات ، حتى ترغم جنودها على البقاء في مرحلة استعداد دائم للقتال ، لا سيما بعد أن أظهر هؤلاء الجنود في مرات عديدة تمردهم على قياداتهم ، وأعلنوا رغبتهم في العودة إلى وطنهم ـ فرنسا ـ بنتيجة الهلع والذعر الذي بات مهيمناً عليهم . وأقولها صريحة : لقد بلغ تنظيم الجيش الجزائري مرحلة متقدمة ، وأصبحت لدينا الوسائل الهائلة التي تمكننا من نيل استقلالنا بدماء شهدائنا . وأقول للفرنسيين : لا تنتظروا هجوماً واحداً ، وعليكم أن تتوقعوا دائماً هجماتنا المتكررة .

*** ـ أنت قائد عسكري ، تعرف قوة الفرنسيين قدر معرفتك لقوة جيش التحرير ، فما هو رأيك في هذا الصراع ، وهل تستطيع تحديد مدة استمرار القتال ؟**

ـ هذا شيء يعلمه الله وحده ، غير أنني أستطيع القول ، جازماً ، بأننا سوف نحارب حتى ننال حريتنا . وإننا لن نضيق بالاستشهاد في سبيل الجزائر أبداً ، بل سنحارب ، وسنحارب حتى الاستقلال . ولدينا كل الإمكانات .

*** ـ ما هي الخطة العسكرية الفرنسية في الجزائر ؟**

ـ لقد تطورت الخطة الفرنسية الآن بعد تقوية الجيش الجزائري . فحشدت فرنسا قواتها كلها والمكونة من (٦٠٠) ألف جندي و(١٧٥) ألف شرطي ـ بوليس ـ و(٦٠) ألف من (ميليشيات المعمرين) الذين جندتهم فرنسا ، أي أنها حشدت مليون مقاتل تقريباً ليضغطوا على الشعب الجزائري ، حتى يوقف جيش التحرير عملياته ، وحتى يقف الشعب ضد جيشه . ولكن

الشعب الذي ذاق مرارة الاستعمار وعرف وحشية قواته يعمل معاً حتى النساء والشيوخ والأطفال . وكل له دوره الذي لن يتزحزح عنه حتى نخرج الفرنسيين من بلادنا . لقد استشهد حتى الآن (٥٠٠) ألف جزائري خلال ثلاث سنوات . استشهدوا وهم يحاربون في سبيل الاستقلال . وبعد كل هذا يظن الفرنسيون أننا سنتوقف عن القتال . ليس هناك جزائري واحد ، لم ينله شرف استشهاد أخ له أو أخت أو أب أو أم أو ابن .

ثم قال : إن الجرح عميق . . عميق جداً . لن يغسله إلا الدم ثم الاستقلال(*) .

***

وكانت (دمشق) على موعد مع القائد (عمر عمران) في ربيع سنة (١٩٥٨) حيث جرى لقاء صحفي آخر دار فيه الحوار التالي :

*** ـ ما هي قوة جيش التحرير الوطني الجزائري حالياً ؟**

ـ ارتفع عدد أفراد جيشنا الآن حتى (١٥٠) ألف جندي ، مزودين بأحدث أنواع الأسلحة الحديثة ، الخفيفة منها والثقيلة ، فعندنا المدافع ، ومدافع الهاون والمدافع المضادة للطائرات ، والمدافع المضادة للدبابات ، والمدافع الرشاشة إلخ . .

*** ـ تردد الصحافة الأمريكية أن حماسة جيش التحرير الجزائري قد (فترت) هذا العام كثيراً إذا ما قورنت بما كانت عليه حماسته في العام الماضي . فما هو نصيب هذه المقولة من الصحة ؟**

(*) المرجع : الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) دار العلم للملايين ـ بيروت ـ نوار (١٩٥٨) ص ٢١٣ ـ ٢١٦ .

ـ إن هذا الكلام تدحضه وتكذبه الأرقام في سلسلة المعارك الناشبة في مختلف أنحاء الجزائر في هذه الأيام .

*** ـ وتزعم الصحافة الأمريكية أيضاً أن بعض قادة الثورة الجزائرية قد اجتمعوا ببعض المسؤولين في وزارة الخارجية الأمريكية بهدف إيجاد حل للثورة الجزائرية ـ فما هي الحقيقة ؟**

ـ لم تعهد قيادة جيش التحرير الوطني لأحد بالتفاوض مع رجال وزارة الخارجية الأمريكية وليس في نيتها إطلاقاً إجراء أي نوع من المفاوضات ، أو الاتصال معهم مستقبلاً . فلقد كفرنا بالغرب ، ولا يمكن أن نأمن جانبه ، أو نمد يدنا إليه .

في هذه الأثناء ، دخل أحد أقطاب جبهة التحرير الجزائري ـ التي تقود الصراع السياسي في ثورة الجزائر . وهو السيد (**محمد الغسيري**) وكان يحمل في يده كشفاً دفع به الى القائد (عمر عمران) . وقرأ القائد الكشف ، ثم قال :

هل تعرف خسائر فرنسا في الأسبوع الماضي ؟

* ـ (**٢١٩**) قتيلاً ، و (**٣٠٢**) جريحاً ، وطائرتان ، ومجموعة ضخمة من الأسلحة ، وكميات كبيرة من الذخيرة .

*** ـ ما هي المدة المتوقعة لنجاح الثورة الجزائرية وانتصارها ؟**

وأجاب (عمران) : إن الثورة الجزائرية المؤيدة من الشعب الجزائري جميعه ، تستطيع أن تثبت عشر سنوات كاملة ، هذا إذا كانت فرنسا قادرة على مواصلة هذه الحرب الإجرامية . وسننتصر في النهاية بإذن الله[*] .

(*) صحيفة (المنار) الدمشقية . العدد (١٨٤٥) ـ صباح الأحد ٢٤ ـ رمضان ١٣٧٧ هـ الموافق ١٣ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٨ . ص ٣ .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ :

(سورة الأنفال ـ ٢٦)

الفصل الثاني

١ ـ ولادة سرية ومصرعها .

٢ ـ ضباب الفجر .

٣ ـ المهمة الأولى .

٤ ـ معارك (تيغرين) في (جبل منصور) .

٥ ـ معركة جبل (مُنَوَرْ) .

٦ ـ المقاومة في (بوهندس) .

٧ ـ معركة (الأوراس) .

٨ ـ معركة في الجنوب .

٩ ـ إعدام (فروجي) .

١ ـ ولادة سرية ومصرعها(*)

كانت كتائب جيش التحرير الوطني ، كثيراً ما تتعرض للموت والإبادة ، فطريق الجهاد شاق عسير ، والعدو خصم شديد الضراوة ، قوي البأس . غير أنه ما كانت كتيبة تموت إلا لتبعث من جديد . فالمتطوعون أكثر من قدرة جيش التحرير على استيعابهم ، فكان لا بد من اللجوء إلى الاختيار والانتقاء . وظهرت الصعوبة في انتقاء المتطوعين وضمهم إلى تلك الكتائب لمنحها الحياة بصورة مستمرة . وبات على المتطوع اجتياز اختبار عسير حتى يكتسب شرف الانضمام إلى جيش التحرير . وقصص هؤلاء المتطوعين أكثر من أن تعد أو تحصى ، وهذه واحدة منها .

كنا أحد عشر مجاهداً يوم **٢٤** ـ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ **١٩٥٦** . وكنا نقيم في (ولد حمود) على بعد (**٣٥**) كيلو متراً من (تلمسان) ما بين (ترني) و(صبره) . ويظهر أن القوات الإفرنسية اكتشفت وجودنا

(*) للكاتب الجزائري (محمد بوشاور) وهو مجاهد قديم ، حكم عليه الافرنسيون بالموت غير أنه عاش بالرغم من إرادة أعدائه ، ليكتب تجربة من التجارب التي عاشها ، والمرجع :

RÉCITS DE FEU (SNED) S . N. EL MOUDJAHED . ALGER 1977 - P . P. 51 - 54.

فبدأت بمطاردتنا طوال ثلاثة أيام ، ولما جاء اليوم الرابع ، اتخذنا قرارنا بمغادرة الجبل ، والهبوط إلى السهل ، وشرعنا بتنفيذ القرار على الفور . فتجاوزنا الطريق العام (تلمسان ـ مغنيا) في الساعة الواحدة صباحاً . وأمضينا الليل في (بني ميستير) . وحوالي الساعة السادسة صباحاً وصلتنا صرخات امرأة وهي ترسل نداء الاستغاثة ، فأصابنا نوع من القلق ، غير أن مضيفنا ، صاحب البيت الذي قبل إيواءنا ، طمأننا بقوله إن هذه المرأة هي قريبة له ، أصابها مس من الجنون ـ لما عاينته من الأهوال التي لم تقدر على احتمالها ـ . وفي اليوم التالي ، أخبرنا عامل الإتصال بأن كافة المسؤولين عن المنطقة الأولى قد استشهدوا ، أو وقعوا في الأسر ـ وباتوا في قبضة العدو ـ . ولم يبق على قيد الحياة أحد ممن اشتركوا في عملية حي (شعبة اليهودي) الواقع على بعد عشرة كيلومترات من (تلمسان) . وإذن ، فقد انتهت المنطقة الأولى ، وانتهينا نحن معها ، وبتنا ونحن في عزلة تامة عن كل اتصال ، ولم يعد هناك مسؤول نرجع إليه . وبقي علينا الاعتماد على أنفسنا وعلى ما بقي في قبضتنا من ذخيرة قليلة . وقررنا على الفور القيام بمحاولة لتأمين الاتصال مع الجنود المعزولين ـ مثلنا ـ وإعادة تنظيم شبكة الاتصالات مع خلايا الناحية (الدوار) . فتوجهنا في الساعة الثامنة من مساء يوم (٢ ـ كانون الأول ـ ديسمبر .) نحو دوار يقع على بعد خمسة أو ستة كيلومترات من (ضايا) . وأعد لنا رجال الدوار القهوة ، وقبلوا استضافتنا لتلك الليلة . وفي الساعة السادسة صباحاً ، ذهبنا للاختباء في ملجأ يقع تحت الأرض (قبو) . وقام الرجال في الساعة الثامنة بإخفاء كل أثر لنا عن طريق استخدام جرار (تراكتور) . كما سدوا كافة الثقوب والفتحات ، ومن هنا بدأت محنتنا ، إذ لم تكد تأزف

الساعة (١٦٠٠) حتى شعرنا بأنفاسنا تضيق حتى نكاد نختنق ، **وقررنا** الخروج مفضلين الاشتباك في معركة مع العدو ، والموت في القتال ، من أن نموت مختنقين في قبو مظلم . وفي الساعة (١٨٠٠) جاء رجال الدوار للبحث عنا وإخراجنا ، وفي الساعة (٢٠٠٠) كنا نسير على طريق (تلمسان) . وأمضينا الليل في مسير شاق ، ولكن لم يحدث شيء بفضل الله وعونه ، فوصلنا في الفجر إلى دوار (فحولة) سالمين . ولما لم يكن أهل هذا الدوار قد تعرفوا من قبل على (المجاهدين) أو اتصلوا بهم اتصالاً مباشراً ، فقد أظهروا فرحتهم لرؤيتنا ، واستقبلونا كما لو كنا ملائكة هبطت عليهم من السماء . وأقمنا بينهم أسبوعاً ، عملنا خلاله على تنظيم الدوار (الناحية) وتم اختيار شاب تميز بنشاطه وحماسته وخلقه القويم ، وذلك ليكون مسؤولاً عن تأمين الإتصالات بالخلايا التي تم تنظيمها ، فكان يجمع لنا المعلومات عن العدو . وأعلمنا بعد ستة أيام عن قيام المجاهدين بإحراق أربع مزارع للإفرنسيين وأعوانهم ، تقع بين (لاموريسير) و(الجسر الأيسر) . وكم كانت سعادتنا لا توصف ونحن نعلم بوجود إخوان لنا في المنطقة .

قام المسؤول عن الاتصال مع المجاهدين (السيد الفلاح) بمرافقتنا بناء على طلبنا ، إلى دوار يبتعد عن تلك المزارع الأربع التي تم إحراقها في الليل . ووصلنا إلى (الزقاق) وهو دوار هادىء وجميل ، لم يصل إليه الجنود الفرنسيون أبداً . وابتهجنا إذ عرفنا هناك بوجود زمرة أخرى من المجاهدين ، هي زمرة زيتونة المسؤول عن العمل في المنطقة) . وتقابلنا في المساء حيث أمضينا الليل في مناقشة زمرتينا وموقفهما بعد معركة (شعبة اليهودي) التي دمرت الكتلة الرئيسية من قوتنا في المنطقة .

وفي الصباح ، جمعنا زمريتنا ، وشكلنا الفصيل الأول الذي ضم (٢٤) مجاهداً . وفي اليوم التالي ، سلكنا طريق (اوزيدان) و(عين الحوت) حيث أمضينا شهراً في تطويع المجاهدين وتنظيمهم وتدريبهم بالإضافة إلى جمع الأسلحة والذخائر وصنع زجاجات (كوكتيل مولوتوف) . ونجحنا في ضم (١٢) مجاهداً ممن هجروا (تلمسان) بسبب مطاردة الشرطة الفرنسية لهم . وأصبح تنظيم قوتنا يضم ثلاث جماعات تتكون من (٣٥) مجاهداً . وكنا نقوم بالتدريب النظري في ملجأ تحت الأرض (قبو) يقع عند مدخل (وادي عين الحوت) .

وانطلقنا للعمل بعد ذلك بشهر ، فهاجمنا مراكز الشرطة الفرنسية ، وأحرقنا المزارع ، ودمرنا مجرى الماء الذي يصل إلى (بني بحدل) و(وهران) . وتزايد عدد أفراد جماعاتنا باستمرار ، بفضل انضمام الفارين من الجيش الفرنسي ، والتحاق المدنيين ممن كانت تطاردهم الشرطة الفرنسية وتبحث عنهم . فأصبحت قوتنا تضم (٥٦) مجاهداً . وتشكلت بذلك سريتنا ، وأخذت هيئة أركان الولاية بتجهيزنا وإرسال الثياب العسكرية وخوذ الرأس والأسلحة . وتم تعميد السرية في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٥٧ في قرية (الزقاق) حيث تمت تسمية (زيتونة) قائداً للسرية ـ برتبة رقيب أول ثم مساعد ـ كما تمت تسمية رقيبين لقيادة الفصائل ، يعاونهم أربعة من العرفاء ، مع تعيين (محمد بوشاور) ليعمل معاوناً لقائد السرية . وتعيين (روستان) ممرضاً للسرية .

وأصبح باستطاعة السرية تطوير عملياتها ، والقيام بعدد أكبر من الإغارات والكمائن . وبات مسرح عمليات السرية يشمل (تلمسان) و(ضايا) و(الزقاق) و(بني الوزان) و(سيدي العبدلي) و(قصر

حنون) و (وغابة بن ديمريد). وقد تم اتخاذ (اوزيدان) قاعدة لعمليات السرية ، ومركزاً لاستراحتها ، ومقراً للرعاية الطبية التي كان يشرف عليها (الطبيب غوار) .

أعلمنا أحد المتطوعين الجدد في يوم من أيام رمضان (سنة ١٩٥٨) بإعادة تنظيم المنطقة الأولى ، وتعيين عناصر جديدة من القادة والموجهين . وأعلمنا أيضاً بأن القائد المسؤول (النقيب سي جبور) سيأتي لزيارتنا وتفقد أمورنا . وفرحنا لهذا التطور ، فقررنا القيام بإغارة على (تلمسان) احتفالاً بهذه المناسبة . وتم تحديد يوم ٢٧ رمضان المكرم موعداً لتنفيذ العملية . وكانت عملية ناجحة . جاء (سي جبور) لزيارتنا بعد شهر رمضان المبارك . والتقطت السرية الصور التذكارية . وأقيم حفل استقبال بسيط في (غابة بن ديمريد) . وعلمنا عندها بتفاصيل إعادة تنظيم المنطقة الأولى ، وتقسيمها إلى قطاعات ، وتكليف سريتنا بالعمل في حدود القطاع الرابع . وأصبح (زيتونة) هو قائد القطاع ، وتم تعيين قائد جديد لقيادة السرية . ومضت فترة شهرين على ذلك ، أمكن خلالها تنظيم أول فصيل في (الزقاق) ـ وذلك في حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٨ . ولم نكن نعرف ونحن نحتفل بولادة الفصيلة في (الزقاق) أن هذا المكان ذاته سيشهد عما قريب مصرع السرية في المعركة المعروفة (بمعركة الزقاق) .

ذهب قائد سريتنا بمهمة إلى (قصرحنون) وكان علينا الالتحاق به . غير أنه وصلنا أمر إنذاري في الساعة الرابعة صباحاً عن تحرك رتل ضخم من الآليات والمركبات العسكرية للقوات الإفرنسية ، على محور (تلمسان) و(جسر الأيسر) و(رمشي) . وهي قادمة من تلمسان بمهمة إجراء عملية مسح كبرى للمنطقة (تمشيطها) .

وإذن ، فقد وقعنا في شرك محكم . وأسرعنا إلى العمل ، فقسمنا قوتنا إلى أربع مجموعات ، وتفرقنا مبتعدين عن الناحية (الدوار) . حتى إذا ما أزفت الساعة السادسة ، وصلتنا أصوات الطلقات الأولى لتعلن عن أول اشتباك مكشوف تخوضه قوتنا في السهل ، وفي وضح النهار . وانطلقت النيران الغزيرة من كل مكان .

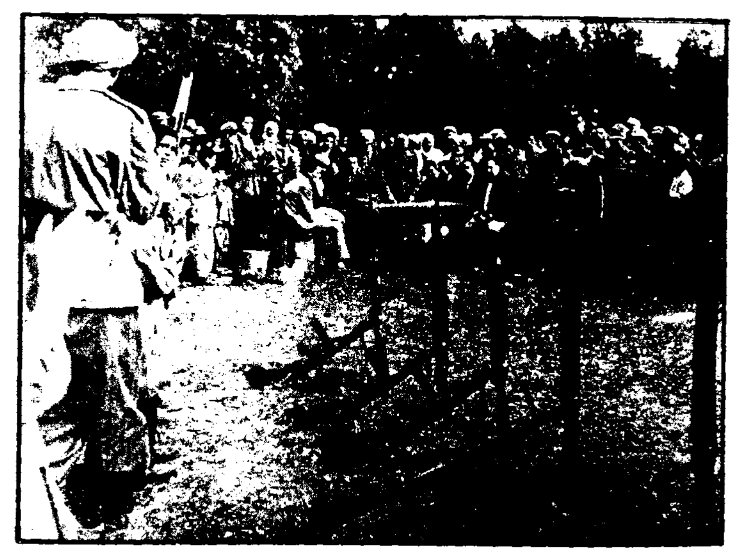
وشاركت في المعركة كل أنواع الأسلحة ؛ من عربات مدرعة ودبابات وطائرات عمودية (هيليكوبتر) وطائرات مقاتلة ، حتى المدفعية ومدفعية الهاون التي كان لها دورها الكبير في المعركة . وانتشرت سحب الدخان الكثيف ، لقد التهب الدوار بكامله . ولم يطل أمد المعركة بسبب عدم التكافؤ في القوى والوسائط ، وأطبق الصمت على ميدان المعركة في الساعة (١٠٠٠) وبعد اشتباك استمر ساعتين فقط . ونتج عن الاشتباك سقوط طائرة إفرنسية واحتراق دبابتين بالقنابل الحارقة (كوكتيل مولوتوف) علاوة على سقوط عدد من أفراد قوات العدو بين قتيل وجريح . وخسر مجاهدونا سبعة شهداء وعشرة جرحى .

لقد ساد الاعتقاد بأن المعركة قد انتهت ، غير أن الطائرات عاودت هجومها في الساعة (١١٣٠) واستمرت أعمال القصف بالصواريخ وقنابل الغاز والمدافع الرشاشة لمدة ساعتين كاملتين . وفي الساعة (١٣٠٠) لم يكن قد بقي على قيد الحياة من قوة السرية ، سوى ثلاثة من المجاهدين . أما بقية أفرادها فكانوا قد استشهدوا في ميدان الشرف . أما الثلاثة الذين فاتهم شرف الشهادة فهم (الأخضر) و(مولود) و(محمد بوشاور) فتوجهوا إلى (ودسكيكة) واختفوا في غدير من الماء تغطيه أعواد القصب الكثيف . وكمنوا هناك حتى الساعة (٢٠٠٠) وهو الوقت الذي كان يصل فيه المدنيون

لنجدة الدوار ، وتقديم المساعدة للمجاهدين . ووصل قائد القطاع (زيتونة) . وشرع الجميع في حفر القبور لمواراة الشهداء ووداعهم ، بعد معانقتهم واحداً بعد الآخر .

لقد ماتت السرية

غير أنها لن تلبث حتى تعود للحياة مرة أخرى ، بدم جديد . .



استراحة في الغابة . لقاء الشعب مع جيشه وقادته

٢ ـ ضباب الفجر(*)

أقبل الشتاء قاسياً على بلاد القبائل ، وبدأ المطر يتدفق بغزارة ، ومن غير توقف أو انقطاع ، منذ ساعات الفجر المبكر ، ففاضت السواقي الكثيرة بما تحمله ، واجتاحتها السيول التي فاضت مسرعة لتجتاح الطريق ، وتصدم السدود بصوت هادر يصم الآذان ، هذا فيما كان صخب المياه يتردد قوياً وهو يتساقط كالشلال ليغمر الحقول ويكنسها ، حتى لم يعد يظهر منها إلا تلك التلال المسودة التي تفصل فيما بين حقول السهل الفسيح . وباتت هذه التلال مطوقة بدوامات طينية مما حمله السيل الجارف وقذف به نحو النهر ليزيد من فيضانه . وكانت الأشجار العارية تنتصب قائمة ، بلونها البني ، فوق الأرض المغمورة بالمياه. فتشكل رسماً نموذجياً للطبيعة الجامدة جمود الموت . حتى أنه ما من طائر وجد في نفسه الجرأة للطيران ، واقتحام العاصفة ، من أجل البحث عن ملجأ أكثر أمناً ، بالرغم من المخاوف التي تكون قد انتابته من برودة الهواء الجليدي ، ومن الضباب

(*) للكاتب الجزائري (طاهر جاويد) طالب في كلية العلوم ، ومن قدامى المجاهدين .
والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S . N . MOUDJAHED . ALGER . 1977 . P . P 55- 63 .

المحيط به . وكانت ريح عاصفة تجتاح السهل المقفر ، غير حاملة ولو لورقة ميتة واحدة من أوراق الأشجار . لقد عجزت الريح عن التقاط ورقة تعزف عليها لحن الشتاء ، فلم يكن هناك إلا الأغصان العارية التي تنتصب كالأذرع السود ترفع أصابعها نحو السماء ، أو هي كالهياكل المشوهة الممزقة . فهنا وهناك ، تظهر جذوع الأشجار المبتورة . وإلى جانبها القذائف الصدئة ، تذكر كل من يمر بها أنه يعبر منطقة حربية . ولعل يد الطبيعة لم تكن كافية وحدها لتشويه هذا المنظر الطبيعي ـ الشتوي ـ فجاءت يد الانسان لتزيد في قسوتها على قسوة الطبيعة ، ولتبرز معالم التشوه في الحياة الميتة . وفي هذه المرة حمل الإنسان بنفسه قدرة التشويه بقذف قنابله المدمرة .

* * *

ارتسم شبح أسود ، كان يسير على الطريق الرئيسي الواصل من (بورت ـ غويدون) إلى (غيط شفة) على بعد كيلومتر واحد من وادي (سيدي خليفة) وذلك في الساعة الواحدة من بعد الظهر . ولم يكن ذلك الشبح سوى خيال رجل يسير متمهلاً وهو يصارع الريح ، غير مهتم بأمر السيول المتدفقة من السماء والتي كانت تتمزق على ثيابه الملتصقة بجسده . ولم تكن الثياب في حقيقتها أكثر من ملابس خلقة تنم عن بؤس صاحبها . وكانت المياه التي تسيل متصلة فوق أرض الطريق ، تمر عبر الحذاء الممزق المهترىء ، تدخل إليه وتخرج منه ، مع كل خطوة يخطوها الرجل الشاب ، وهو يتقدم على الطريق المقفر . وكان الرجل الشاب ، يلبس بنطالاً من نسيج أزرق اللون ، يلتصق بصورة ضيقة على ساقيه ، مع سترة سوداء مهترئة عند مرفقيها (جاكيت) . أما الوجه الذي لم يعرف الحلاقة منذ مدة على ما يظهر ، فإنه لم يكن هناك ما يحميه من لسعات المطر القاسية .

وبالرغم من ذلك كله ، فقد تابع ـ الرجل الشاب ـ سيره باستمرار ، وبخطوات هادئة متزنة ، وكان كل ما يفعله عندما تشتد المطر قوة وعنفاً ، هو أن يضم إليه أطراف سترته ، ويثبتها بالشد عليها بمرفقيه .

كانت هناك بعض الشجيرات دائمة الخضرة ، تقف بأغصانها المرنة الضعيفة ، ثم تنحني وتنهض على التتابع ، وتترنح يمنة ويسرة ، حتى كأنها ترقص على نغمات الريح العاصفة . وأثناء ذلك ، كانت سيول الأمطار المتدفقة بقوة ، قد حملت معها المزيد من الكتل الطينية ، وقذفت بها على أرض الطريق . مما زاد من عناء المسير ومشقته ، فلم يصل ـ الفتى الشاب إلى وادي (سيدي خليفة) إلا وقد استنزفت قوته ، فمضى يستريح تحت أغصان شجرة زيتون هرمة ، وأمله هو أن تتيح له هذه الإستراحة القصيرة فرصة لاستعادة أنفاسه ، واستعادة بعض ما فقده من قوته ، استعداداً للحظة اللقاء الذي سينسيه ما تعرض له من معاناة ، وما احتمله جسده من سياط العدو اللاهبة .

نظر الرجل الشاب فيما حوله بعين حذرة ، وهو يستعيد صور هذه المشاهد الطبيعية ، فأنكرها ، حتى كأنه لم يشاهدها منذ وقت بعيد ، أو حتى كأنه لم يرها من قبل أبداً . وفي الحقيقة ، فإن هذا ـ الرجل الشاب ـ لم يطأ بقدميه أرض منطقته ، ومسقط رأسه ، منذ أربعة أعوام . لقد تم اعتقاله في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤ . ومعه خمسة رجال من قريته (ولكحو) بالإضافة إلى عدد من شبان القرى المجاورة . وأعدم الافرنسيون شابين من المعتقلين في اليوم التالي لاعتقالهما (في معسكر غيط شفة) . بينما تم إلقاء الآخرين في معتقل (بورت غويدون) .



بقايا قنابل النابالم

أما الرجل الشاب (واسمه سليمان عرودكي) فقد تم نقله بعد سنة من اعتقاله إلى سجن (تيزي - اوزو) ليقضي فيه ثلاث سنوات أخرى . وفي النهاية ، قرروا إطلاق سراحه ، فنقلوه صباح هذا اليوم مع قافلة عسكرية إلى (بورت - غويدون) وأنزلوه هناك ، وبقي عليه أن يسير على قدميه ، تحت هذه الأمطار الغزيرة ، حتى يصل إلى قريته (ولكحو) .

خلال هذه الفترة ، أخذت سيول الأمطار في التخفيف من حدة هبوطها الجامح ، وها هي الآن قطرات المياه تتساقط بحبات صغيرة ، أشبه ما تكون بالرذاذ ، محدثة موجات خفيفة تتلاطم على جنبات الحاجزين القائمين على طرفي الطريق . ونهض (سليمان) وقد التصقت ثيابه بجسمه ، واستأنف سيره على طريق الوادي الذي تضخم تحت بصره بطريقة عجيبة . وبقيت المياه الطينية تتدفق بهدير صاخب وهي تتكسر على أقواس الجسر المعدني ، الذي ما كاد (سليمان) يعبره حتى سار على الطريق الرئيسي الذي يصل إلى قريته . وأحنى رأسه مطرقاً وهو يتأمل بنظرة مشفقة أصابع قدميه الحمراء وقد برزت من فتحات حذائه المطاطي الممزق ، المهترىء . غير أنه لم يلبث أن رفع رأسه بصورة آلية ، وركز نظره على كوخ مجاور كانت تفوح منه رائحة الشواء المدخن .

وشعر (سليمان) بغتة بحاجة ملحة للدفء ، واهتز جسده كله إذ اجتاحته رعدة طويلة . وقال في نفسه : « إنهم ، لا بد ، يطهون الطعام هناك ! » ثم انتقل بنظره إلى سحب الدخان المتصاعدة من مداخن المنازل . وشعر عندها بتقلص حاد في معدته ، وتذكر أنه جائع ، فهو لم يطعم شيئاً هذا النهار ، غير أن اقترابه من قريته صرف عنه الشعور بالجوع ليحل محله شعور بالهيجان ، وأخذ وجيب قلبه

يتردد في أذنيه بدقات متسارعة . فزاد من نشاط خطوه ، وتركز نظره على المعسكر القائم فوق القمة ، والذي كان لا بد من المرور فيه ، قبل التوجه إلى القرية .

عادت الأمطار إلى التدفق بمثل معدلها السابق . وأسرع (سليمان) في سيره مدفوعاً بحافزين : أولهما ـ المطر المنهمر ، وثانيهما ـ الشوق للقاء الأهل . وعلى هذا فما أن غادر الثكنة العسكرية ـ المعسكر ـ وابتعد مائة خطوة ، حتى انبسطت القرية أمام بصره بوضوح تام .

* * *

وقف (سليمان) ذاهلاً ، وقد فغر فاه لهول ما يرى ، فلشد ما تغيرت قريته التي كان يعرفها ، وبات لزاماً عليه بذل جهد كبير لقراءة ملامح المشهد الذي يقابله . لقد تحولت معظم المنازل التي كان (سليمان) يتوقع رؤ يتها ، وأصبحت كومة من الأنقاض ، أو اختفت بصورة تامة من ظهر الوجود ، لتترك في مكانها أشرطة أرضية ضيقة ، كما برزت منازل أخرى ، معظمها من التوتياء ، قامت على مقربة من أنقاض المنازل القديمة ، أو فوق الأماكن التي كانت بيوتاً وزالت . وقادته قدماه غريزياً إلى حيث مسقط رأسه ومرتع صباه ، فلم يجد إلا كومة من الأنقاض . وجمد في مكانه ، ووقف برهة طويلة ينظر بعين غاضبة إلى هذه الحجارة التي طالما سحرته ، ولم يعد يشعر بالأمطار المنسْابة على وجهه .

غير أن صوت رجل كهل انتزعه من شروده ، وهو يخاطبه بقوله : « ألست أنت ابن سليمان ايدير ؟! » وأقبل الكهل على معانقة (سليمان) من غير أن ينتظر الإجابة على سؤ اله ـ ثم قال له : « حمداً لله على عودتك سالماً ـ إنك تجهل يقيناً السكن الجديد لأهلك ! هيا

اتبعني وسأرشدك إليه » . سار (سليمان) عشرات الخطوات ، وقف بعدها أمام كوخ خشبي ، وابتعد الرجل الكهل ، ووقف (سليمان) برهة تحت المطر ، أقدم بعدها على دفع الباب المهتز دفعاً يسيراً . وبرفق . كانت أمه جالسة بالقرب من الموقد ، وما أن سمعت صرير الباب حتى استدارت ، وندت عنهـا صرخة اختلط فيها الذعر بالفرح . إنه حلم وقد تحول إلى حقيقة ، فها هو ابنها يقف أمامها . أما (سليمان) فقد وقف برهة ، زائغ النظرات ، باسط الذراعين ، ثم لم يلبث أن طرح عنه ثوب الجمود وهو يرى أمه تسير مندفعة نحوه لتعانقه وهي تجهش بالبكاء ، وتدمدم بكلمات الشكر لله . وفي الوقت ذاته ، كان والد سليمان وأخته يندفعان نحوه ، وعانقه الثلاثة في وقت واحد . وجلس (سليمان) بعد هذا اللقاء العاطفي المثير يتأمل والديه .

كانت والدته شديدة الشحوب ، وقد أحاطت بعينيها هالة زرقاء . وفزع (سليمان) وهو يرى وجه أمه على مثل هذا الشحوب الذي يحاكي شحوب وجوه الموتى . وسألها : «ما بك يا أماه؟ هل تشكين مرضاً ؟ » وانتزعت المرأة العجوز ابتسامة في محاولة منها لتطمئن من قلق ابنها . غير أن هذه الابتسامة لم تلبث أن ماتت على شفتيها وهي تهمس بكلمات لم تصل سمع ابنها الذي أخذ يتجول بنظره دورياً وهو يتأمل وجوه أبيه وأخته وأمه .

وها هو يثبت نظرته على وجه والده الذي لم يبق منه إلا جلد يلتصق بالعظم . أما أخته فقد تركها وليس لها من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً ، وها هي أمامه الآن وقد نضجت وأصبحت صبية حلوة ، غير أنه لم يكن يستر جسدها الغض اكثر من خرق بالية وأثمال عتيقة . وشعر (سليمان) بألم يعتصر كيانه ، وضيق شديد في صدره ، وهو يرى

بؤس الحياة من خلال رؤ يته لثياب أخته ، ونسي أن ثيابه لم تكن أفضل من ثياب أخته .

ومضى (سليمان) في صمت عميق . كما لو كان ينتظر أحداً ، وأخيراً عيل صبره ، فسأل أمه : « وأين هو أخي ـ عقلي ـ ؟» . وتبدلت ملامح الأم بغتة ، فارتسمت إمارات الذعر على وجهها ، وتقلص فمها ، وأجهشت بالبكاء ، ولحقت بها ابنتها فشاركتها بكاءها ونحيبها . وشعر (سليمان) وكأن خنجراً حاداً يمزق صدره ، وأحس بعبءثقيل وقد سقط فوقه وسحق جسده ، وتطلع ببصره إلى الوجوه حوله ، متسائلاً ، مستعطفاً ، ملحاً على إجابة لم يجدها إلا على شفتي أبيه ، اللتين ارتجفتا وهما تنطقان صوتاً مخنوقاً :

« أجل ! استشهد ! لقد قتلوه ! » .

وانتاب (سليمان) إحساس بالضياع ، ووجد نفسه ذاهلاً ، وسقط رأسه بين يديه . عاد المطر إلى تدفقه الصاخب ، وأخذت قطرات من المياه بالتسلل عبر ثقوب السقف . وهبت ريح عاصفة مزمجرة وهي تصدم الأغصان ، لتنساب بعد ذلك على شكل نسمات حلوة رقيقة ، انتعشت لها نفوس من في الكوخ ، وكأنها الصوت الوحيد الذي أراد أن يشارك في ذكرى البائس (عقلي) بعزف تعبيرات حزينة شجية .

كان مصباح البترول (الفانوس) يرسل أشعة متراقصة ضعيفة ، ترتسم على الجدران في أشكال أشباح ميتة . ونظراً لشدة البرد ، فقد التف أفراد العائلة حول نار الموقد ، بينما كانت ريح الإعصار في الخارج تعزف باستمرار (اللحن الحزين) . وهيمن الصمت الجنائزي على الجميع . لم تكن بهم حاجة للحديث ، إذ كان كل واحد منهم يعرف ما يفكر به الآخرون . وتركز المنزل جميعه ، وبمن

فيه على ذكرى الراحل الذي لا زال قبره رطباً ندياً ، وجاءت الأمطار الآن لترويه . ولعل روح (عقلي) كانت ترفرف في تلك اللحظة فوق المنزل المهتز ، وخرق (سليمان) جدار الصمت ، وهو يقول بلهجة حازمة : « أبتاه ! أريد أن أخرج أنا أيضاً » .

كان الأب يعرف يقيناً ما تعنيه كلمة (الخروج) . ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد جاءت هذه الجملة بمثابة ضربة مباغتة أذهلته ، ونظر في وجه ابنه مستوضحاً متسائلاً ، ولم يتركه (سليمان) في حيرته ، فعاد يلفظ كلماته بلهجة أكثر تصميماً ، وأكثر ثباتاً ، وهو يقول : « نعم ! سأخرج لألتحق بالثوار ـ الماكي ـ » .

كانت الأم منطوية على ذاتها وهي أقرب ما تكون إلى الموقد ، فانتفضت من غفوتها ، وكأن صاعقة نزلت على رأسها لدى سماع الكلمات التي لفظها ابنها (الثوار ـ الماكي) . فهل أراد لها الله أن تفجع بإبنها هذا أيضاً ، والذي سيلقى ذات المصير الذي نزل بإبنها الآخر ؟ لا ! إنها لن تسمح بأن يأخذوا منها هذا ! كلا ، إنها لن تسمح له بالخروج . هل يجب عليها أن تجاهد وحدها ضد هذا العالم ؟ غير أن هذا الهيجان لم يلبث أن تلاشى بغتة ـ كما ظهر ـ . فلماذا تعترض سبيل ابنها وتمنعه من الخروج ؟ قد يكون الخطر الذي يتهدد القرية ، ويجتاحها باستمرار ، أكبر من ذلك الخطر الذي يتعرض له الثوار . وعند هذه الفكرة ، تركت رأسها يسقط بين يديها ، وعادت إلى غفوتها ، وما لبثت أن راحت في نوم عميق . وتبعها ابنها (سليمان) الذي ما لبث طويلاً حتى راح غارقاً في نوم عميق . غير أن حلماً مفزعاً هزَّ كيانه : « لقد رأى فيما يراه النائم ، بأنه يسير في غابة كبيرة ـ إنها الغابة التي عرفها جيداً منذ أيام مراهقته ـ يرعى فيها الماعز ، عندما ظهر له أخوه (عقلي) بغتة وهو يقترب

منه ، بوجه أصفر ، وبصدر تنزف منه الدماء . ورأى (سليمان) بأنه أسرع إلى أخيه يسأله عما به بإلحاح . غير أن هذا لم ينظر إليه ، وبقي صامتاً كعادته ، وهو ينظر إلى الأفق البعيد . واحتفظ بصمته متجاهلاً إلحاح أخيه وتوسلاته . وبغتة حرك شفتيه لينطق بكلمة ، غير أنه لم يقلها ، وترك جسده يتهاوى على قدمي أخيه (سليمان) . وعند هذه النهاية ، استيقظ سليمان من نومه ، وقفز من مضجعه » .

نظر (سليمان) فيما حوله ، فرأى أن مصباح البترول (الفانوس) لا يزال يرسل أشعته ورأى على ضوء المصباح أن أباه هو الوحيد الذي لا زال يقاوم النعاس ، فقال لابنه بصوته الجبلي الخشن وهو يراه ينهض مذعوراً : « هل انتابك هاجس ؟ كابوس ؟ » .

تردد (سليمان) قليلاً قبل أن يجيب ، ثم قال بصوت متعب ـ كلا ـ ! غير أن صوته اكتسب بغتة لهجة التصميم والحزم . وهو يقول : سأخرج . ثم تابع حديثه ، من غير أن يتوقف لسماع كلمات والده ، فقال :

« من المحال الاستمرار في مثل هذه الحياة : احتقار في النهار ، وخجل في الليل ، وتوقع الموت في كل دقيقة ، والوقوف موقف العجز ونحن نرى جند الافرنسيين ينتزعون منا زوجاتنا وأخواتنا . ما هذا العيش كأنصاف الرجال ؟ وما هذه الحياة التي سيزهقها الافرنسيون إن عاجلاً أو آجلاً . يجب أن يعيش الانسان حياة السجن حتى يعرف قدر ما يعانيه شعبنا من صنوف الاذلال والاهانات والتحقير والحرمان والضرب والتعذيب والتشويه . هناك ، عندما يطلب المرء أن يشرب ، يضعون رأسه في طبق يطفح بالبولة . . . تعذيب . . وتشويه وحشي .

لقد تعرفت في بداية فترة اعتقالي على شاب صغير ، يفيض رجولة وشجاعة ، شعره كستنائي ، لا تفارق الابتسامة العذبة وجهه بالرغم من كل ما كان يتعرض له من آلام التعذيب . وفي يوم ، أخذه الافرنسيون ، وأشبعوه ضرباً طوال فترة الصباح ، وليس بإمكان أحد أن يعرف كيف تحول هذا الشاب الوديع إلى إنسان شرير يكره العالم كله اعتباراً من تلك اللحظة . . . وعاد الافرنسيون فأخذوه مرة أخرى بعد اسبوع لتعذيبه من جديد ، واقتلعوا في هذه المرة إحدى عينيه ، وقطعوا له نصف أذنه . وفي الغد سمعناه يضحك ويغني وهو في زنزانته بصوت فقد كل الصفات الانسانية . لقد جن المسكين وفقد عقله . وهناك المئات ، والآلاف ، من أبناء الجزائر الذين يتعرضون لهذا المصير ذاته .

وفي السنة الماضية أراد رجلان ـ كنت قد تعرفت عليهما ـ الهرب من السجن ، فعملا على حفر دهليز ـ نفق ـ من زنزانتهما ، واستمرا في الحفر طويلاً خلال الليل ، أما في النهار فكانا يضعان التراب الذي يستخرجانه تحت الدف الخشبي الذي يستخدمانه فراشاً لهما ، ويموهان الفتحة بغطاء أيضاً . وفي يوم ، ظننا أنهما قد أوغلا في الحفر إلى درجة كافية . فدخلا الدهليز ـ النفق ـ الذي كان ينتهي لسوء الحظ بفتحة ضيقة (بالوعة) . وظن الجميع أنهما تمكنا من الهرب . ولكن لم تمض سوى أيام قليلة ، حتى انتشرت في السجن رائحة نتنة لا يمكن احتمالها . وأسرع حرس السجن لتوسيع الدهليز الذي حفره الرجلان بأيديهما ، حتى إذا ما وصلوا إليهما ، وجدوهما مختنقين ، وقد أخذت جثتاهما بالتفسخ والتعفن . . . » .

توقف (سليمان) عن متابعة حديثه ، وارتجف صوته ، وانحدرت دموعه سخية على وجنتيه . ولم يعرف والده بماذا يحدثه ،

وقد بلغ منه التأثر غايته . وحرك فكيه كما لو كان يرغب في الحديث ، غير أن الكلمات خانته ، وأخيراً تمكن من النطق فقال لابنه : « أرى بأن أفضل ما يمكن عمله الآن هو أن تحاول العودة للنوم . إن ضوء الفجر سيبزغ عما قريب ، وعليك أن تستريح » .

تمدد (سليمان) على الأرض ، بعد أن التحف الغطاء . وعاوده الحلم المزعج من جديد . غير أنه رأى نفسه في هذه المرة وهو في السجن ، وفي موقف لم يتمكن من فهمه . لقد رأى نفسه وقد خان إخوانه المعتقلين المجاهدين ، وارتبط بالافرنسيين الذين قذفوا به في زنزانة مظلمة ، بالرغم من خيانته لقومه . وانصرف عنه إخوانه المعتقلون وهم يشيرون إليه بايماءات الاحتقار ، ويتوعدونه بالانتقام . أو ينظرون إليه بعيون غاضبة ملؤها التهديد . ووقع (سليمان) تحت هاجس الرعب ، فحاول أن يشرح لهم الذرائع التي دفعته لاتخاذ موقفه . ولكن ما من أحد حاول الاستماع إليه ، أو الاهتمام بذرائعه . فاقترب عندها ، في ذلة ، وعلى مهل من الشاب المجنون ـ والذي قص حكايته قبل قليل على والده ـ ووضع يده على كتفه في محاولة للتقرب منه والتحبب إليه . يا لحسن الحظ ، لقد وجد أخيراً من يسمعه أو ربما يفهمه . وشرع في الاستعداد للتحدث إليه . غير أنه استيقظ من حلمه ـ في هذه اللحظة ـ على صياح ديك من المنزل المجاور . لقد طلع النهار ، وتسللت إلى الكوخ بعض أشعة الشمس التي بددت ظلمته . كان أفراد العائلة قد استيقظوا جميعاً . وكانوا يتحركون بصمت في محاولة منهم لعدم إيقاظ (سليمان) وتركه نائماً حتى يستريح من عناء ما بذله من الجهد في اليوم السابق . غير أن صياح الديك أفسد كل شيء ، وشرب (سليمان) قدحاً من القهوة ، وخرج إلى القرية ، وكانت الأمطار

التي استمرت في تدفقها طوال الليل ، قد توقفت الآن . وجاءت أشعة الشمس الضعيفة لتغمر ذرى الجبال .

لم يصادف (سليمان) خلال جولته في القرية إلا ثلاثة من الشبان ، وقلة من الكهول يظهر أنهم هربوا بدورهم من الحياة ، فلجأوا إلى فناء الجامع (صحن المسجد) يعتصمون به . أما بقية الشبان ، فكانوا إما قد أصبحوا مجاهدين في صفوف الثوار ، أو قتلوا برصاص الافرنسيين : المنازل مدمرة مهدمة ، ومجموعة من الأطفال البؤساء يتعثرون بين الأنقاض ، ليؤكدوا أنه لا زال للحياة وجود على أرض هذه القرية . وعاد لسليمان شعوره بالعجز ، هذا العجز الذي لازمه مرة وهو في السجن ، ويلازمه الآن مرة أخرى وهو إلى جوار والديه وأخته . ومضى صامتاً على طريق العودة إلى منزله . ومرت ساعات النهار . ونام (سليمان) بعد أن تناول طعام العشاء المتواضع .

* * *

استيقظ (سليمان) من نومه في منتصف الليل ، وهو يشعر بإرهاق مزعج . لقد كانت قطرات العرق البارد تتصبب غزيرة من جبهته ، وارتجف كما لو كان مصاباً بالحمى . غير أنه لم يلبث طويلاً ، حتى عاد واستغرق في نوم عميق . وعندما أفاق ، كانت الظلمة المحيطة بالمنزل قد تبددت . فرأى والده جالساً في مواجهته ، وهو يتأمله بعينيه الكليلتين . فشعر (سليمان) بالضيق . لقد كان يفضل مغادرة المنزل ، من غير أن يراه أحد . وها هو والده يقترب منه ، ويمسك بيديه وهو يقول له :

« إذن ! فقد اتخذت قرارك ! وهل ستخرج اليوم ؟ » .

وسيطرت على (سليمان) رغبة مباغتة للبكاء ، فانحنى على

رأس أبيه ، غير أنه عاد فتجلد فوراً ، وتحامل على نفسه : إنها ليست اللحظة المناسبة للانفعال وتفجر العاطفة . ووقف ، وبقفزة واحدة وصل إلى الباب . كانت الأم لا تزال نائمة ، ولم تشعر بخروج إبنها . أفاد (سليمان) من بقايا عتمة الفجر لاجتياز سياج الأسلاك الشائكة الذي أقامه الافرنسيون لتطويق القرية وعزلها . وما هي إلا فترة قصيرة حتى كان في الغابة . وكان وصوله إليها ، ووجوده فيها ، كافيان لإثارة كل مشاعر البهجة في نفسه .

ثارت في نفس (سليمان) مجموعة من العواطف والانفعالات التي لا يمكن وصفها . وانتابته موجة من الحماسة الدافقة ، فأخذت دقات قلبه في التسارع . وتوقف عن السير حتى يفسح لأفكاره الفرصة للانطلاق ، فكانت كل حركة في هذا الصمت الرائع كافية لإفساد خلوته مع نفسه ، وقطع تسلسل أفكاره . إنه يشعر بقوة جديدة تهز كيانه ، قوة كلها رغبة في العمل . إنه يدرك تماماً بأنه أصبح رجلاً . وها هي نظراته التي يمتزج فيها الغضب والتحدي بالتقزز والنفور ، وهي تتجه إلى الثكنة العسكرية التي لا زالت نائمة . وفي وسطها الظلام الحالك .

كان شعوره بالفرحة يتعاظم بصورة نسبية مع تعاظم أفكاره ، حتى بلغت البهجة درجة من القوة بات من الصعب عليه البقاء ساكناً ، فانطلق يثير الصخب في الغابة الصامتة ، يركض تارة ، ويتمهل في مشيه مرة أخرى ، ويرسل صوته عالياً ليستمع إلى صداه . لقد شعر أنه يستمتع بحريته إلى أبعد الحدود . وملأ رئتيه بهواء الجبال النقي المنعش ، فالهواء هنا يعبق بشذي (الراتنج) ورائحة الشجيرات دائمة الخضرة . ومر في خاطره طيف سجن (تيزي - أوزو) كومضة البرق . فأغمض جفنيه ، وأخفى عينيه ، وكأنهما تعبتا

من مجرد الذكرى التي جاءت لتفسد عليه متعة الحرية . وانتابه دوار في رأسه ، فتركه يستند إلى يديه . واستراح قليلاً . وعندما نهض من جديد ، كانت نظراته تحمل بريقاً جديداً ، وشعر بتيار الحياة يحيط به ، ويحمله إلى آفاق لا نهاية لها . إنها آفاق تعبق بكل شذى الغابة .

فهنا الحرية ، وهنا الانتقام .

الانتقام لأخيه ، والانتقام للمعتقلين في سجن (تيزي - أوزو) . وارتفعت الشمس فوق ذرى الجبال الشماء ، مرسلة الدفء إلى الأرض ، وهي تسبح في زرقة السماء الصافية .

هنا ، الشمس ، والنور ، والحياة .

لقد تبدد (ضباب الفجر) ووصل إلى نهايته .

لم يستمتع (سليمان) بهذه الحرية أكثر من يوم واحد ، ففي اليوم التالي شعر برصاصات تمزق صدره أثناء أول اشتباك له مع العدو .

وحمله الافرنسيون إلى القرية ، ووضعوه في فناء المسجد - الجامع - وقد أحاطت بجثته غلالة أرجوانية قانية تحميه من الخضوع للأعداء . وتكفيه مؤونة الانتقام القريب . وهناك ، في جوف كوخ حمل تجاوزاً اسم - منزل - انطلقت صرخة حادة طويلة ، إنها صرخة انطلقت من قلب خرج عن موضعه وقد انغرست فيه الأظافر . لقد كان ذلك القلب هو قلب امرأة ، أم ، أصابها الجنون .

٣ ـ المهمة الأولى(*)

تقع قرية (بورقيقة) الصغيرة على بعد (٩٠) كيلو متراً من العاصمة (الجزائر) وإلى الغرب منها. وكان يعيش فيها(في شهر شباط ـ فبراير ـ سنة ١٩٥٨) مواطنوها الذين كان من بينهم أربعة شبان تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة ، والثلاثين عاماً . وكان هؤلاء ـ شأنهم شأن بقية سكان القرى ـ يعملون في زراعة الحقول وتربية المواشي . وكان يظهر للوهلة الأولى ، أن الحياة في هذه القرية هادئة ، وخالية من كل إثارة ، باستثناء ما كان يحدث بين فترة وأخرى من مرور عربات نقل الجند الكبيرة للقوات الافرنسية ، وهي تتسلق الدروب الضيقة ، والممرات الملتوية المتعرجة ، في طريقها إلى الجبال المجاورة : هذا في النهار ، أما في الليل ، فكان الصراخ والعويل هو مما يعكر صفو سكونه ويمزق هدوءه .

وفي الحقيقة ، فقد كانت صرخات النساء وصيحاتهن تتردد في

(*) الموضوع بقلم الكاتب الجزائري (مروان شايب) وهو مدرس في (بليد) . يتعرض هنا لقصة الانضمام إلى صفوف الثورة ، وأسلوب العمل تحت عنوان (الشرط : LA CONDITION) والمرجع :

RÉCITS DE FEU (SNED) S . N . EL MOUDJAHED , ALGER . 1977 . P . P . 64- 69.

كل ليلة . وهي تنطلق من الدواوير (النواحي) المجاورة والقريبة . وفي الصباح المبكر ، تسير الهمسات والوشوشات من بيت إلى بيت لتنقل ما حدث : فهنا تم اعتقال (قدور) عند منتصف الليل ، وهناك ، تعرض (صلاح) للضرب والتعذيب ، أمام زوجته الباكية وأطفاله المنتحبين ، ثم اعتقلوه . وفي وسط هذا المناخ ، قرر الشبان الأربعة الانضمام إلى المجاهدين ، والسير على طريق الثورة . فهل كان حب المغامرة الذي يلازم هذه المرحلة من عمر الشباب هو الحافز الأقوى الذي دفعهم لاتخاذ قرارهم ؟ أم هو حب الحرية والتعطش إليها كان حافزهم الأقوى ؟

لقد كان الفلاحون في حقولهم يتهامسون بصوت خافت عن إمكانية الاتصال بالمجاهدين الذين ينتشرون في الجبال القريبة جداً . وعلى هذا تم تكليف (أحمد بوفان) بإجراء الاتصال مع الثوار ، إذ كان يقطن في دوار منعزل ، وكان عمه من مجاهدي جيش التحرير الوطني .

انتظر الشبان الأربعة طوال عشرة أيام ، وكانت فترة انتظارهم كئيبة ومديدة . وأخيراً ، أقبل اليوم العظيم ، فقد أعلمهم (بوفان) أنه تم تحديد مكان الالتقاء ـ عند النهر الذي كان يحمل اسم ، جيرمين ـ . واستعد الشبان الأربعة لهذا اللقاء ، وهم : حمدي ـ أكبرهم سناً ، وأحمد مصراوي ، وتومي ، وأنا ـ مروان شايب ـ . وعلمنا أن اللقاء سيتم مع الموجه السياسي (سي جلالي) الذي كان سيقابلنا في كرم زيتون (سيدي بودروه) وذلك في الساعة (٢٣٠٠) تقريباً .

لقد جاء خبر اللقاء ليترك الشبان الأربعة في حالة من الدهشة والذهول ، إذ أنهم سيتعرفون على واحد من هؤلاء المجاهدين

الأسطوريين ، وسيكون باستطاعتهم التحدث إليه ، ومصافحته ، إنه شيء لا يكاد يصدق .

ولما كان الموعد في اليوم الثالث من رمضان ، فقد تساءل الشبان عما يجب عليهم عمله : الاستمرار في الصيام أم الأفطار ؟ . غير أنه ما من أحد منهم تجرأ على اتخاذ القرار بانتهاك حرمة الشهر الفضيل . وأخيراً طرق الموضوع أكبرهم سناً (حمدي) وقال لهم : « تعرفون يا إخوتي أن الطريق شاق وطويل ، وسنكون مثقلين بما نحمله من المتاع ، ولا بد لنا من الإفطار حتى نسد رمقنا بشيء من الطعام والماء » . وعاد الجميع إلى منزل (حمدي) ودخلوه واحداً بعد الآخر ، بفواصل زمنية ، حتى لا يثير دخولهم انتباه أحد من الجوار . وكانت هناك مائدة في غرفة من الغرف ، عليها الخبز والسردين وعلبة جبن . ونظر بعضهم إلى بعض نظرات الفزع قبل أن يفطروا . وعند أول لقمة شعر كل واحد منهم بغصة في حلقه ، وتضخمت اللقمة حتى كادت تستعصي على البلع . وكانت عقارب الساعة تقترب من الخامسة مساء (١٧٠٠) عندما استعد الشبان الأربعة للخروج . ففي هذه الساعة تقفر الشوارع من السابلة ، وعتمة الغروب تكاد تكون مظلمة ، وانطلق الشبان واحداً بعد الآخر - من المنزل - . وسلكوا طريق المدينة الذي سيصل بهم إلى الجبل الواقع على بعد سبعة كيلومترات تقريباً . ولدى مرورهم بأحد منازل المدينة ، وصلتهم ضحكات عائلة جلس أفرادها إلى طاولة الطعام ؛ وأثار ذلك في قلوبهم شيئاً من المشاعر المتناقضة - إذ كان سكان منازل المدينة من الأوروبيين - .

باتت الظلمة قاتمة ، وهناك ، على البعد موعدنا ، حيث كتلة الجبل القاتمة ، والتي يقع على منحدرها كرم أشجار الزيتون .

والتصق كل واحد منا بإخوانه ، ونحن نتقدم بخطوات نشطة (والخوف يمسك بقلوبنا) . ووصلنا إلى مكان الموعد ـ تحت الأشجار ـ وبوغتنا مباغتة لم نكن نتوقعها ، فما من أحد ينتظر وصولنا ! وكان لزاماً أن (يكونوا) هنا . ولم نتمكن من إيجاد تفسير لهذا الحظ العاثر . وكان لا بد من اتخاذ قرار عاجل : ذلك أننا إذا بقينا هنا ، فقد نقع في قبضة (الحركيين) الذين يقودهم (مراد) والذين اشتهروا في كل مكان بقسوتهم ووحشيتهم . وسرعان ما تسلق كل واحد منا شجرة من الأشجار ، ومكثنا ننتظر ، ومرت نصف ساعة ونحن على ذلك ، عندما ارتسم على خط الذرى ، وبصورة مباغتة ، هياكل متحركة تحمل بواريدها . وبلغ منا الخوف غايته . فهل هؤلاء من المجاهدين الجنود أم هم من الحركيين ـ الأعداء ـ ؟ وهل يجب أن ننزل إليهم من مخابئنا ، أم يجب البقاء على الأشجار ؟ . . ماذا نفعل ؟ وكان لا بد من اتخاذ قرار فوري . فقفزت من على غصن شجرتي . وطلبت إلى الآخرين بألا يتحركوا عن أماكنهم . واتجهت نحو تلك الهياكل ، وتوقفت على بعد خمسين متراً منها ، وصحت بصوت قوي :

ـ من أنتم ؟

ـ **تونس ، وأنت ؟**

ـ **القمر !**

كانت تلك هي كلمات التعارف المتفق عليها . وقفز قلبي من موضعه . وسمع إخواني الكلمات المتبادلة ، فقفزوا على الأرض ، وأحيط بنا من كل جانب . وطلب إلينا الجنود المجاهدون إعطاءهم معلومات عن أهلهم وأصدقائهم ، وتناقشنا ، وضحكنا ، وأكلنا الكعك . وأعطانا (سي جلالي) قنبلتين يدويتين ومسدساً . وكلفنا

بإلقاء قنبلة في (مقهى باريس) وهذه هي المهمة الأولى التي لا بد من تنفيذها ـ كاختبار ـ وذلك قبل الانضمام إلى قوات جيش التحرير الوطني .

* * *

رجعنا على طريق القرية ، وكان المطر ينهمر كالسيل ، فالتصقت ثيابنا بأجسادنا ، وأخذت أقدامنا تغوص في الوحل . وكان الناس لا يزالون نياماً . فالساعة لم تتجاوز بعد الرابعة صباحاً . وخشيا أن تصادفنا دورية عسكرية افرنسية ، فقررنا التوقف ، بانتظار صعود شمس النهار ، ولجأنا إلى شجرة زيتون كبيرة ، نحتمي بها . وأخذ (تومي) على عاتقه القيام بالنوبة الأولى من الحراسة ، فصعد إلى الشجرة ، بينما جلسنا نحن الثلاثة عند أسفل جذعها . ننتظر موعدنا مع اليوم الجديد ، وننظر إلى المطر المنهمر كالطوفان ، والبرد يخترق أجسادنا بقوة . وفجأة انبعثت ضجة قوية ، وهوى جسم ثقيل على أقدامنا . إنه جسم (تومي) الذي استسلم للنوم وهو على غصن الشجرة ، فسقط على الأرض . ومرَّ ذهول المباغتة ، وانفجرنا ضاحكين ، وأجسادنا تهتز لفرط انفعالنا ، حتى أن (تومي) ذاته لم يتمكن من منع نفسه عن مشاركتنا ضحكنا ، بالرغم من سقطته الأليمة . وعلى كل حال ، فقد أشرقت شمس النهار ، وأمكن لنا الوصول إلى منزل (حمدي) بجهد كبير . فكان أول عمل هو قيام (حمدي) بإخفاء القنابل في مدخنة الموقد . وجاء يوم تنفيذ العملية (يوم ـ ي) وتقرر إلقاء القنبلة في لحظة الإفطار ـ أي مع أذان المغرب ـ ففي هذه اللحظة يقفر الشارع من المارة المسلمين . ولجأنا إلى القرعة حتى لا نختصم على تنفيذ العملية ، فجاءت القرعة على (بوفان) لإلقاء القنبلة . وكان على (حمدي)

و(تومي) تأمين الحماية له . أما أنا ، فقد تم تكليفي بالبقاء على مقربة من المكان لمراقبة ما يحدث ، ورصد ردود الفعل ، والحصول على بعض المواد التموينية ، والالتحاق في اليوم التالي بالثوار الماكي - .

وضع (بوفان) على رأسه قبعة تخفي نصف وجهه (بيريه) . ووضع القنبلة اليدوية في جيبه ، وأمضى طوال النهار وهو يسير جيئة وذهاباً من أمام المقهى ، حتى يدرس بصورة دقيقة طريقة تنفيذه لمهمته ، وطريق انسحابه بعد ذلك . وفي الساعة (١٧٠٠) تماماً . سار بحزم نحو الباب الذي تحميه شبكة القضبان الحديدية ، وانتزع مسمار الأمان من القنبلة ، وقذف بها إلى الداخل ، وبوغت من في المقهى مباغتة كاملة . وتدحرجت القنبلة حتى وصلت إلى أسفل طاولة لعب (البلياردو) . الأمر الذي أنقذ رواد المقهى . ودوى الانفجار قوياً . وتطايرت الطاولة مزقاً في الهواء ، وأصيب الخباز - ابن راح - ببعض الجراح . وأفاد (بوفان) من فترة الرعب التي أحدثها الانفجار ، فاندفع بسرعة نحو الساحة ، حيث كان ينتظره (حمدي) وهو يحمل مسدسه (الموزر) . وجرت الأمور كما هو مخطط لها ، وكما كان متوقعاً : فقد اندفع العسكريون الافرنسيون في اتجاه الآثار الخداعية ، وأخذوا في اعتقال الأشخاص ممن قادهم حظهم العاثر للوقوع في قبضة رجال الجيش ! وبقيت أنا وحدي في القرية ؛ أستمع إلى الناس وهم يتناقلون الخبر - خبر الانفجار - بسرعة كسرعة البرق ، وأصيب المستوطنون الافرنسيون بالذعر ، فدفعوا رجال الدرك (الجندرمة) للانتقام من العرب المسلمين ، وذبحهم .

* * *

عندما رجعت إلى المنزل، وجدت أمام بابه سيارة عسكرية خفيفة (جيب) . وتجمد الدم في عروقي . فكيف وصلوا إلى هنا ؟ وتابعت طريقي ، فاتجهت مباشرة إلى مزرعة (سوفتون) حيث يمكن لي القيام بالاتصالات . واختبأت في المزرعة لمدة ثلاثة أيام . ثم جاءت الليلة التالية ، وارتفع فيها ضجيج عربات نقل الجند الكبيرة (الكميونات) فملأت الساحة ؛ وانتشر رجال الدرك في كل مكان . وحاولت الهرب عبر غيضة من شجيرات الورد الشائكة ، الأمر الذي أعاقني عن رؤ ية الرجل المتوقف هنا للحراسة ، وقد أخذ هذا في مطاردتي ، وأطلق رصاصة أخطأتني . غير أنني أصبت بالذعر ، فلم أعد أعرف إلى أين أتجه ، ولا أين أسير ، وتم اعتقالي . ونقلت ليلاً إلى ثكنة الدرك ، وبدأ التحقيق على الفور . ولشد ما كانت دهشتي عندما أطلعني رقيب الدرك ـ المحقق ـ على ملف سجلت فيه كافة اجتماعاتنا ولقاءاتنا : « كل شيء ـ ما عدا شيئاً واحداً لم يضمه الملف بالتأكيد ، وهو ـ من الذي قام بتنفيذ عملية إلقاء القنبلة في المقهى ؟ وما هو دوري فيها ؟ » . ولما كنت أعرف بأن عقوبة ـ العدوان على الأماكن العامة ـ هي العقوبة القصوى ، فقد قررت الالتزام بالصمت ، مهما كلفني ذلك من مشاق . وأمسك إثنان من رجال الدرك بذراعي ، وأثبتاهما خلف ظهري ، ووجه الرقيب لكمة قوية بجمع يده إلى بطني ، ثم استمر في توجيه ضرباته ، وهو يقول لي : « أقسم لك ، أنك ستنتهي بالاعتراف بكل شيء ! » ترى كم استمرت نوبة التعذيب هذه ؟ إني لست أدري ! غير أنني أذكر ما قاله لي في النهاية : « بما أنك مستمر في عنادك ، فسنرسلك إلى مزرعة سانت جان » ! وكانت مزرعة (سانت جان) تبعد مسافة عشرة كيلومترات عن (بورقيقة) وقد اشتهرت بغرفها المجهزة للتعذيب ،

وما تحتويه من وسائل التشويه . وتوقفت سيارة خفيفة (جيب) مباغتة أمام مركز الدرك . وقفز رجل (حركي) من داخل السيارة ، وفتح الباب ، وقال : « أين هو هذا القذر ـ يا حضرة الرقيب ـ . لا تزعجوا أنفسكم بأمره ، إننا سنحمله على الغناء ! » واستدار هذا ـ الحركي ـ نحوي ، ووجه إلي سيلاً من السباب والشتائم ـ باللغة العربية .

قيدوني في العربة الخفيفة (الجيب) بالرغم من إحاطتي باثنين من رجال الدرك . ووصلنا إلى المزرعة مع هبوط ظلام الليل . فدفعوني إلى غرفة كان أول مالاحظته فيها وجود بركة من الدم ، وشعرت بشعر رأسي وهو ينتصب واقفاً لهول هذا المنظر ، لقد سبقني إذن موقوف آخر إلى هذه الغرفة ! وأصدر إلي (الحركي) أمراً بخلع كل ثيابي . وتم تثبيت القيود والأغلال على رسغي يدي وقدمي ، بالإضافة إلى سلسلة ضخمة كانت تصل بين القيود المثبتة على الجدار ، فلم يعد باستطاعتي القيام بأي حركة ، أما رأسي فترك معلقاً على مسند يشبه (البالوعة) في أعلاها صنبور ماء .

وقال لي رقيب : « قد يكون من الأفضل لك ، أن تقول لي من قذف القنبلة ، قبل أن نبدأ عملنا ! » وأجبته : « أنكم تخطئون بحقي يا حضرة الرقيب . إنني لم أكن مع الزمرة التي ذكرتم أنها ألقت القنبلة ، ولا أعرف شيئاً عن أمرها . كل ما أعرفه أن هناك قنبلة قد انفجرت » وقال الرقيب : « حسناً أيها القذر ؛ سنرى صحة قولك خلال لحظة واحدة ، هيا يا عمر ! » وأقبل الحركي ـ عمر ـ فوضع كتلة من الخيش في فمي ، وفتح الحنفية حتى آخرها ، وتدفق الماء فملأ فمي ، وحاولت التنفس ، غير أنني لم أتمكن من ذلك ، وانقضت ثوان قليلة عندما سمعت بصورة مشوشة الكلمات التالية : « من ألقى القنبلة ؟ » . وبقيت صامتاً . فتكررت عملية التعذيب

بالماء مرات متتالية ، وإعادة السؤال ذاته ، والتزام الصمت من جانبي باستمرار . ولما أدركوا أن هذه الوسيلة لن تصل بهم الى ما يريدون . قرروا تغيير الأسلوب . وقال لي الرقيب : « قف أيها الخنزير ، ستذوق الآن طعم الحلوى التي سنقدمها لك ! » .

وكان صوت الرقيب يصلني وأنا في شبه إغماءة ، إذ كان بطني المنتفخ بالماء يؤلمني ، وكانت لدي رغبة بالتقيؤ ، غير أنني لم أتمكن من ذلك . وكان الماء ينضح من كل مسام جلدي . وتم تثبيت أطراف السلك الكهربائي على رسغي ، وفي فتحتي أنفي ، وانتابني ألم مرعب وأنا أتلقى الصدمة الأولى من الشحنة الكهربائية ، وسالت دموعي غزيرة على غير إرادة مني . . . وكان لزاماً علي الصمود قليلاً في هذه اللحظة ، وإلا فانهم سيستمرون في تعذيبي طوال الليل ؛ إنني أعرف طريقتهم ؛ تعريض المشتبه به لصدمة عنيفة منذ اللحظات الأولى لتعذيبه حتى يتم تدميره : هكذا كان يقول لنا (سي جلالي) ويكررها على مسامعنا باستمرار . وقال لي الرقيب :

ـ هل تعرف المغربي ؟ ذلك الذي يعمل رئيساً للإمداد والتموين في (بورقيقة) ؟ . . .

وتظاهرت أنني : لا أسمع شيئاً ، ولا أرى شيئاً ، ولا أشعر بشيء . وأمام عنادي ، قذفوا بي أرضاً ، وقدماي ويداي مثبتة بالقيود ، وأقبل الحركي ليلهب جسدي بسوطه وهو يقول لي : « هل تعترف أم لا ؟ » ودخل جندي ومعه كلب ضخم (بول دوغ) . وتحفز الكلب للقفز على ضحيته ، ثم قفز علي عندما أعطيت له الشارة بذلك ، وشعرت بعظام رسغي تنسحق تحت فكيه ، وانتابني ألم جنوني ، وسيطر علي الغضب لعجزي عن المقاومة ، وحاولت الدفاع عن نفسي ، غير أنني لم أتمكن من ذلك ، وأمسكني أحد

رجال الدرك ، وثبتني ، حتى يتمكن الكلب من النهش في جسمي ، بكامل حريته ، ومن غير إزعاج . واستمرت اللعبة الجهنمية بوحشية تعجز الكلمات عن وصفها . وبدأ الدم يسيل من رسغي ، ومن جراح قدمي حيث نهشني الكلب بأسنانه . ولم يعد يهمني شيء ، وانتظرت الموت بفرحة كبيرة . . .

وأخيراً ، انتهت مرحلة تعذيبي لهذه الليلة ، ووصلت آلامي إلى نهايتها . ورأى الرقيب بأن جلسة التعذيب قد استمرت من غير الوصول إلى النتيجة التي يرغبها . فأوقفني وقال لي : « ما عليك إلا الانتظار ، غداً سنستأنف محادثتنا ، وصدقني بأنك ستبوح بأسماء رفاقك الثوار ـ الفلاقة ـ واحداً بعد الآخر » .

بذلت جهداً كبيراً حتى أستطيع البقاء واقفاً على قدمي ، ومضيت أسحب قدماي سحباً وأنا أسير عبر الساحة لأصل إلى زنزانتي . وبات باستطاعتي العيش مع آلامي بصمت ، في وسط هذا السجن ، ومع ظلمة الليل الحالكة . وقيدوني واقفاً وأنا مثبت إلى الجدار . كان أنفي يؤلمني ألماً لا يوصف ، وكنت أشعر بعطش شديد ، وإلى درجة لا تصدق ، بالرغم من كل الماء الذي أرغموني على شربه . وخلال اجتيازي للساحة . ناداني شاب اسمه (افرنسي) وقال لي : « خذ حذرك ، لن نقفل عليك باب زنزانتك بالمفتاح ، فلا تحاول الهرب ، إذ أن رصاصنا سيصرعك على الفور » .

أمضيت الليل واقفاً ، وأنا مقيد إلى حلق مثبت بالجدار . وكانت رسغاي المنتفختان تؤلماني أشد الألم وأقساه . ولشد ما كانت فرحتي عندما أقبل هذا العسكري ذاته في منتصف الليل ، وعمل على فك قيودي ، وإرخائها قليلاً .

استأنف الجلادون تعذيبي في الصباح المبكر ، ولكن بقسوة تزيد كثيراً على ما عرفته : الماء ، والكهرباء ، والجلد بالسياط . وحدث شيء لا يمكن تصديقه : لقد رفض الكلب الضخم ـ البول ـ دوغ ـ رفضاً قاطعاً الانقضاض عليَّ ، بالرغم من كل الجهود التي بذلها العسكريون لدفعه نحوي . ويظهر أنه عقد معاهدة صداقة مع الثوار ـ الفلاقة . وإلا فلماذا امتنع الكلب عن عضي والنهش بلحمي ؟ سر غريب ! كنت أشعر بالجوع والعطش : وأصدر عميل ـ حركي ـ الأمر إلي بالخروج لتناول الطعام في الساحة ، حيث كان يتناول الكلب طعامه ـ وهو نوع من الحساء ـ في طبق عميق . وقال لي : « بما أنك والكلب من عائلة واحدة ، فما عليك إلا أن تشاركه طعامه ! » . ودفعني برفسة من قدمه أوقعتني أرضاً . ومددت يدي نحو الطبق ، ونبح الكلب نباحاً يصم الآذان ، ففزعت وسحبت يدي بسرعة .

وعاد الحركي يقول : « أتأكل أم لا ؟ » وعدت فبسطت يدي المرتجفة من الخوف . وفي هذه المرة ، انقضى الكلب الضخم ـ البول دوغ ـ فأمسك رسغي بين فكيه ، وحاولت استخدام كل قوتي لانتزاع يدي والتخلص منه . وسال الدم غزيراً على يدي . وانفجرت ضحكات الجند من ورائي . ويظهر أن منظري كان كافياً للترفيه عنهم وتسليتهم . فأعادوني إلى زنزانتي . وبقيت في هذا الجحيم طوال ثلاثة عشر يوماً . وجاء رقيب الدرك الذي استقبلني في بداية الأمر ، فحملني في عربة خفيفة (جيب) إلى معسكر (شينو) في (بليـده) . وهناك ، وجدت بقية الأخوة ، وهم على حال مثل حالي .

أطلق الافرنسيون سراحنا في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ

١٩٦٠ . وفرضوا علينا الذهاب في كل يوم إلى (ثكنة الدرك) من أجل التوقيع على (سجل الحضور) .

أمكن لي إعادة الاتصال مع (سي جلالي) . واستطعت بعد شهر واحد الانضمام إلى قوة جيش التحرير الوطني في الولاية الرابعة . وقد التقيت هناك ـ كما كنت أتوقع ـ الإخوة (تومي) و (أحمد بوفان) . أما (حمدي) فكان قد استشهد على ساحة الشرف . واستمر الصراع .

٤ ـ معارك (تيفرين) في (جبل منصور)(*)

وصلنا إلى قرية (تيفرين) في الساعة (۲۲۰۰) ـ العاشرة ليلاً ـ من يوم (٢٣ ـ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٥٧) . وكانت هذه القرية تضم في هذا اليوم كتيبة من كتائب جيش التحرير الوطني الجزائري بقيادة الرقيب (سالم) . بالإضافة إلى عدد كبير من المفارز المستقلة والفارين من وجه السلطة الفرنسية والمسبلين . وكانت هناك قرية (بني وحدان) الواقعة على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الشمال من (تيفرين) حيث كانت تتمركز فيها كتيبة ثانية من كتائب جيش التحرير الوطني بقيادة الرقيب (العباشي) . كما كانت هناك قرية (حمدة) الواقعة على بعد كيلومترين إلى الجنوب ـ الغربي من (بني وحدان) والتي كانت بدورها تضم كتيبة من كتائب جيش التحرير الوطني . وكانت هذه القرى الثلاث تحتل مساحة جغرافية تبعد عشرين كيلومتراً من (بني منصور) وإلى الشرق منها، وهي تبعد في الوقت ذاته مسافة (٦) إلى (٧) كيلومترات إلى الغرب من (علي ايفيل) المرتبطة

(*) للكاتب الجزائري (علي سراج) وهو مجاهد قديم ، وممن اشتركوا في المعارك التي اشترك في تسجيل أحداثها ـ والمرجع :

RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MODJAHED, ALGER, 1977. P. P. 81- 92.

إدارياً بمركز قيادة (بو جليل) في (ضهرة أقبو) من ولاية (بجاية) .

كان المجاهدون رجالاً اشتهروا بفضائلهم : إيمان ديني عميق ، وحب للوطن لا حدود له ، واستعداد دائم للتضحية ، وشجاعة لا نظير لها ، واحتقار للخطر ، وإقدام على اقتحامه ؛ ولعل الإسلام لم يعرف مثل هؤلاء الرجال منذ أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا ما اتفق عليه ، وعرفه ، كل من عاش مع المجاهدين خلال أيام حرب التحرير .

انفجرت بعض قنابل المدفعية في الساعة (٢٢٠٠) وقد تساقطت في مقبرة (تيغرين) . وتطايرت في الهواء ثم تناثرت في كل مكان كميات من الحجارة ، وجذور الأشجار ، مختلطة بقطع من الهياكل البشرية . وقال الرقيب : « إنها قنابل مدفعية من عيار ـ ١٠٥ مم ـ تطلقها بطاريات العدو المتربصة في معسكر الاستعماريين في ثكنة (علي ايفيل) .

توجهت إلى المسجد (الجامع) الواقع في وسط القرية ، ومعي (عزوز) رفيق دراستي في السابق ، والذي كان يكبرني ثلاثة أعوام ، ويعمل مسبلاً ـ نصيراً ـ لقوات جيش التحرير . وقلت وأنا أخاطب (عزوز) : « لقد طلب إلي الجرحى تزويدهم بالكتب ، لإملاء وقت فراغهم ، ذلك لأنهم يعانون كثيراً من الملل والضجر خلال إقامتهم في المستوصف » ووعدني (عزوز) بأن يقدم لي كل ما لديه من الكتب والمجلات . وفجأة ، عاد القصف المدفعي العنيف ليقطع علينا حديثنا ، فقفزنا خارجاً لنستوضح جلية الأمر . وتبين لنا بأنه ما من قذيفة سقطت على المنازل ، وما من أحد أصيب بضرر أو أذى . وكل ما حدث هوسقوط حوالي أربعين قنبلة في المقبرة ، حفرت قبور المقبرة حتى الأعماق ، وقال لي (عزوز) : « يظهر أن الدور قد جاء

في هذه الليلة على الأموات ! » وأجبته : « لعل الأفرنسيين قد أرادوا أن يعرف الأموات بدورهم ما يحدث على سطح الأرض » . وسألني (عزوز) : « ماذا يعني هذا القصف في اعتقادك ؟ » .

وأجبته : « لعله خطأ في الرمي ! » .

ـ « هل تريد القول بأنهم اكتشفوا شيئاً آخر ، فوجهوا نيرانهم إليه ؟ » .

ـ « في رأيي ـ إنه من غير الطبيعي ، ومن غير المحتمل ، أن يوجه الافرنسيون قنابلهم إلى المقبرة » .

ـ « هذا يعني بأن قواتهم ستأتي غداً لملاقاتنا » قالها (عزوز) بنبرات ثابتة تنم عن ثقته بصحة استنتاجه . وقلت له : « هيا بنا إلى الملجأ لمعرفة ما إذا كانت قد وصلتهم معلومات جديدة » .

صادفتنا خلال انتقالنا من المسجد ـ الجامع ـ إلى الملجأ ، وخلال عبور الشارع الرئيسي للقرية ، مجموعة من دوريات المجاهدين المتتالية ، وكنا في كل مرة نضطر لتبادل كلمات التعارف .

كان بيت (المجاهدين) يقع عند مدخل القرية . وهو عبارة عن دار ذات جدران حجرية مرتفعة قليلاً ، مع سقف خشبي يغطيه القرميد ، ويعود بناؤه إلى أقدم من مائة سنة . وكانت هذه الدار تتشابه مع بقية دور القرية ، والتي تشبه بدورها دور القرى الأخرى المنتشرة في هذا الاقليم . ولدى الوصول إلى أمام باب الدار ، اعترضنا الخفير بقوله : « من تكونان ؟ » .

وأجابه (عزوز) : **الإسلام** . ورد عليه الخفير : **ديني** .

كانت كلمات التعارف لهذه الليلة هي : « **الإسلام ـ ديني** » .

عندما دخلنا الدار ، وجدنا أن المجاهدين كانوا على وشك الخروج الى جهة ما . وصافحت العريفين (إسماعيل) و (محمد

عرب) اللذين كنت أعرفهما معرفة جيدة ، وقلت للعريف (إسماعيل) :

ـ « كنت أعتقد بأنكم ستقضون الليل معنا » . وأجابني (إسماعيل) بقوله :

ـ «تعرف بأن البقاء أو الخروج في ظروف الحرب التي نعيشها غير مرتبط برغبتنا ، وانما هو مرتبط بالظروف ـ ولم يعد حتى الأموات ـ الآن ـ على ثقة بأنهم سيبقون في أماكنهم » .

كان الاستعماريون مشغولين بالقتال العنيف الذي مضت عليه ثلاثة أيام في منطقة (عز اليقين) . وقد أمكن لمجاهدي (تيفرين) في هذا اليوم إحصاء وعد أكثر من ستين طائرة مقاتلة حلقت فوق ميدان المعركة ، واشتركت فيها . وقيل لي بأن قواتهم قد اشتبكت مع عدد من كتائب المجاهدين الذين وصلوا حديثاً من تونس ، والذين كان تدريبهم جيداً وتسليحهم جيداً .

هذا ما قلته للعريف (إسماعيل) والذي أجابني « أجل ، هذا صحيح ، ويفرض الموقف بصورة حتمية فتح المجال أمام معركة أخرى في أي مكان لتشتيت قوات الاستعماريين المشتبكين في (عز اليقين) وتخفيف الضغط الذي تلقيه القوات الاستعمارية بثقلها على المجاهدين هناك » .

كان العريف (سالم) في هذه اللحظة يعقد اجتماعاً مع العريف (عياشي) ومع قائد الكتيبة الثالثة . فتابعنا حديثنا . وكان العريف (إسماعيل) يحمل رشاشاً خفيفاً أمريكي الصنع (تومسون) . وقلت له : « إنه سلاح رائع ـ هذا الرشاش » ثم تابعت مستوضحاً وأنا أشير إلى سلاح كان يستريح أرضاً مستنداً إلى قائمتين ـ ساقين ـ

وقلت له : « وما اسم هذا السلاح ؟ » وأجابني (محمد عرب) بقوله : « هذا رشاش روسي ـ ٣٠ ، وهو يعمل بمخزن أسطواني يتسع لخمسين طلقة . ويمكن بواسطته التعامل مع الطائرات المحلقة على ارتفاع منخفض » . وقال (عزوز) متابعاً الحديث : « إن التعامل مع الطائرات بات أمراً ضرورياً ، فلولا الدعم الجوي لما استطاع الاستعماريون الوصول إلى هذه الجبال » . وكان (محمد عرب) يحمل رشاشاً خفيفاً ايطالي الصنع ، من نموذج (بريتا) . وقلت متسائلاً :« وما هو الفارق المميز بين التومسون و ـ البريتا ـ ؟ » .

وقال إسماعيل : « إنه كالفارق المميز بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا » . وانفجر الجميع ضاحكين لهذه المقارنة . وقال (حسين) معلقاً : « أما أنا ، فأفضل قتال الافرنسيين بأسلحتهم الخاصة » . وسألته : « وما هو نوع البارودة التي تحملها ؟ » فأجابني : « إنها بارودة ـ ماس ٤٩ ـ ٥٦ ـ أرسلها الاستعماريون إلى الجزائر لقتل الجزائريين . غير أن هذه البارودة انتقلت ـ مع غيرها من الأسلحة ـ إلى معسكرنا منذ شهور عديدة . ولكن قل لي : هل جئت للتعرف على أسلحة جيش التحرير الوطني ؟ ، ويظهر لي من أسئلتك أنك جديد على هذه الأمور » . وأجبته : « كلا يا أخي ! فأنا أعيش مع المجاهدين منذ شهر شباط ـ فبراير ـ ١٩٥٥ ، غير أنني لم أتعرف إلا على أولئك المسلحين ببواريد الصيد ، وبعض المسدسات الرشاشة . وكم هو ممتع لنا أن نرى المجموعات الصغرى التي كانت مسلحة ببواريد الصيد وقد تحولت إلى كتائب مسلحة بالبواريد الحربية والأسلحة الحديثة . وهذا هو سبب طرحي أسئلة كثيرة عن أنواع الأسلحة الحربية . وبالمناسبة ، فهل تفضل أنت هذه البارودة على أي سلاح حربي آخر ؟ » .

وقال لي : « إنها سلاح رائع ، ثم إن هناك شعوراً بالارتياح والرضى ، وأنا أرمي الاستعماريين الفرنسيين واسقطهم بأسلحتهم وبرصاصهم . ولهذه البارودة بالذات ذكرى عزيزة جداً على نفسي ، فلقد التقطتها من فوق جثة ضابط افرنسي ، خلال الهجوم العام الذي جرى في ٨ أيار ـ مايو ١٩٥٧ » .

كان المجاهدون ، خلال حرب التحرير الوطنية ، ينظمون هجمات عامة ضد مواقع الأعداء وقواتهم في الذكرى السنوية لبعض الأحداث التاريخية الهامة في حياة الجزائر ، مثل : (ذكرى ٥ تموز ـ يوليو ـ ١٩٣٠ ـ احتلال فرنسا للجزائر) و (٨ أيار ـ مايو ١٩٤٥ ذكرى المذبحة الرهيبة التي نفذها الافرنسيون وذهب ضحيتها ٤٥ ألف مواطن جزائري) و (الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٥٤ ـ ذكرى تفجير حرب التحرير » وكانت كتائب جيش التحرير الثلاث ـ هنا ـ قد أعادت تسلحها بأسلحة حديثة وصلتها من تونس . شأنها في ذلك شأن كل كتائب جيش التحرير . ونظراً لتنوع مصادر التسلح ، فلم يكن من الغريب أن تجد في أيدي المجاهدين بواريد بكليزية ، اصطلحوا على تسميتها (بالاعشاري) . وبواريد أمريكية من نوع (غاراس) . وكذلك رشاشات (ف . م . بارت) . بالإضافة إلى أسلحة ألمانية من نوع (الموزر) التي كان المجاهدون يستخدمونها على نطاق واسع ، ويفضلونها على سواها . وكان لدى كل كتيبة من هذه الكتائب مدفع (هاون ٦٠ مم) ، كما كان لدى كل فصيلة رشاش خفيف (ف . م) . ولنتذكر أن كل كتيبة من كتائب جيش التحرير كانت مكونة من (١٢٠) مجاهداً ـ أي ما يعادل سرية من سرايا تنظيمات الجيوش الأخرى ـ .

انتهى اجتماع قادة الكتائب الثلاث ، وتوجه كل واحد منهم إلى

مركزه . واجتمع الرقيب (سالم) على الفور بمسبلي القرية في (تيفرين) ووجه إليهم نصائحه وتعليماته : « إجمعوا النساء والأطفال في مكان مأمون ، وليكن منزلاً قوي البنيان من المنازل الواقعة في وسط القرية . وأبلغوا الشبان والرجال ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين سنة بأن يغادروا القطاع قبل الساعة الثانية فجراً . وخذوا معكم مواد تموينية كافية ، واخرجوا معهم » . وأعطيت هذه التعليمات ذاتها إلى القرويين في قريتي (بني وحدان) و (حمدة) .

علمنا بعد ذلك بأن منظمات الاستخبارات في جبهة التحرير الوطني ، أرسلت إنذاراً إلى قادة القوات في جيش التحرير الوطني ، أعلمتهم فيه أن القوات الاستعمارية المتمركزة في (علي ايفيل) ستقوم بإحدى عملياتها الرتيبة ـ الروتينية ـ لتمشيط (منطقة تيفرين) في يوم ٢٤ ـ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ . فأسرع القادة لاتخاذ الترتيبات الضرورية لمجابهة قوات هذه العملية .

قال لي (عزوز) ونحن نخرج من الاجتماع : هل تعرف ؟ وأجبته : أعرف ماذا ؟ فقال لي : « ستطير الزنابير غداً بالخلايا » وأجبته : « ولكنني لم أفهم شيئاً مما قلته » . فعاد ، وقال لي : « غداً ستفهم كل شيء . أما الآن ، فتعال لأعطيك الكتب ، فالوقت ضيق ، وليس أمامنا متسع لإضاعته » .

رافقت (عزوز) إلى منزله ، وسلمني الكتب . وكانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً ، فعدت إلى منزلي ، فوجدت في انتظاري عمي ـ والد زوجتي ، وهو شيخ من خريجي جامع الزيتونة ، ويعمل مسبلاً ـ نصيراً ـ من مسبلي الثورة . وسألني : أين كنت ؟ لقد بحثت عنك في كل مكان ؟ . فأجبته : لقد كنت في الملجأ . وعندها

أعطاني قطعة من الخبز وقليلاً من التين المجفف . وزجاجة من زيت الزيتون . وزجاجة من الماء . فوضعت الجميع في مزودتي . ومضينا في طريقنا لمغادرة قرية (تيفرين) . وفي هذا الوقت ذاته كان المجاهدون يتجهون نحو تلال (تيزي - غمدان) . وتسلقنا درباً ضيقاً - لا يسلكه إلا الماعز - يصل إلى قمة جبل (برشيش) المرتفع . وكان باستطاعتنا من هذا المكان الاشراف على القطاع بكامله . فإذا ما بقي الموقف هادئاً ، كان بإمكاننا العودة إلى القرية ، أما إذا ما كان الأمر على العكس من ذلك ، فإنه باستطاعتنا البحث عن ملجأ مأمون في الغابة يضمن لنا إنقاذ حياتنا . وكان جبل (برشيش) يقع على بعد أربعة كيلومترات تقريباً ، إلى الجنوب من (تيزي - غمدان) . وكان قادة الكتائب قد تدارسوا أثناء اجتماعهم ، ردود فعل العدو المحتملة تجاه كمين (تيزي - غمدان) وفقاً للمعطيات التالية :

أ - إذا جاءت قوة الاستعماريين من (علي إيفيل) فإنها ستصطدم بكمين (تيزي - غمدان) وستكون القوة المتمركزة في (بوجليل) هي أول قوة يجب عليها أن تسرع لنجدة القوة الاستعمارية . وعلى هذا يجب على كتيبة المجاهدين المتمركزة في (بني وحدان) إقامة كمين لقوات (النجدة) عند أبواب مركز (بوجليل) .

ب - إذا جاءت قوة الاستعماريين من (بوجليل) فإنها ستصطدم بقوة الكمين الذي ينتظرها . وستكون أقرب قوة ستهرع لنجدتها هي القوة الافرنسية المتمركزة في محطة (بني منصور) . وهنا سيكون من واجب كتيبة المجاهدين المتمركزة في (حمدة) التصدي لها ، وإقفال الطريق في وجهها . وذلك بتنظيم كمين على الطريق الممتد بين (بني منصور) و (بوجليل) .

ودارت المعارك طبقاً لما تم توقعه ، وافتراضه .

تميز موقع (تيزي - غمدان) بطبيعته الصعبة ، حيث الأرض المتضرسة والصخرية والمكسوة بالغابات . ويمر الطريق هنا بين هضبة ، وبين مجنبة جبل مقابل للهضبة ، مما يشكل مضيقاً أشبه بالبوابة ، ولهذا السبب أطلق عليه اسم (تيزي - غمدان) . وكان الطرف الجبلي يرتفع مجاوراً للطريق على شكل جدار قائم من الصخور التي استخدمها الفلاحون لإقامة تخم يحمون به حقول التين وكروم الزيتون .

احتل الرقيب (سالم) وجنده المجاهدون مواقعهم القتالية على امتداد هذا الجدار الطويل ، وتمركزوا في الحفر ، وحول الذرى المجاورة له . وقد تجنبوا التمركز على الهضبة المقابلة لأنها كانت محرومة من المؤخرة المستورة والتي يمكن لها تأمين الانسحاب وحمايته ، إذا ما تطلب الأمر ذلك .

بدأت طيور الحجل تغريدها ، وهذا يعني أن الموعد مع الفجر بات قريباً . كانت السماء صافية تزينها النجوم المتلألئة ، وظلمة الليل لا زالت قاتمة . ونظر أحد المجاهدين الى ميناء ساعته المضيء ، فوجد أن عقاربها تشير إلى الرابعة صباحاً . وفي هذه اللحظة ، تمزق السكون بهدير القافلة الافرنسية التي ضمت عربات نقل الجند الكبيرة (ج . م . س .) والعربات نصف المزنجرة (هاف - تراك) والمدرعات ، والتي كانت تقترب من (تيزي - غمدان) . وكان المجاهدون قد انتهوا من حفر الحفر على أرض الطريق ، وزرعها بالألغام . وقد وضعت هذه الألغام بطريقة تسمح بتدمير عدد من الآليات ، والتي يعتبر تدميرها هو الشارة المتفق عليها للبدء بالهجوم . وانفجرت الألغام عندما دخلت آخر مركبة من

مركبات العدو منطقة الكمين . وعندها فتحت كافة الأسلحة نيرانها ـ من كل العيارات ـ على قوات العدو . لقد كان المجاهدون يمسكون بقنابلهم ، ويضعون أصابعهم على الزناد ، فما إن بدأت المعركة حتى أفرغ المجاهدون كافة ما تحتويه مخازن أسلحتهم ، وقذفوا قنابلهم دفعة واحدة على قافلة العدو .

بوغت جند العدو مباغتة كاملة ، وأخذوا في القفز من مركباتهم ، أو الوقوع منها ، والانبطاح أرضاً لاستخدام أسلحتهم ضد المجاهدين ، وكان بعضهم قد تملكه الرعب ، فتوجه على غير هدى نحو الغابة حيث كان ينتظرهم الموت المؤكد . ولجأ عدد من الجنود إلى أسفل عرباتهم يحتمون بها ، ومنهم من أخذ في العدو ، في كل اتجاه . وكان المجاهدون يسمعون من مواقعهم ، الأوامر التي كان يصدرها الرتباء والضباط والتي كان يختلط بعضها ببعض . كما كانوا يسمعون الشتائم البذيئة والقذرة والتي كان يتبادلها جند العدو . وحاول بعض جند العدو ، الرجوع على أعقابهم ، وأخذوا في العدو والقفز من فوق الجثث المتراكمة فوق أرض الطريق ، غير أن رشات جديدة من الأسلحة كانت تسقطهم وتحصدهم حصداً . وساد الذعر والهلع على جند العدو ، فأخذوا في البحث عن أي ملجأ يحميهم ، ولم يكن هناك غير الغابة طريقاً لهم . ولكن الغابة لم تكن في قبضتهم . فكانت مجزرة حقيقية ، خيم فيها الموت الزؤام . وهرب عدد من جند العدو في اتجاه (علي إيفيل) .

دفع المجاهدون مجموعات صغرى لاجتياح ميدان المعركة ، بهدف جمع الغنائم ، وأمكن جمع كمية ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات العسكرية . وترك الاستعماريون فوق أرض المعركة قتلاهم وجرحاهم الذين باتوا عاجزين عن التحرك ، فكانوا

يصرخون من الألم ، ويستعطفون المجاهدين ويتوسلون إليهم حتى لا يجهزوا عليهم . فكان المجاهدون يردون عليهم : « **نحن لسنا جبناء حتى نجهز على الجرحى المحرومين من كل وسائل الدفاع . كما أننا نفتقر إلى التجهيزات الطبية التي تمكننا من إجراء الاسعافات الأولية لكم . لكن قوات دعمكم لن تتأخر عن الوصول إليكم لإنقاذكم** » . وصرخ أحد الجرحى : « أبـ . . . تاه ، أمـ . . . اه ، لا أريد أن أموت » . فيما كان جريح آخر يصرخ : « عاش الثوار » .

أفاد المجاهدون من فترة الهدوء التي أعقبت المعركة ، لإخلاء جرحاهم الثلاثة ، ودفن أول شهيد سقط في معركة هذا اليوم .

* * *

كانت القوات الاستعمارية المتمركزة في (بو جليل) قد غادرت قلاعها الحصينة في هذه الفترة ، بهدف الهجوم على مؤخرة المجاهدين في (تيزي ـ غمدان) . غير أن هذه القوات الاستعمارية لم تبتعد عن قاعدتها أكثر من مئات الأمتار حتى وقعت في كمين أكثر عنفاً ، وأكثر قتلاً من كمين (تيزي ـ غمدان) . ولم تكتف كتيبة (العياشي) هنا بجمع الأسلحة والذخائر والمعدات العسكرية فقط وإنما أخذت أيضاً ثلاثة أسرى من بينهم ضابط برتبة ملازم يعمل في الاستخبارات ـ وفي مكتب اشتهر بتعذيب المواطنين الجزائريين والتنكيل بهم هو مكتب بو جليل ـ وقد قام المجاهدون بعرضه في المساء . وبعد انتهاء القتال ، على مواطني الاقليم وهو معصوب العينين ، ومقيد اليدين وراء ظهره .

* * *

تلقت القوات الاستعمارية المتمركزة في محطة (بني منصور)

أمراً بالتوجه إلى ميدان ، فوقعت هذه القوات بدورها في كمين - في ضواحي مقطع الحجارة الكلسية . وكان حظ القوات الاستعمارية هنا أفضل من حظ القوات السابقة ، إذ تمكنت من المحافظة على مواقعها ، ومنعت المجاهدين من جمع الأسلحة ، ولكن خسائرها في الأرواح بقيت ، بالرغم من ذلك ، كبيرة وفادحة .

* * *

أصبح الوقت على الحد الفاصل بين الليل والنهار ، فكان الشرق أقرب إلى ضوء النهار ، في حين بقي الغرب أقرب إلى ظلمة الليل ، ووصلت قوات دعم ضخمة من جهة (علي إيفيل) فاستؤنف الرمي في (تيزي - غمدان) بوتيرة متصاعدة . ووصلت في الوقت ذاته أربع طائرات من طراز (ت - ٦) مجهزة بمضخمات للصوت (مكبرات) حتى تثير ضجيجاً مرعباً . وقال بعض الجنود من الذين اشتركوا في الحرب العالمية الثانية (**١٩٣٩ - ١٩٤٥**) بأن طائرة (ت - ٦) تهدر صاخبة مثلها كمثل طائرات (الشتوكا) الألمانية . وكان ضوء النهار قد ارتفع ساطعاً الآن ، وامتد القتال على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من الشرق إلى الغرب .

كان بعض المدنيين والمسبلين قد انتشروا على قمة جبل (برشيش) . وأمامهم ، غير بعيد عنهم ، تمركزت فصيلة مسلحة برشاش (برن) علاوة على البواريد الفردية . واقترب أحد مجاهدي الفصيلة من المدنيين ، ونصحهم بمغادرة مركزهم ، وقال لهم : « قد يكون من الأفضل لكم الخروج من هنا ، إذ من المحتمل جداً أن يحاول جند العدو احتلال هذه القمة حتى يستطيع تطويق منطقة القتال » . وقام هؤلاء المدنيون بتقديم الخبز والتين المجفف والزيت والماء وكل ما يحملونه من الطعام ، لمجاهديهم البواسل ، وهم

يبتهلون الله لهم : لينصركم الله ، كان الله معكم . وأجابهم المجاهدون : شكراً ! شكراً ! صحة ! صحة ! .

قرر المدنيون والمسبلون الانتقال إلى قمة (غار مالا) التي تتربع في أعلى جبل يقع على بعد ثلاثة كيلومترات ـ خط مستقيم ـ من (برشيش) . وعلى بعد (٧ ـ ٨) كيلو مترات من (تيزي ـ غمدان) .

زجت القيادة الاستعمارية في هجومها المضاد بقوات ضخمة ، شاركت فيها (٣) طائرات من نموذج (بوسارد) . و (١٢) طائرة من نموذج (ب ـ ٤٧) و (١٢) طائرة من نموذج (ب ـ ٢٦) . وقد وصلت هذه الطائرات كلها في وقت واحد . وكانت طائرات (ب ـ ٢٦) مسلحة بالرشاشات الثقيلة والقنابل ، فأخذت في استخدام رشاشاتها وقذف قنابلها على مواقع المجاهدين المنتشرين على مقربة من (بو جليل) ومقطع الحجارة الكلسية ، ومواقع المجاهدين على مرتفعات (تيزي ـ غمدان) . وبلغ مجموع عدد الطائرات (٣٠) طائرة . بالإضافة إلى عشر طائرات عمودية ـ هيليكوبتر ـ منها (٦) طائرات نموذج (بانانا) كانت تعمل جيئة وذهاباً بين مواقع القتال ، وبين القواعد العسكرية في الاقليم . وكانت (تيزي ـ غمدان) منيعة على نيران العدو بسبب طبيعة أرضها الصخرية ، وبسبب ما يتوافر لها من الغابات .

كانت معركة اليوم من المعارك الصعبة ، القاسية .

صعبة ، لأنه لم يكن باستطاعة المجاهدين الإسراف في استخدام الذخائر على نحو ما كان يفعل أعداؤ هم الذين كانوا ينفقون ذخائرهم دون حدود أو قيود .

وصعبة ، لأنه كان على المجاهدين الذين لا يتجاوز عددهم (٣٥٠) مجاهداً ، مجابهة قوات متفوقة بعددها وبوسائطها القتالية تفوقاً لا يمكن مقارنته . فمقابل الهاون (٦٠ مم) ورشاش (برن) و (٣٠) رشاشاً روسياً . كانت هناك طائرات (ب ـ ٤٧) و (ب ـ ٢٦) ومدرعات ومدفعية ، وكل ما كانت تحفل به ترسانة حلف شمال الأطلسي من ضروب الأسلحة المتنوعة ووسائط القتال المتباينة . وبالرغم من ذلك ، فقد بقي المجاهدون هم الأقوى ، لأنهم يمتلكون الأسلحة الأكثر فاعلية من تلك التي يمتلكها الاستعماريون : كان المجاهدون يحملون سلاح النصر ، والإيمان العميق ، وحب الوطن . ولذلك كانوا هم الذين يحبطون باستمرار كل المخططات الجهنمة ـ الشيطانية ـ التي يضعها دهاقنة الإستعماريين ، وأفضل قادتهم الإستراتيجيين .

كان من عادة الاستعماريين الافرنسيين افتتاح عملياتهم بقصف عنيف تقوم به الطائرات ضد مواقع المجاهدين ، وذلك قبل زج القوات البرية من مشاة ومدرعات ومدفعية . وقد قال لنا المجاهدون بأن طائرات (ب ـ ٤٧) وطائرات (الميسترال) لا تميز في قصفها بين الرجال الذين يرتدون الألبسة القاتمة وبين جذوع الأشجار ، أو الغياض المتفرقة ، وذلك بسبب السرعة الكبيرة التي تحلق بها هذه الطائرات . ولهذا ، فقد كان من المحال عليها إجراء قصف دقيق لمواقع المجاهدين المنتشرين فوق أرض شديدة التضاريس ، وبمسافات كافية تفصل كل مجاهد عن إخوته بقية المجاهدين ، وهو يتمركز في ملجأ تحت الأشجار ، أو بين الصخور .

وكانت طائرات (بوسارد) هي التي ترمي الشهب الدخانية لتحدد لتلك الطائرات أهدافها . ولكن طائرات (بوسارد) هذه باتت

مرغمة على التحليق وهي مرتفعة فوق سطح الأرض بمسافات عالية ، منذ أن امتلك المجاهدون الرشاشات (الخفيفة منها والثقيلة) والتي برهنت على فاعليتها في إسقاط هذه الطائرات . ومقابل ذلك كانت طائرات (ب ـ ٢٦) و (ت ـ ٦) شديدة التأثير ، كبيرة الخطر ، على مجاهدي الجيش الذين يفتقرون للأسلحة المضادة للطائرات والقادرة على التعامل مع الطائرات الأقل سرعة ، والتي كان باستطاعتها إحكام رماياتها على مجموعات الرجال أثناء تحركهم .

باختصار ، استمر دوي القصف كالرعد ، واستمر الرمي برشاشات الطائرات ، فشمل كل الإقليم الذي بات يهتز بعنف ، حتى وصلت تلك الاهتزازات إلى أولئك الذين وقفوا على جبل (غار ـ مالا) والذين شعروا بالأرض وهي تميد من تحتهم . وكانت قنابل النابالم الضخمة التي قذفتها طائرات (ب ـ ٢٦) هي التي أثارت هذا النوع من الاهتزازات القوية .

بلغت الساعة الحادية عشرة صباحاً (١١٠٠) ولا زال المجاهدون يحتفظون بمواقعهم على هضاب (تيزي ـ غمدان) . وفي كافة المواقع الأخرى .

وهبط ضباب أبيض كثيف على قمم جبل (جرجرة) فغطى منطقة القتال ، وغلفها بحجاب سميك . وكان الواقفون على جبل غار مالا) ينظرون إلى سحب الغيوم التي تهبط من تحت أقدامهم بيضاء كالثلج ، وهتف كل سكان الإقليم لقدرة الله التي أرسلت الغيم أمناً وسلاماً على المجاهدين ، ليحميهم من قصف طيران أعدائهم .

لم يعد باستطاعة طائرات (ب ٤٧) و (ت ٦) متابعة تنفيذ عملياتها ، فاضطرت للعودة إلى قواعدها . بينما تابعت طائرات (ب ـ

٢٦) تحليقها فوق الضباب . واستمرت في قذف قنابلها بصورة عمياء ، وعلى غير هدى .

أفاد المجاهدون كثيراً من هذا الضباب ، فنظموا هجمات ضد مجموعات العدو المتفرقة والمنعزلة . واستعادوا المبادأة التي كانوا يمسكون بها في الصباح، ثم جاء القصف الجوي فكاد ينتزعها منهم: وخسر العدو كافة المميزات التي حصل عليها بفضل النيران الكثيفة للطائرات . وجال في خاطر الرقيب (محمد) سؤال لم يلبث أن طرحه ببراءة : « لماذا يهرب جند العدو بالرغم من أنهم هم الأكثر عدداً ، والأفضل تسليحاً وتجهيزاً ؟ » .

وأجابه الرقيب (العياشي) : « لأننا مجاهدون في سبيل الله ، نؤمن به وعليه نتوكل ، ولأننا نقاتل على أرضنا ، ولأننا على استعداد لبذل دمنا عن طيب خاطر ، فوق هذه الأرض الطيبة ، أرض وطننا الأم . لأننا نقاتل ونحن على قناعة بأنه ليس لحياتنا أية قيمة إلا إذا تحررت بلادنا تحرراً كاملاً ، وخالياً من كل قيد أو شرط . ومقابل ذلك، فإنهم يخوضون معاركهم تنفيذاً للأوامر التي يخطها لهم قادتهم العميان . إنهم يعرفون أنهم يقاتلون من أجل قضية خاسرة ، محكوم عليها مسبقاً بالفشل . ولهذا السبب فإنهم سرعان ما يبحثون عن طريق الفرار . إنهم يختارون باستمرار أضخم الوسائط وأقواها من أجل مجابهتنا ، ويزجون ضدنا بالأسلحة التي لا نمتلك الوسائط ضدها . . غير أنهم وهم يفرون من ميادين القتال ، يحاولون الظهور بمظهر الأبطال عندما يواجهون المدنيين المحرومين من كل وسائط الدفاع ، فيعملون على التضحية بهم ، وإبادتهم ، في كافة القرى التي يمرون بها . آه يا أخي محمد ، كم هو أمر مخجل أن يترك هؤلاء على هواهم ليسحقوا شعبنا طوال (١٢٧) عاماً » هيا إلى الأمام ! .

وأصدر الرقيب (العياشي) أمره إلى عدد من الجماعات بالانقضاض على أقرب القوات الإستعمارية إليهم . وأطلق المجاهدون صيحتهم بصوت واحد (الله أكبر) . وأسندوا مسدساتهم الرشاشة إلى (الورك) وضغطت أصابعهم على الزناد ، فأفرغوا محتوى مخازن أسلحتهم ، وهم يوجهون نيرانهم بدقة وإحكام . واختلط الأمر في وسط الضباب ، فكان من المحال التمييز بين المجاهد وبين عدوه الإفرنسي . وارتفع صوت المجاهدين وهم ينشدون نشيدهم الوطني (جزائرنا) . ورددت الوهاد والمنحدرات ، السهول والجبال ، مع المجاهدين (جزائرنا) . وغنت معهم نشيدهم .

عاد القتال عنيفاً ، ضارياً ، في الساعة (١٤٣٠) ـ الثانية والنصف من بعد الظهر ـ. فقد أخذ الضباب في الاضمحلال شيئاً فشيئاً . وعادت الطائرات وهي تحلق كالعقبان تبحث عن طرائدها . وقد حلت طائرات (الميسترال) في هذه المرة محل طائرات (ب ـ ٤٧) وهي طائرات مسلحة بالمدافع وبالرشاشات الثقيلة . وكانت قنابل مدافع هذه الطائرات شديدة الحساسية من أي احتكاك ، حتى لو كان هذا الاحتكاك بأوراق الأشجار . ولما كانت الوحدات المتصارعة على أرض المعركة قريبة بعضها جداً من بعض . وقد نزلت القنابل على الوحدات الإفرنسية ذاتها . « وعلى سبيل المثال فقد جرح المجاهد ساقي شعبان وهو من قرية ـ ولاساصي ـ بينما كان أسيراً في قبضة الإفرنسيين ، وقد أصابته شظية في فخذه من إحدى رمايات طائرة ب ـ ٢٦ أثناء وجوده بين الجنود الإفرنسيين في (تيزي غمدان) وأصابت معه عدداً من الإفرنسيين » .

شاهد المدنيون والمسبلون . من أماكنهم في قمة (غار مالا)

شدة القتال وضراوته ، فقرروا التوجه إلى (سيدي مسعود) حيث توجد (زاوية) في وسط الغابة . أقيم بجوارها مركز للعناية بالجرحى الذين يتم إخلاؤ هم ، وذلك لمديد العون ، ومساعدة المجاهدين فيما قد يحتاجونه . وعلى هذا ، غادر المدنيون والمسبلون (غار مالا) وأخذوا في التنقل من شجرة إلى شجرة تنفيذاً لتعليمات المجاهدين ، وذلك فراراً من طائرات (ت ٦) التي كانت تحلق فوق رؤوسهم ، وهي تعرف تماماً أن كل هذه الجبال مأهولة بأعدائها . وقد استغرقت الرحلة إلى (سيدي مسعود) زهاء نصف ساعة . وهناك ، تم اللقاء بين الجميع .

تمدد عشرات الجرحى تحت الأشجار ـ على مقربة من الزاوية ـ بعضهم يئن من الألم ، وآخرون يصلون أو يقرؤون القرآن . في حين كان آخرون يصنعون محفات ـ ناقلات ـ لحمل الجرحى مستخدمين في ذلك أغصان الأشجار ، حتى يتم لهم بواسطتها إخلاء الجرحى وحملهم عندما يهبط ظلام الليل ، لنقلهم إلى المستوصفات السرية في الإقليم .

تسلح بعض المواطنين والمجاهدين والمسبلين بأسلحة الصيد ، وانتظموا في مجموعات مقاتلة انتشرت على هضاب (ميت شيخ) . ووزعوا الحراسة على مؤخرة المجاهدين لإجراء مراقبة حذرة هدفها الحيطة من أي تدخل قد يصدر عن معسكر الاستعماريين في (ولا سيدي إبراهيم) ضد مجاهدي (تيزي ـ غمدان) . غير أن القوات الإفرنسية في هذا المعسكر لم تقم بأي تحرك .

لم يكن في (سيدي مسعود) إلا ممرضان اثنان محرومين من كل الأدوية ، باستثناء بعض أنابيب حبوب الأسبيرين وزجاجات صغيرة من مادة الميكروكروم . ولم يكن هناك طبيب في (سيدي

مسعود) أو في الإقليم كله . وكان المجاهد (بلقاسم) مصاباً بتمزق في أضلاعه نجم عن انفجار قنبلة بعض الطائرات ، مما كان يتسبب له بآلام مفزعة . وكان لا بد من إيقاف النزف بأية طريقة ، فتم تقليم سيقان من نبات طبي يعرف باسم (أم الزير) يعرفه الفلاحون الجبليون جيداً ، ويتواصون باستخدامه منذ القدم ـ ويتناقلون معرفته جيلاً عن جيل في هذا الإقليم . وما أن تم تجريف الجروح بتلك العيدان حتى تم وضع أوراق النبات ذاته بإحكام على الجراح . ولم يبق إلا تضميد تلك الجراح بمساعدة قطع من النسيج من تلك المستخدمة في تغطية الأسرة (شرشف) .

وصل بعض المجاهدين من ميدان المعركة يحملون معهم الأخبار السيئة عن استشهاد المجاهد الرقيب (سالم) في الساعة (١٦٠٠) إثر إصابته بقنبلة طائرة (ب ـ ٢٦) بينما كان يقف على مرتفع يحمل اسم (الخطيبة من الصابون ـ إيسلي ناصابون) . وبكى إخوان الشهيد موته ، فما عرفوه إلا بطلاً شجاعاً ، ووطنياً متحمساً ، الأمر الذي أكسبه شهرة واسعة في وسط قوات جيش التحرير الوطني . زالت مخاوف المجاهدين وأنصارهم ـ مسبليهم ، إذ لم تحاول القوات الاستعمارية نقل المعارك من (تيزي غمدان) والقيام بتمشيط الإقليم ، أو محاولة تطويق المجاهدين . وانتهت المعارك في الساعة (١٩٠٠) ـ وعادت القوات الاستعمارية إلى ثكناتها مع غروب الشمس . وتجمعت كتائب المجاهدين في (سيدي مسعود) . ولم يكن المجاهدون قد طعموا شيئاً طوال النهار ، ولم يكن هناك في (سيدي مسعود) ما يسد رمقهم ، وكل ما كان هناك هو بعض أباريق القهوة التي تحتفظ بالحرارة (ترمس) وقليلاً من زجاجات حليب الماعز التي احتجزت للجرحى .

بلغت خسائر المجاهدين في معارك اليوم (٣٣) شهيداً و (٥٧) جريحاً ، كانت جراح (١٣) منهم خطيرة تمنعهم من الحركة . أما الآخرون فكان باستطاعتهم مرافقة المجاهدين والسير على أقدامهم .

تكبدت القوات الاستعمارية خسائر فادحة في الأرواح والأعتدة والتجهيزات القتالية . غير أنه كان من الصعب معرفة العدد الدقيق لقتلى العدو وجرحاه . وقتل ثمانية مدنيين في (تيفرين) بنتيجة القصف الجوي .

قامت نساء (تيفرين) بدفن شهداء المجاهدين الذين استشهدوا فوق ساحة الشرف ، وذلك في اليوم التالي للمعركة (يوم ٢٥ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٥٧) . وكانت المجاهدة (حماني عادادا) في طليعة تلك النسوة ، ومعروف أن السلطات الاستعمارية قد اعتقلت بعد ذلك المجاهدة (حماني) وبقيت في السجن حتى نهاية الحرب .

حمل الرجال جرحاهم على أكتافهم ، وغادروا (سيدي مسعود) . وتوجهوا إلى قرية تبعد ثلاثين كيلو متراً عن (تيفرين) .

٥ ـ معركة جبل (مُنَوَرْ)[*]

هجر المستوطنون الافرنسيون مزارعهم ليحولوها إلى مراكز عسكرية تنفيذاً للسياسة التي وضعها (لاكوست) في إطار تمشيط البلاد ـ مسحها ، وتقسيمها إلى مربعات (كادرياج) يتم التفتيش فيها مربعاً بعد الآخر . واتفقت قيادة المجاهدين في المركزين المتجاورين : (مسكرة) و(المحمدية) ـ أي المنطقة السادسة والمنطقة الرابعة من الولاية الخامسة ـ على تنسيق عملياتهما القتالية ـ العسكرية ـ والقيام بهجوم عام على المدن والقرى في المنطقتين ، في يوم واحد وهو يوم الأحد ، وذلك بهدف إثارة الذعر ، ونشر الرعب ، في وسط الاستعماريين ، حتى وهم في عقر ملاجئهم ، وكذلك إزعاج الاستعماريين في منتجعاتهم ومراكز لهوهم وعبثهم وأماكن الترفيه في وقت فراغهم مثل (المسارح ودور السينما والدسابح والدوائر الرسمية) .

وتنفيذاً لهذه العملية ، كان على الكتيبة الثالثة ـ في المنطقة

(*) للكاتب الجزائري (عبد القادر نهاري) وكان نقيباً ـ كابتن ـ في الولاية الخامسة خلال هذه المعركة ، ثم أصبح بعد الاستقلال مديراً لمستشفى (مسكرة) . والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S. N.EL MOUDJAHED, ALGER, 1977, P.P. 93- 98.

السادسة ـ بقيادة الملازم (سي محمود) أن تقوم بمجموعة من الهجمات في (مسكرة) وضواحيها : (تيغنيف) و(سونيس) و(البرج) و(هاشم) و(كاشرو) . وكان على السرية الثانية من المنطقة المذكورة القيام بالهجوم على (بوحنيفة) و(السيدة) و(شارييه) و(فرانشيتي) . أما في المنطقة الرابعة فكان على الملازم (سي رضوان) الهجوم على مدن (سيغ) و(المحمدية) و(روليزانا) وبقية القرى في الإقليم . واستطاعت قيادة التنسيق في جيش التحرير الوطني إنهاء الاستعدادات والتحضيرات خلال أسبوع واحد ، وتم التنفيذ يوم (٢٦ ـ آب ـ أوت ـ ١٩٥٧) في المنطقتين معاً .

وخاض المجاهدون معركتهم في (مسكرة) ضد عناصر الفرقة المدرعة الخامسة ، ودارت رحى الاشتباكات العنيفة في شوارع المدينة ، ولقي المجاهدون دعماً قوياً من الفدائيين المحليين ، في حين كانت النساء الجزائريات من أمهات المجاهدين وإخوتهن تطلقن الزغاريد ـ اليويو ـ من شرَف منازلهن أو من فوق الأسطحة فتستثر ن بزغاريدهن حماسة المجاهدين الذين أمكن لهم تكبيد قوات العدو خسائر فادحة . وقتل عدد كبير من عسكرييه ورجال شرطته . وأكدوا له أنه ما من قوة يمكن لها أن تنال من تصميم الشعب الجزائري وجيش تحريره الوطني .

قرر القادة الافرنسيون القيام بمحاولة تحدي جرأة جيش التحرير الوطني ، والقيام بهجوم على نطاق واسع . وجرت عملية المسح الأولى في (بني الشقران) في وقت كانت فيه قوات كتيبتي جيش التحرير (لا يزيد مجموع أفرادهما عن ٢٢٠ مجاهداً) قد اتفقتا على اللقاء في دوار (حبوشة) بجوار (جبل منرر) عند (سي عبد القادر ولد سي الحاج) والذي مات ميتة بطولية ، إذ أحرقه الافرنسيون حياً في

ملجئه بعد أن رفض نداء القوات الافرنسية التي كانت تطلب إليه ـ بمكبرات الصوت ـ أن يلقي سلاحه ويستسلم لها .

* * *

قامت قوات العدو بتنفيذ عملياتها الانتقامية الثانية في (جبل منور) وفي منطقة ملاصقة لأماكن تجمع المجاهدين وذلك في يوم (٥ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٧) حيث استطاعت قوات العدو تطويق المجاهدين . وهنا أظهر القائدان المسؤ ولان عن الكتيبتين (الملازم سي محمود) و(الملازم سي رضوان) كفاءتهما العالية ، وشجاعتهما النادرة في مواجهة خطر التطويق ، فقررا تلقين قوات العدو الاستعمارية درساً لا ينسى .

لم تكن طبيعة الأرض صالحة لعمل المجاهدين ، إذ كانت تشكل سهلاً بين (حبوشة) و(غريس) و(روليزانا) . ولم يكن أمام المجاهدين إلا خيار واحد هو الوصول بأي ثمن إلى الذروة المربعة الشكل في جبل منور . وأسندت قيادة الكتيبتين إلى (سي رضوان) نظراً لما يتوافر له من الخبرة القتالية حيث سبق له أن عمل ضابطاً في الجيش الافرنسي ، وتخرج من كلية فرنسا الحربية ، وخدم مرتين في الهند ـ الصينية ، عندما كانت الحرب على أشدها في ذلك الاقليم . وأصدر (سي رضوان) أمره إلى كافة المجاهدين بالانقضاض على قوات العدو ، والاستيلاء على خط الذرى في (جبل منور) . حتى يصبح بالإمكان السيطرة على الموقف ، والهيمنة على القوات الإفرنسية . وأمكن تحقيق هذا الجزء من العملية بنجاح رائع . واحتل المجاهدون مواقعهم على خط الذرى في الليل . وانتشر الخفراء والحرس ، واتخذت تدابير الحيطة الضرورية .

تردد في الصباح المبكر صوت أحد الخفراء ـ المراقبين ـ وهو يرسل إنذاره : «إنذار ! قافلة ضخمة من المدرعات تتقدم من اتجاه الغرب ـ اتجاه مسكرة» . ولم يخلص هذا الخفير من أداء واجبه ، حتى تردد صوت خفير آخر ـ في الاتجاه المقابل ـ وهو ينادي : «إنذار ! قافلة أخرى تتقدم من اتجاه الشرق ـ اتجاه روليزانا» . ومضت دقائق فقط ، وبدأت طائرات (ت ـ ٦) برمي نيران رشاشاتها على الجبل في محاولة للقضاء على المقاومة في بعض المناطق تمهيداً للسماح للطائرات العمودية (هيليكوبتر ـ بانانا) بانزال قواتها من المظليين واحتلال النقاط الاستراتيجية . وفهم الأخ المجاهد (سي رضوان) مناورة القادة العسكريين الافرنسيين : فأصدر أمره إلى المجاهدين بتركيب الحراب ، والتقدم صعداً فوق مجنبات الجبل . وتدخل الطيران بسرعة لإعاقة قوة مجاهدي جيش التحرير الوطني عن بلوغ المرتفعات الجبلية . وحدثت اشتباكات قاسية خسر فيها المجاهدون (١٧) شهيداً . غير أنهم نجحوا في الوصول إلى الخط الذي يريدون بلوغه . ودارت رحى صراع بطولي لمدة ساعتين ، غير أن المجاهدين استطاعوا في الساعة (٨٠٠) أن يسيطروا على الموقف سيطرة تامة ، وذلك على الرغم من تدخل الطيران ، وعلى الرغم أيضاً من القصف المدفعي الشديد . وعندئذ أصدر (سي رضوان) أوامره إلى كافة المجاهدين ، بحفر الحفر الفردية ، والاقتصاد في الذخائر . وعدم الرمي على جند العدو إلا عند اقترابهم لمسافة تنقص عن مائة متر عن مواقع المجاهدين .

حدد العدو بدقة مواقع المجاهدين على خط ذرى الجبل ، فعمل على إجراء عملية تطويق بعيدة ، وأحكم الحصار على كافة نقاط المرور . واستقدم قوات دعم من كافة المراكز العسكرية

القريبة ، فجاءت النجدات من : (تيارت) و(سيدة) و(روليزانا) و(مسكرة) و(وهران) . وأشيع أن قوات لحلف شمال الأطلسي ستقوم بالإنزال فوق السهول المحيطة (تيغنيف) و(روليزانا) .

قامت المدفعية الثقيلة للعدو بقصف مواقع المجاهدين لمدة ساعتين . وبدأ المشاة بعد ذلك هجومهم ، وأخذوا في تسلق مجنبات الجبل ، على اتجاه المجاهدين ، حيث الأرض مكشوفة وتسمح بقتال الالتحام ـ جسماً لجسم ـ مع المجاهدين . واستمر الصراع الدموي الرهيب لمدة ساعة كاملة ، وتمكن مجاهدو جيش التحرير الوطني من الدفاع عن مواقعهم بحزم ، ولم يتمكن ولو فصيل واحد من قوة الأعداء ، من الثبات أو الوصول إلى هدفه . وأخذت القوات الافرنسية بالتراجع ، وعندها تحولوا إلى أهداف رائعة لنيران رشاشات المجاهدين ، كما أخذ مهرة الرماة ـ القناصة ـ من المجاهدين ، بممارسة مهاراتهم ، فقتلوا عدداً كبيراً من جند العدو الذين حاولوا البقاء في مواقعهم على مجنبات الجبل وسفوحه .

أصيب العدو بالذعر ، فطلب إلى مدفعيته الثقيلة بمعاودة قصف مواقع المجاهدين . كما أصدر أوامره إلى قاعدته الجوية (سينيا ـ في وهران) وقاعدته الأخرى في (تييرسفيل ـ مسكرة) بالتدخل ضد مواقع المجاهدين . وانصبت حمم القنابل بكثافة رهيبة على الجبل حتى اعتقد الضباط الافرنسيون بأنه لم يبق للمجاهدين وجود فوق المنطقة . فأصدروا أوامرهم ، ودفعوا الوحدات للهجوم مرة ثانية . وقاوم المجاهدون مرة ثانية مقاومة ضارية تقدم القوات الافرنسية ، وتمسكوا ، بعناد مثير ، بمواقعهم على خط الذرى ، وحافظوا على مواقعهم وخنادقهم . وتوقف هجوم القوات الافرنسية ، وأخذ جنود الأعداء يتدافعون في محاولة ليأخذ كل واحد منهم الملجأ الأفضل

الذي يحميه . وسمع المجاهدون من مراكزهم صوت قائد إفرنسي يصيح بجنوده : «لتنحرف السرية السادسة قليلاً نحو اليمين» . ويدمدم الجنود الافرنسيون بصوت يسمعه المجاهدون : «أجل ! انحرفوا إلى اليمين قليلاً ، وأنت تبقى دائماً في الخلف ! » . وتأكد المجاهدون - مرة أخرى - بأن العدو قد أصيب بالإحباط على الرغم من تفوقه الساحق بالقوى والأسلحة والتجهيزات القتالية ، وأن الروح المعنوية لجنوده قد بلغت الحضيض . المهم في الأمر هو أن قوات العدو قد ابتعدت ، ملتجئة إلى الهضاب المجاورة لتلك التي يحتلها المجاهدون .

زج العدو الافرنسي سرباً من الطيران الذي قصف مواقع المجاهدين بقنابل النابالم . وأدرك الأخ المجاهد (سي رضوان) أن العدو بات يرفض الدخول مع المجاهدين في قتال جبهي ، وذلك على الرغم من تفوقه بالقوى والوسائط ، وأنه لجأ إلى الطيران حتى يبعد مجاهدي جيش التحرير الوطني عن مواقعهم القتالية . فأصدر (سي رضوان) أوامره إلى معاونيه بجمع المعلومات عن الموقف ، كما أمر المجاهدين بالاستعداد للرد على تدخل الطيران بكافة الأسلحة - الفردية - علاوة على الرشاشات الاجماعية . وبقي المجاهدون في حفرهم الفردية ، غير أن الحرارة اللاهبة ، والغبار الكثيف ، أثقلا على المجاهدين تنفسهم إلا بصعوبة . كما نفد الماء من المجاهدين . وتبين أن هناك مجاهدين اثنين قد استشهدا ، بالاضافة إلى أربعة جرحى ، وأضيف هؤلاء إلى السبعة عشر شهيداً الذين قضوا في معركة الصباح . وبقيت الروح المعنوية للمجاهدين عالية . فعاد (سي رضوان) وأصدر أمره من جديد بتشكيل سد ناري ضد الطائرات المغيرة .

بلغت حمى القتال ذروتها في الساعة (١٦٠٠) تقريباً . وقاوم المجاهدون ببطولة نادرة رمايات الطائرات ، وأمكن لهم إسقاط عدد منها . واحتفظ كل مجاهد بموقعه ، وحافظ على هدوئه والتحكم بأعصابه على الرغم من إصابة عدد من المجاهدين بقنابل النابالم ، واستشهاد بعضهم .

كان المستشار السياسي للكتيبة (الشهيد سي بلقاسم) يغادر حفرته في كل مرة ينجح فيها المجاهدون في إسقاط طائرة للعدو ، فيركع على ركبتيه ، ويتوجه إلى القبلة ـ الكعبة الشريفة ـ ويرفع رأسه إلى السماء مبتهلاً : الله أكبر . ولتحيا الجزائر ، وليسقط الاستعماريون ! .

استطاع مجاهدو الكتيبتين اختراق دائرة الحصار ، بعد نهار طويل من الصراع المرير . وحملوا على ظهورهم الجرحى الذين كان من بينهم البطل (سي رضوان) . واتجه رجال كتيبة المنطقة الرابعة نحو جبل (تيميكسي ـ الى الشرق من مسكره) . ورفع الملازم (سي محمود) قائد كتيبة المنطقة السادسة ، تقريره عن المعركة الى القيادة العامة لمنطقته . وقد جاء في هذا التقرير «كان لا بد من فك الاشتباك ـ وتكبدنا خسائر فادحة ـ غير أن خسائر العدو كانت كبيرة جداً . لقد أمكن تدمير هيبة العدو ، وإحباط روحه المعنوية . وإصابة قواته بالذعر . وهو يتابع أعماله الانتقامية ، ويقوم بأعمال المسح . وقد زج قواته في هجوم جديد إلى الشرق من الجبل ، في محاولة للوصول إلى موقع الكتيبة ـ جنوب روليزانا ـ وأسر الجرحى» .

ومضى يومان على معارك ذلك النهار الظافر ، عندما حقق العدو نجاحاً في اكتشاف مستوصف للمجاهدين يقع في السهل، عند دوار القنطرة ، حيث قرية (سيدي محمد بن عودة) . وكان هذا

المستوصف يضم عدداً من الجرحى ، بينهم المجاهد الملازم (سي رضوان) والذي كان مصاباً بحروق من نار قنابل النابالم .

ما إن علمت قيادة عمليات العدو بهذا الخبر حتى هتفت لما أحرزته من نصر : وأسرع ضباط القيادة العليا للجيش الافرنسي نحو المكان لرؤية هذا الملازم الشهير باسم (سي رضوان) والذي أحبط لهم مخططات عملياتهم في مقاطعته ، من خلال ما أحرزه من انتصارات عليهم في اشتباك المحمدية (بيريغو قديماً) في سنة ١٩٥٦ ، وفي معركة (براهما) وكمين (تيارت) ومعركة (أوارسنيس) . وكان الملازم (سي رضوان) قد نجح في إدخال المجاهدين إلى معسكر الجنود الافرنسيين في (بيريغو) وهم متنكرون في ثياب مفرزة من رجال الشرطة العسكرية الافرنسية . وبذلك استطاع المجاهدون استخدام نيران رشاشاتهم للرمي على المسرح والسينما وغيرهما . فنشروا الرعب في كل مكان ـ لاسيما في وسط المستوطنين الافرنسيين (الكولون) .

كان من بين الضباط القادة الذين جاؤوا لرؤية الملازم (سي رضوان) العقيد (غاسك) قائد الكتيبة (٢٠) من قوات المظليين المغاوير (كوماندو ـ باراشوتيست) ومعه ملازمه قاتل المدنيين (باسيلي) المكلف بعمل المكتب الثاني (الاستخبارات العسكرية) والذي أطلق على نفسه اسم (ابن عزيز) بهدف خداع المسلمين وتضليلهم . وكان هذا الضابط الافرنسي قد أظهر وحشية في تعامله مع أهالي (تيمازينا) وقتل بلؤم ونذالة (٥٢) مدنياً . وكان خلال خدمته في مركز النقل والفرز (مزرعة شابو قديماً) قد عمل على قتل

أكثر من ألف مدني جزائري . ومن أساليبه القذرة أنه كان يأمر المدنيين بالعدو ـ الركض ـ أمامه ، ثم يرميهم بنيران رشاشه في ظهورهم . ويعلن بعدئذ أنه قتلهم «خلال محاولتهم الفرار» .

بدأ ضباط الاستخبارات الافرنسيون (المكتب الثاني) باستجواب الأخ (سي رضوان) الذي شعر مرة بالعطش فطلب إعطاءه جرعة ماء من الجندي الإفرنسي الذي كان يقف لحراسته . غير أن العقيد (غاسك) أجاب بلهجة جافة ، وبصوت عال : «لا ـ ولا نقطة ماء» وأدار المجاهد (سي رضوان) رأسه المحترق ، ونظر إلى هذا الضابط القائد ، وقال له : «ابتعد عني ، أيها اللئيم القذر ، إنك لا تخجل من نفسك ! إنك لست رجلاً جديراً بحمل اسم الرجل ، بل ولا حتى بحمل رتبة ضابط . بالأمس فقط ، وأثناء الاشتباك ، كنتم تختبئون بين نسائكم . والآن تجد في نفسك الجرأة لإصدار أوامرك ضد جريح من جرحى الحرب . وكان لزاماً عليك قبل كل شيء أن تظهر جرأتك أمام رجالك» .

وأعقب ذلك تبادل الهمسات المسموعة في وسط الضباط الافرنسيين .

توفي المجاهد الملازم (سي رضوان) بعد ذلك بأسبوع ، متأثراً بجراحه ، ودفن في (روليزانا) إلى جوار قبر القائد (زغلول) . غير أنه بقي حياً في ذكراه بين إخوانه مجاهدي المنطقتين الرابعة والسادسة ، سواء هؤلاء الذين عرفوه عن قرب ، أو أولئك الذين لم يعرفوه إلا عن بعد .

٦ ـ المقاومة في (بوهندس)(*)

عندما أقبل شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٧ . كان قد مضى على الثورة الجزائرية ثلاث أعوام تقريباً من يوم اندلاعها في الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٥٤ ، ففي ذلك اليوم التاريخي ، قررت الطليعة الثورية حمل السلاح من أجل وضع حد لليل الاستعمار المظلم ، وتمهيد السبيل أمام الشعب الجزائري لإقامة دولته التي تجسد له سيادته . وفي تلك الفترة من سنة ١٩٥٧ ، كانت الثورة قد قطعت شوطاً بعيداً عن بداياتها الصعبة . واستجاب الشعب بكل فئاته لنداء الثورة ، وأقبل بشكل إجماعي على التطوع لدعم حرب التحرير الوطني .

لم تكن (الجروة) في الولاية الرابعة متخلفة عن الركب الثوري الذي سارت فيه شمال ـ قسنطينة واوريس ووهران ومنطقة القبائل الكبرى . وكان قد مضى عام تقريباً على تطبيق ما تم اتخاذه من مقررات في (مؤتمر الصومام) بنجاح رائع ، فأقيمت المجالس

(*) للكاتب الجزائري (محمد روبيغا) وهو مجاهد قديم عاش أحداث المقاومة في مشتى (الأطلس البليدي) ـ والمرجع :

RÉCITS DE FEU. (SNED) S.N. EL MOUDJAHED , ALGER . 1977, P. P. 99- 108.

الادارية في الولاية والأقاليم ـ المناطق ـ والمقاطعات منذ اجتماع الولاية في ايلول ـ سبتمبر ـ **١٩٥٦** .

وأخذت المجالس الشعبية في ممارسة دورها المتعاظم يوماً بعد يوم ، في التأثير بالحياة اليومية لجماهير الشعب . ونظمت في مناطق (باليسترو) و(بليدا) و(مليانة) قوات من الوحدات المختارة من المغاوير . واستطاعت هذه الوحدات إلحاق الهزائم المتتالية بالقوات الافرنسية في كل أنحاء الولاية . وأكدت الولاية الرابعة بذلك أنها قادرة على منافسة بقية الولايات في تطوير الثورة المسلحة .

وهيمنت الحماسة للثورة على كتلة المواطنين جميعهم بمثل ما كانت مهيمنة على المجاهدين في جيش التحرير الوطني . وفي هذه الفترة ، نزلت بالقوات الافرنسية خسائر فادحة ، فأخذت القيادة الاستعمارية في الاستعداد لإبادة قرية وإزالتها من على الأرض الجزائرية ، ووقع الخيار على (دشرة بوهندس) التي تعرضت للإبادة في يوم الجمعة من أيام شهر أيلول ـ سبتمبر ـ **١٩٥٧** .

لم يكن فصل الخريف قد أطل على الجزائر ، غير أن رياحه قد أخذت في حمل بشائر وصوله إلى الجبال : فاصفرت أوراق الأشجار ، واضطرت الثمار التي لم تنضج بعد إلى تأخير نضجها حتى وقت متأخر يقع بين فصلي الصيف والخريف (الثمار الرجعية) . وكانت (بوهندس) تحتل ضهرة في الأطلس البليدي . وتستند في ظهرها إلى نهر الشريعة الذي يشق طريقه عبر سهل صغير تحيط به الغابات . وهو المنظر الذي كثيراً ما تقع عليه العين في الجزائر ، فهنا غابات كثيفة ، وهناك منطقة سهلية مفتوحة ، تفسح المجال لظهور الشجيرات القصيرة التي تنبت فوق تربة رملية أو أرض صخرية تفتقر إلى الانتظام في استقبال المياه الشتوية .

وقد سكنت في قرية (بوهندس) مئات العائلات التي اعتادت على العيش على الزراعة الموسمية ، وزراعة الأشجار المثمرة ، ولم تكن (بوهندس) تفتقر إلى الماء ، فالماء فيها متوافر . غير أنها أخذت في العيش اعتباراً من سنة ١٩٥٧ لقضية الثورة ، بأكثر من عيشها لأمور حياتها اليومية . فالضهرة كلها تعيش من أجل الجهاد والصراع ، وهذا ما أنساها أمورها المادية الثانوية ، ولم تعد تظهر تجاهها أي اهتمام ، وأدى بها ذلك إلى أن تصبح أكثر يسراً ، وأقل معاناة من الصعوبات . وأخذت (الضهرة كلها) تعيش على مثلها الأعلى الذي كانت تعيشه الجزائر. أما(بوهندس)فقد باتت قادرة على تأمين الطعام لا لسكانها فقط ، وإنما لقوات جيش التحرير الوطني التي كانت تنزل على ضيافة القرية ، عندما تضطرها الظروف إلى اللجوء إليها . ولم تكن قلوب الفلاحين في هذه الفترة منفتحة على الزراعة ، بل أصبحت هناك قضية أكثر خطورة ، وأكثر أهمية تملأ قلوبهم وتشغلهم . وعلى هذا فقد أخذوا في تنظيم قريتهم (بوهندس) حتى تتكيف مع ظروف الحياة الجديدة . واعتبرت القرية أن الحياة السابقة التي كانت تعيشها هي نموذج من العيش لا يمكن قبوله ، في حين يندلع الصراع في كل مكان ضد القمع وضد الضغط ، وضد المغتصبين الغرباء الذين أرادوا إخضاع شعب أبي بالقوة ، وتجريده من فضائله وشرفه بفرض قوانينهم على أرض الآباء والأجداد . وقام أهل (بوهندس) بتنفيذ مجموعة من الأعمال ، قدر استطاعتهم ؛ مثل حفر الملاجىء وتنظيم مجموعات الأنصار ـ المسبلين ـ القادرين على تحويل حياة الغزاة إلى جحيم وبؤس مقيم ، مع تأمين الدفاع الذاتي عن أنفسهم وتنظيم حرس يقظ باستمرار . وتقديم الأدلاء ـ الكشافين ـ لقوات جيش التحرير الوطني

حتى تستطيع توجيه ضرباتها إلى قوات العدو ، من غير أن تصاب بضرر أو أذى . هذا بالاضافة إلى استئصال شأفة الخونة والعملاء . وجمع المعلومات الدقيقة عن كل ما يتعلق بالصراع حتى اشتهر أهالي (بوهنـدس) بأنهم من أكثر الناس كفاءة وقدرة في أعمال الاستطلاع .

وكانت هذه القدرة الكامنة في مقاومة العدو تبـرز يوماً بعد يوم . وكان ذلك لسوء الحظ سبباً في اتخاذ الاستعماريين قرارهم بشأن مصير (بوهنـدس) . غير أن هذا القرار لم يدخل الخوف إلى قلوب هؤلاء الجزائريين الشجعان ، الذين كانوا يحبون أرضهم ، وشعبهم ، وجيشهم ، حباً لم تعرفه إلا قلة من الشعوب المتمسكة بأصالتها وفضائلها . ولم تكن هذه (الدشرة) تخشى أبداً أن تستيقظ يوماً على مصير كمصير أختها (قرية الجرة) التي دمرها الاستعماريون في سنة ١٩٥٦ . وتبلورت في وسط القرية خلال هذه الفترة أمنية ، وهي أنه اذا كان لا بد من الموت ، فيجب مقاومة الاستعماريين حتى لا يأخذوا القرية على حين غرة ، ويبيدوا أهلها بنذالة وجبن ، وبحيث يستطيع الرجال المقاومة حتى الاستشهاد وأسلحتهم في أيديهم .

لقد ماتت (بوهنـدس) يوم الجمعة من أيام شهر ايلول ـ سبتمبر ـ . ولكنها ماتت كما أراد أهلها وتمنوه . وكانت ميتتها على أيدي الأنذال الحاقدين من مظليـي الفرقة العاشرة لقوات المظليين الافرنسيين والذين اجتاحوا في طريقهم وأزالوا عشرات المشاتي . والتي شيدها أهلها بجهدهم وعرقهم يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ، حتى أصبحت وافرة الظلال ، كثيرة الخيرات والثمرات . ولم يكن تدمير هذه (المشاتي) إلا برهاناً جديداً على بربرية الاستعماريين ،

وحقدهم الدفين على شعب يعمل على استرجاع حقه الذي لا ينكر في حياة هو جدير بها وأهلاً لها .

لقد ماتت (بوهنـدس) يوم الجمعة من أيام شهر أيلول ـ سبتمبر ـ . وفي عشية ذلك اليوم ، أو بالأحرى في صباحه ، كانت قد استقبلت المغاوير الفدائيين الشهيرين (بمغاوير باليسترو) والذين لم يصلوا إلى (بو هندس) إلا بعد مسيرة شاقة . وكانت (الضهرة كلها) قد وقفت على قدم وساق لاستقبال أبنائها المغاوير الذين دفنوا قوات العدو في (زبار بار) و (وادلاكرا) وأماكن أخرى كثيرة . ولم تكن (بو هندس) تتسع لفرحتها قادرة على استيعاب فرحتها أو احتواء بهجتها وهي تستقبل مجاهديها الظافرين لقد كانت سعادتها أكبر من قدرتها على الاحتمال .

أخيراً ! رأى أهل (بو هندس) عدداً من القادة الذين طالما رددوا أسماءهم على شفاههم وتناقلوا أخبارهم ، وأحبوهم من غير معرفة بهم . لقد وقف أهل (بو هندس) شيباً وشباباً ، رجالاً ونساء وكلهم يريد استقبال الأبطال ، والاستماع منهم عن قصصهم ، والاستيضاح كيف أمكن لهم الانتصار على الافرنسيين في ذلك الاشتباك ، أو تلك المعركة ، أو ذاك الكمين الخ . . . ؟ . . .

ولم تتعب (بوهنـدس) ، ولم يتعب أهلها ، من سماع ما يرغبون معرفته : لم نكن نعرف الخوف أبداً ، كان العدو هو الخائف باستمرار لأنه يحارب ويقاتل من أجل قضية جائرة ومعركة خاسرة .

اشتهرت (بوهندس) بطبيعتها الجميلة ، وكان على قائد الفدائيين المغاوير مشاهدة هذه الطبيعة مع بزوغ فجر اليوم الذي وصل فيه للقيام باستطلاع المنطقة ، وكانت (الضهرة) تقع تحت هيمنة المنحدرات الحادة للذرى الواقعة فيما وراء الشريعة . وتقع

(بوهندس) في أسفل السفوح حيث يمر نهر يشق طريقه عبر الوادي الذي يحتضنه . وإلى يمين الضهرة ، حيث اتجاه الغرب ، يصعد الطريق المتعرج (الاستراتيجي) والذي يصل (الشفة) بمدينة (المدية) ويتفرع عن هذا الطريق عدد من الدروب والمسالك التي تصل إلى الذرى المهيمنة على (بو هندس) .

* * *

اتخذت كافة ترتيبات الحيطة والأمن : وتمركزت الرشاشات في أماكنها ، كما انتشر الفدائيون والمجاهدون يحملون بواريدهم في الأماكن المناسبة لهم . ونظمت الدوريات . وكان لا يزال أمام مجاهدي المغاوير متسع من الوقت للاختلاط برجال (الضهرة) . وفي هذا اليوم خصصت النساء وقتهن لسخرة الغسيل ، فمضين منذ الصباح المبكر لجمع ما يمكن تنظيفه وغسيله . هذا فيما خصصت فترة بعد ظهر يوم الخميس لعقد اجتماع سياسي يتم فيه الاتفاق ما بين قادة المغاوير، وقادة المجاهدين المحليين وقادة الفدائيين على خطة العمل في الولاية . وفي هذا الاجتماع ، تمت عملية تقويم النجاحات التي حققها جيش التحرير الوطني في الولاية الرابعة، مع عرض لإنجازات قوات جيش التحرير الوطني في الولايات الأخرى ، وكذلك الموقف السياسي للثورة . ونوقشت الأساليب التعبوية (التكتيكية) للعدو ، وما يعانيه هذا العدو من عزلة ديبلوماسية . لقد كان الصراع المسلح لجيش التحرير يحقق كل يوم انتصارات جديدة . وكان على المجاهدين طرح بعض المسائل ، وعرض الصعوبات التي يصطدمون بها ، وتقديم وجيز عن الدروس المستخلصة من تجربتهم القتالية في حربهم الثورية . وتحدث المسؤولون في (بو هندس) عن التحولات التي طرأت على

حياتهم ، وعن التدابير التي تم اتخاذها ضد القصف الجوي للعدو (إقامة الملاجيء) . وكذلك عن تدابير الحيطة والأمن التي تم اتخاذها ، وهجمات المسبلين على مزارع المستوطنين . وقدموا تقريراً عن نشاط الأدلاء والخفراء المراقبين . وانتهى الاجتماع بقراءة تقرير عن الدعم الذي يقدمه الشعب بفئاته المختلفة لقوات الثورة ، وتقويم ظاهرة التضامن المثيرة بين كل قوى الشعب للوصول إلى أهدافه في السلام والتقدم .

انصرف بعد ذلك كل واحد للقيام بالأعمال التي يتطلبها الموقف . أما قائد المغاوير الفدائيين (علي خوجه) فقد مضى في سبيله لتفتيش المجاهدين القائمين بواجب الحراسة ، وتفقد المسبلين ـ الأنصار ـ الذين تمركزوا بعيداً عن (الضهرة) . واقترب المساء ، وغابت الشمس كعادتها وراء الأفق ، وهبط الظلام ، وكان وجود المغاوير الفدائيين كافياً لتبديد أية مخاوف ـ إن وجدت ـ بين سكان الضهرة ، وجلب الطمأنينة والسكون إلى نفوسهم .

عندما أنهى قائد المغاوير الفدائيين جولته ، توجه إلى مشتى المسؤول عن عقد الاجتماع الشعبي للمسؤولين في مجالس الولاية عن المنطقة الثانية والإقليم الثاني ممن كانوا حضوراً في (بو هندس) . وما ان بدأ النقاش السياسي في الاجتماع حتى وصل أحد الأنصار ـ المسبلين ـ فأعلم المساعد : بأن هناك حركة كثيفة لرتل عدو يضم دبابات وعربات مدرعة نصف مزنجرة (هاف تراك) ومركبات كبيرة لنقل الجند (كميونات) . وأن هذا الرتل يسير على الطريق المتفرع عن طريق (المدية) . وأن كل الآليات تسير وهي مطفأة الأنوار بالرغم من ظلمة الليل . ولم تمض أكثر من دقائق قليلة حتى أقبل مسبلان ـ نصيران ـ وقدما تقريرهما عن مشاهدتهما

لتحركات قوات راجلة ، لوحدات من المشاة ـ تسير على امتداد الوادي ، وعلى خط ذرى الجبال . وفي هذا الوقت ذاته انفجرت نيران غزيرة على الذرى ، فأكدت المعلومات عن قيام العدو بالهجوم .

واستعد الفدائيون المغاوير لخوض المعركة خلال دقائق قليلة . واستدعى قائد المغاوير الفدائيين إليه ، من كان حاضراً من المسؤ ولين ، وطلب إليهم إبداء وجهات نظرهم في السلوك الواجب اتباعه لمجابهة الموقف . وأثناء ذلك توافرت معلومات أكثر دقة أكدت أن هدف العملية الافرنسية هو تطويق المنطقة المحيطة بقرية (بو هندس) . ويظهر أن العدو كان يجهل وجود المغاوير الفدائيين في المنطقة ، وأن ما تم تنفيذه في هذه الأمسية ـ الخميس ـ هو استعداد لعملية تمشيط ـ مسح ـ استعداداً لعملية اليوم التالي ـ الجمعة ـ . وكانت الاقتراحات التي قدمها المسؤ ولون تتركز حول حلين : الأول هو الإفادة من ظلمة الليل لاختراق دائرة الحصار وتركيز الجهد الرئيسي للهجوم من أجل تحقيق الهدف الرئيسي وهو إحداث ثغرة للوصول إلى النهر . أما الحل الثاني ، فهو البقاء في دائرة الحصار ، لمجابهة قوة العدو في منتصف اليوم التالي ـ الجمعة ـ وتكبيدها أفدح الخسائر . وكان رأي المسؤ ول في (بوهندس) هو الرأي الحاسم إذ قال : (بأن الإفادة من ظلمة الليل لإجراء الاختراق هو ـ بالنسبة لجيش التحرير الوطني ـ بمثابة انسحاب من (الضهرة) وتعريضها لانتقام تجار الحروب . وإذا كان لا بد من الموت ، فيجب أن نموت بشرف في ميدان القتال » .

واتخذ المغوار (علي خوجة) قراره ، وذلك بالدخول في معركة مكشوفة مع العدو ، وقبول التحدي المفروض ، وقام (علي

خوجة) بإملاء أوامر القتال ، واتخاذ المواقف القتالية كالتالي :

أولاً : إذا زجَّ العدو الكتلة الرئيسية من قواته عبر الذرى والمجنبة الغربية ، فانه يجب على المغاوير الانتشار على امتداد النهر والمنحدرات الشرقية .

ثانياً : يجب على المغاوير قتال العدو فوق كل شبر من الأرض عند تقدمه من خط الذرى نحو الوادي .

ثالثاً : على المغاوير الانقسام إلى زمر . عند التحرك إلى نقطة الازدلاف ـ الاجتماع ـ الكائنة على خط الذرى . والانتقال من هناك إلى النهر ، وعلى كل زمرة أن تصطحب معها واحداً من المسبلين ـ الأنصار ـ ليعمل دليلاً للزمرة .

بقيت النقطة الأكثر حساسية في الموقف ، وهي التفكير بمصير النساء والأطفال والشيوخ من أهالي (بو هندس) . وقد تمسك المسؤولون في (الضهرة) بموقفهم تجاه هذه النقطة ولم يتراجعوا عنه : يبقى العجزة والنساء والأطفال في الملاجىء . أما بقية الرجال من غير العجزة ، فيبقون مع رجال جيش التحرير ويتبعونهم ، سواء كانوا يحملون أسلحة أو لا يحملونها . . وعندما نوقشوا فيما يتضمنه هذا الموقف من الخطورة ، كان جوابهم : بأنه من الأفضل لهم أن يستشهدوا في ميدان الجهاد من أن يقتلوا غيلة وفي مواقف الضعف والجبن .

مضت ساعات ليلة الخميس ـ الجمعة متثاقلة بطيئة ، واستسلم كل واحد إلى أفكاره وتأملاته : ترى ماذا سيحل بقرية (بو هندس) ؟ . . . وهل سينجح العدو في اكتشاف ملاجىء النساء والأطفال ؟ . . . وهل أن القرار الذي تم اتخاذه هو القرار الأمثل والأفضل ، أم هناك حلول أخرى ؟ . . إن المغاوير الفدائيين لا

يعرفون الطبيعة الطبوغرافية للمشتى ، فهل كان القرار الذي اتخذه قائدهم استجابة لفكرة لم تدرس بصورة جيدة ؟ وهكذا كان تفكير كل واحد موجه إلى ما فيه المصلحة العامة . ولم يكن هناك بينهم من فكر في شخصه ، أو في أمر يهمه وحده .

كان كل جندي يشعر بنوع من القلق قبل خوض المعركة ؛ فهل كان المجاهدون يشعرون بهذا القلق وهم جند الثورة ؟ لقد خلق الإنسان في الحياة ليعيشها ـ يقيناً ـ ولكن في ظروف مغايرة لتلك التي تتطلبها التضحية من كل فرد لرفع راية الجهاد المقدس والذي يخوضه شعب بأكمله . لقد كان دور المجاهد هو الريادة والطليعة أمام حركة شاملة . وقد فرض عليه هذا الدور التاريخي احتمال كافة النتائج ، ومجابهة أخطرها ، بهدوء مطلق ونكران للذات . وكما يحمل كل واحد في ذاته ـ أو في الأنا ـ حوافزه للدفاع عن شخصه وعن ذويه . فقد كان لا بد له من ضمان التجاوزات الضرورية لحدود (الأنا) عندما يتطلب الموقف بعث الأمة التي ينتمي إليها .

طلع سحر يوم الجمعة أخيراً . وغمر الضباب الكثيف (بو هندس) . وحمل السحَر معه نسمات رطبة حلوة أنعشت نفوس المجاهدين . لقد مضت ليلة الاستنفار ، وحدث نوع من الراحة والاسترخاء . ثم أقبل النهار مضيئاً ، مشرقاً ، يحمل معه أملاً متجدداً هو : إظهار قوة العقيدة والفضائل التي يتحلى بها المجاهدون .

ظهرت طائرات الاستطلاع الأولى في سماء (بو هندس) . وأخذت في توجيه الرمايات التمهيدية للمدفعية . ومضت ساعة كانت خلالها مدفعية العدو الرابضة في المراكز المحيطة ، تصب ثقل قنابلها لسحق (الضهرة الشهيدة) . واشتركت مدافع الدبابات في هذا القصف المركز . وكانت طائرات الاستطلاع تتابع بأجهزتها رصد

الرمايات وتوجيهها لتدمير ما بقي من (المشاتي) القائمة في (بوهندس) . وأثناء ذلك كان (الاستراتيجيون) الذين قدموا (البرهان) على علمهم ومعرفتهم تحت سماء بلاد أخرى ، يستعدون الآن لإطلاق وحداتهم المختارة في الهجوم وهذه الوحدات هي (المظليون) . ترى ألم تكن فرقة المظليين العاشرة تخشى من التعرض للسخرية ، أو الفشل ، وهي الفرقة المختارة في (الحرب ضد العصابات) وهم يزجونها للهجوم على (مشتى) ؟ . . .

لقد كلفت فرقة المظليين العاشرة بالاستيلاء على المناطق المحصنة ، فتصورت هذه الفرقة أنها ستهاجم منطقة ، مثل منطقة (خط ماجينو الذي لا يقهر) . وكانت تلك هي المأساة التي عاشتها الأرض الجزائرية .

انتهت فترة التمهيد المدفعي ، وأصدرت القيادة الإفرنسية أوامرها بتضييق حلقات الحصار حول مشتى (بوهندس) . وأسرع المظليون - أصحاب القبعات الحمراء والثياب المموهة - بالتقدم على منحدرات المشتى من كل الاتجاهات . وأصدر قائد المجاهدين أمراً بعدم الرمي على الأعداء - المظليين - إلا عندما يصل هؤلاء الى مسافة (رمي الحجر) من مواقع المجاهدين . وهكذا بدأت حشود العدو بالتقدم ، وفي اللحظة المناسبة ، فتح المجاهدون نيران أسلحتهم ، فتمزقت صفوف المظليين الذين كانوا يهرولون بخطوات متسارعة ، وسقط جنودهم على الأرض، وحاول الأحياء منهم التشبث بمواقفهم التي وصلوا إليها ، غير أن قيادتهم أصدرت إليهم الأمر بالتراجع ، وذلك لإفساح المجال أمام نوبة جديدة من (التمهيد المدفعي) . وأخذت القنابل في التساقط بغزارة ، وبشكل أعمى ، حتى حرثت المنحدرات حرثاً بالقذائف . وكانت مجموعات

الفدائيين المجاهدين تغير ما بين فترة وأخرى مواقعها . وقامت قوات العدو بهجومها الثاني ، غير أن الفشل والدمار كانا من نصيب هذا الهجوم أيضاً .

انقسمت قوة الفدائيين المجاهدين إلى مجموعات صغرى ، واحتلت مواقع متباعدة جغرافياً ، غير أنها بقيت تعمل كما لو كانت رجلاً واحداً ، مستخدمة كل قدراتها النارية بكفاءة عالية . فرماة الرشاشات الخفيفة كانوا يستخدمون نيرانهم وكأنهم يعزفون على أسلحتهم لحناً شجياً ، تطرب له آذان الرجال الجزائريين . وكان لكل رام من رماة (علي خوجه) طريقته الخاصة في إحكام رماياته ، وكان كل واحد يعرف كيف يعزف على أداته الموسيقية الخاصة به ، ومتى يجب أن يعزف . ليس ذلك فحسب ، بل إن كل مجاهد كان يعرف اللحظة المناسبة التي سيبدأ فيها هذا السلاح أو ذاك في التعامل مع العدو . واكتشف العدو مدى الكارثة التي تنتظره على امتداد الجبهة ، وعرف قدرة هذه القوة التي تجابهها قواته والتي تمكنت من دفن الانساق الأولى من الهجومين فوق المنحدرات . وإذن ، فليست (بوهندس) وحدها في المعركة ، فالمنتقمون من مجاهدي جيش التحرير الوطني يقفون سداً بين العدو ، وبين الضهرة . وقد أكدوا مرة أخرى أنهم في خدمة شعبهم .

اضطرت قيادة فرقة المظليين العاشرة لطلب نجدات جديدة ، وقوات دعم إضافية ، من أجل مجابهة (مغاوير باليسترو) . كما طلبت قيادة قوات العدو أيضاً تدخل الطيران ، وزج القوات المحمولة جواً . وأظهرت الفرقة العاشرة للمظليين بذلك عجزها عن مجابهة قوة المغاوير التي يقودها (علي خوجة) .

ارتفع قرص الشمس حتى بلغ السمت تقريباً . وأشارت عقارب

الساعة إلى الحادية عشرة ظهراً (١١٠٠) . ترى ماذا تخبيء بقية النهار لهؤلاء المدافعين عن كل شبر من أرض وطنهم ، ويضحون بحياتهم فوق كل موطىء قدم ، وهم على ما هم عليه من البؤس ، وماذا يخبىء لهم القدر؟ لم يكن الوقت في هذه الفترة يعمل لمصلحة الجزائر ، ولكن مقابل ذلك ، فإن المحصلة العامة للجهود المبذولة لم تكن سلبية . ألم تثمر هذه المحصلة العامة عن ولادة الجزائر الحديثة من خلال ذلك التلاحم بين الشعب وجيشه ؟ . . . كانت النساء الطاعنات في السن ـ العجائز ـ قد غادرن الملاجىء في هذه الفترة ، فالمجاهدون يحتاجون إلى الطعام ـ بالتأكيد ـ إذا ما استمرت المعركة . فهل سيتركن ثمار (بوهاندس) حتى يأتي المغتصبون فيقطفونها ويأكلونها ؟ . . . لقد احتدمت المعركة ، وانطلقت النسوة (العجائز) للعمل ، يبحثن عن الشهداء ، ويوزعن الخوخ والدراق اليابس الذي تشتهر به أشجار (بوهندس) ، ويتعرضن خلال ذلك لخطر الموت .

ولكن ماذا يمثل الموت لهن عندما يموت الأبناء .

مزقت طائرات (ت ـ ٦) عنان السماء وهي تطلق صواريخها بالعشرات . لكن قدم جيش التحرير الوطني بقيت ثابتة ، وأمكن لها خرق بعض الثغرات على المجنبة ـ الشرقية لطوق العدو . وأمكن الحصول على بعض الغنائم من أسلحة الإفرنسيين . وأعطت (بوهندس) المثل في الشجاعة وحمل السلاح . وكانت كل شجرة ، وكل صخرة ، تجابه العدو برشقات من الرصاص ، فتمزق صفوفه وتكبده الخسائر الفادحة . ولم يكن لقنابل النابالم ، أو الصواريخ ، أي تأثير في المغاوير المجاهدين الذين يدعمهم شعب مسلح . وتوقف جند العدو عن الهجوم . واكتفوا بممارسة قتال المواقع

والرمايات من مسافات بعيدة .

غابت الشمس ، وأمكن للمغاوير المجاهدين فتح ثغرة في تنظيم العدو ، وأخذت زمر المغاوير في عبور الثغرة وهي تتبادل الحماية بـالتنـاوب . ونجحت عمليـة العبـور . ورافق المسلحـون من (بوهندس) قوات المغاوير في عبورهم . وانتهت عملية تجميع القوات في الليل . وكان لا بد من الاستدارة حول قوات العدو الذي أخذ في تطوير عملياته ، عن طريق استدعاء قوات جديدة . واستمر صراع المغاوير المجاهدين مع العدو طوال عشرة أيام ، لم يتوقف خلالها القتال في الليل أو في النهار . وخلال هذه الفترة بقيت ثمار (بوهندس) هي الطعام الوحيد لعدد كبير من المجاهدين الذين كانوا يتناولون الثمار مع بذورها حتى يحافظوا على قوتهم ، ويسدوا بها رمقهم .

خسر المجاهدون في هذا الصراع المرير عدداً من شهدائهم ، وأصيب عدد منهم بجراح . وكان المجاهدون يحملون معهم قتلاهم حتى لا تتاح للعدو فرصة تدنيس هذه الأجساد الطاهرة التي سقطت حتى تعيش الجزائر . واغتيلت (بوهندس) وزالت من الوجود . ولكن (بوهندس) لم تمت في الحقيقة غيلة ، وإنما فضلت أن تدمر وهي تقاتل . إن (بوهندس) لم تمت إلا لتعود من جديد مزهرة في ربيع الحرية .

* * *

وتمضي الحـرب ، وتنبت سفوح (بـوهنـدس) في كـل ربيع **زهور شقائق النعمان الحمراء . إنها زهور تحمل لون الدم الأحمر القاني . إن هذه الزهور التي تغطي المنطقة في الربيع تستمد غذاءها من دم الأبطال المجاهدين أبناء الشعب .**



حطام طائرة أسقطها جيش التحرير

٧ ـ معركة (الأوراس)(*)

استمرت معركة الأوراس لمدة ثلاثة أشهر ، من منتصف شهر آذار ـ مارس ـ وحتى شهر حزيران ـ يونيو ـ **١٩٥٩** . ويعرف كل مجاهد من قدامى المجاهدين أن ذرى الأوراس كانت تعتبر من المنـاطق المحررة ، والتي كانت الدوريات التابعة لجيش التحرير الوطني ، وكذلك القوافل العابرة لهذا الجيش ، تجد فيها كل ما هو ضروري للتوقف والاستراحة . واستمر ذلك حتى جاء اليوم الذي قرر فيه ضابط طموح (برتبة عقيد) الاستيلاء عليها . وقد صرح هذا الضابط في بداية سنة **١٩٥٩** ، أنه على استعداد لتسليم الأوراس بكل من فيها ، إلى فرنسا ، بشرط واحد هو : أن تترك له حرية العمل العسكري لإدارة العمليات بطريقته ، مع ما يتبع ذلك من مضاعفة للقوات التي سيتم زجها في العمليات .

توافرت معلومات لقيادة جيش التحرير الوطني ـ في بداية شهر آذار ـ مارس ـ **١٩٥٩** ، أن حكومة (باريس) منحت العقيد (شارل)

(*) للكاتب الجزائري (مازاري بن يوسف) وهو مجاهد قديم . وقد اعتمد في بحثه على تقارير ثلاثة من الضباط الذين اشتركوا في المعركة . والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S.N. EL MOUDJAHED.ALGER,1977 P.P. 119- 123.

صلاحيات مطلقة لإدارة الحرب في الأوراس . وأن هناك قوات دعم قد تم سحبها من كل أنحاء الجزائر ، لتنفيذ العمليات ، علاوة على تلك التي كانت متمركزة عند سفوح الأوراس ، أو على مقربة منه . ومضت أيام قليلة ، وأقبل منتصف شهر آذار - مارس - وأصبح باستطاعة العقيد (شارل) أن يزج بثقل قواته للهجوم على الأوراس . وقد يكون من المؤسف حقاً عدم توافر معلومات دقيقة عن حجم هذه القوات ، وعلى كل حال ، فقد قدرت في حينه بقوة (٢٠) ألفاً ، وأحياناً ارتفعت إلى (٣٠) ألفاً . وزادت على ذلك في بعض التقديرات خلال مراحل معينة . إذ كانت قوات الدعم تتدفق باستمرار طوال المعركة المديدة . ويكفي هنا القول بأن الأوراس لم تكن مقر قيادة عسكرية لجيش التحرير الوطني - فقط - أو مجرد مركز لإمداد قوات جيش التحرير الوطني فحسب ، وإنما كانت أيضاً القاعدة الصلبة الوحيدة لقوات جيش تحرير الوطني في الشمال الغربي من الجزائر . ويصبح من السهل على هذا الأساس التأكيد بأن حجم القوات الإفرنسية لم تكن أقل أبداً من التقديرات التي سبق ذكرها .

كان العقيد(سي محمد بونعمة)هو القائد المسؤول عن العمليات في الأوراس . وكان الأوراسيون يعتبرونه أباً لهم . وينظرون إليه بتقدير واحترام كبيرين ، نظراً لما كان يتوافر له من الفضائل وأبرزها عبقريته الكبرى في المجال الاستراتيجي . وقد عمل العقيد (سي محمد بو نعمة) على تقويم قوات العدو ، مع مقارنتها بما يتوافر له من القوات ، ووصل إلى نتيجة وهي أنه وقوات الحرس التابعة له يجابهون موقفاً عسيراً ، وأنه من المحال عليه الصمود بصورة عملية لأكثر من أيام قليلة - لا تتجاوز الأسبوعين في أفضل الظروف - . هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ما كان يتوافر لقوات

جيش التحرير من مميزات ، أهمها سيطرتها على المواقع الاستراتيجية الرائعة في ذرى الأوراس المنيعة ، والتي تضم إليها عشرات الكهوف والمغاور التي كانت معاقل حصينة للثوار المجاهدين . ولهذا قرر استنفار كافة كتائب جيش التحرير الوطني القريبة منه (والموجودة في الولاية الرابعة) بالإضافة إلى تلك المجاورة له (في الولاية الخامسة) .

مضى يومان فقط ، ووصلت إلى الأوراس ثماني كتائب من قوات جيش التحرير الوطني . وبالرغم من ذلك ، فقد بقيت المقامرة في دخول المعركة كبيرة ، وكانت الثقة في كسبها غير مؤكدة . لا سيما وأنها كانت بالنسبة للعقيد (شارل) مصيرية . ولهذا فإنه كان مستعداً لزج كل شيء من أجل كسب كل شيء . وكان لديه آلاف الجنود الاستعماريين الذين حقنهم بالمواد الطبية التي تفقدهم أحاسيسهم ، وأغرقهم بالمشروبات الروحية القوية ، فباتوا كتلاً متحركة محرومة من المشاعر والأحاسيس الإنسانية . وعرف المجاهدون ذلك ، غير أن هذا الأمر لم يكن يخيفهم ، لأنهم كانوا يعتمدون على قوة المواقع التي يمسك بها جيش التحرير الوطني والتي تمكنهم من مجابهة هجمات القوات الأرضية بكل ثقة وارتياح . غير أن ما كان يخيفهم بحق هو هجمات القوات الجوية الإفرنسية .

لم تكن الكتائب الثماني التي وصلت إلى الأوراس ، أكثر من مقدمة للدعم ، فقد استمرت الإمدادات والنجدات في التدفق من (بليدا) و(تيارت) و(زكار) . كتائب تتبعها كتائب . تتدفق من كل مكان ، يدفعها تصميم عنيد على إنقاذ الأوراس أو الموت دونها .

كانت تلك الليلة هادئة ؛ وكان هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة

نذير شؤم : لم تطلق في الليل ولو طلقة واحدة ، ولم تظهر حركة كبيرة أو صغيرة تعكر صفو الصمت المطبق . ولكن آلافاً من الشعلات الصغرى كانت تندلع هنا وهناك في معسكرات العدو البعيدة عن مواقع المجاهدين بمسافة كيلومترات عديدة ، وكانت لهذه المشاعل دلالاتها ، إنها تشير بالتأكيد إلى أن الفجر سيكون موعد الهجوم ، وليس الفجر ببعيد .

وصل إلى المجاهدين ، وهم في مواقعهم ، هدير يصم الآذان ، وظلمة الفجر لا زالت قاتمة ، فهل قامت القيامة ووصل العالم إلى نهايته ؟ لقد ظهرت في السماء مئات الطائرات ـ من قاذفة ومطاردة ـ قادمة من جنوب ـ غرب الأوراس ، فحجبت الأفق ، ولم تمض أكثر من ثوان قليلة حتى حجبت سحب الطائرات السماء ، ومنعت بواكير ضوء النهار من الوصول إلى الأرض . لقد أظلمت الدنيا من حول المجاهدين الذين شاهدوا مئات وآلاف الأطنان من القنابل وهي تتساقط على رؤوسهم ، واستمر هذا القصف الوحشي حتى منتصف النهار تقريباً . ومع الساعة الحادية عشرة (١١٠٠) . بدأت القوات الاستعمارية زحفها وهي واثقة من النصر . لقد كانت هذه القوات تتقدم على شكل موجات متتالية ، غير أنها موجات لن تلبث حتى تتكسر على صخرة قوات المجاهدين الصلبة الصامدة .

تكبدت قوات العدو خسائر فادحة جداً في هجومها الأول ـ عشرات القتلى ـ ولكن ما قيمة هذا العدد بالنسبة لتلك الموجات التي لا زالت تتابع تقدمها بالرغم مما ينزل بها من الخسائر . إنها موجات من الجنود الذين يتقدمون للإنتحار ، إنهم جبناء حشوهم بالعقاقير حتى باتوا كالحمام الذي يندفع نحو بارودة الصياد ـ هذا إذا جاز تشبيههم بطيور الحمام الوديعة ـ . واستمر الصراع نوباً بين القوات

البرية والقوات الجوية ، فكان كل تراجع للقوات الأرضية يعقبه قصف جوي كثيف ، يتكبد المجاهدون فيه خسائر فادحة . وعلى هذا النحو انقضى النصف الثاني من شهر آذار ـ مارس ـ .

وأقبل شهر نيسان ـ إبريل ـ **١٩٥٩** . والطرفان المتصارعان يقفان عند النقطة التي بدأ منها الصراع . ومئات القتلى من الأعداء يقابلهم مئات الشهداء من المجاهدين . ولكن شيئاً واضحاً وأكيداً بات يبرز للوجود ، وهو أنه ليس من السهل على الاستعماريين الاستيلاء على الأوراس ، لا سيما وأن سيل الإمداد بالمجاهدين والذخائر والإسعافات الطبية ، استمر في التدفق على مجاهدي الأوراس ، من كل مكان .

أصبح موقف المجاهدين حرجاً للغاية في شهر أيار ـ مايو ـ **١٩٥٩** ، فقد ارتفع عدد الشهداء في صفوفهم إلى أكثر من خمسمائة شهيد . واستمر المجاهدون في القتال من خنادقهم ومواقعهم الحصينة وهم يرددون : «آه ! لو لم يكن هناك طيران . وإننا نعتقد أننا مدينون كثيراً لمواقعنا الاستراتيجية ، إذ لولاها لما بقي واحد منا على قيد الحياة » . وقد أصبحت الأرض من حول المجاهدين مغطاة بالمحطومات ، حتى لم يعد يظهر منها إلا حديد الطائرات التي تم إسقاطها ، والآليات التي تم تدميرها . هذا بالإضافة إلى الجثث التي لم يتمكن العدو من إخلائها فباتت تغطي سطح الأرض منذ أسابيع عديدة . وأخذت هذه الجثث النتنة في إفساد رائحة الجو الذي دنسته من قبل طائرات العدو ، وما تحمله من أسلحة الإبادة .

مضى شهران على هذه المعارك الطاحنة ، وفي نهاية شهر أيار ـ مايو ـ قرر العقيد الافرنسي (شارل) وضع حد حاسم لهذا القتال المتواصل . فقذف بكل قواته ضد قوات جيش التحرير الوطني في

الأوراس كلها . وبات من المحال على المجاهدين البقاء في خنادقهم ، إذ ظهر لهم أنه من الأفضل إيقاف هجمات العدو بهجمات مضادة ، وبصورة جبهية في العراء . فكان يحدث في بعض الأحيان قتال الالتحام ـ جسماً لجسم ـ بطرائق مثيرة ورهيبة : واستخدم الفدائيون المجاهدون أساليب تعبوية ـ تكتيكية ـ مبتكرة ، إذ كانوا يبتعدون بزمر صغيرة عن كتلة القوات الرئيسية ، ويسمحون لقوات العدو بتطويقهم وهي تعتقد أنها ستحصل ، أو بإمكانها الحصول ، على عدد من الأسرى . وعندها يقع جند العدو في الكمين ، وتنطلق رشات الرصاص من كل الأسلحة الخفيفة ، وعلى مسافات قريبة جداً . فكان قتال الالتحام جسماً لجسم هو وسيلة المجاهدين الوحيدة ، لإضعاف قدرة العدو العددية ، واستنزاف موارده البشرية : لقد كان الهدف بالاستمرار هو الإفادة من كل موقف لقتل أكبر عدد من قوات العدوان الاستعمارية .

كانت الأيام الأخيرة من أقسى الأيام وأصعبها . وكثيراً ما تساءل الجميع : لمن يكون النصر ؟ وهل سيكون للعقيد (شارل) ورجاله المجرمين السفاكين للدماء ؟ أم للعقيد (سي محمد بو نعمة) ورجاله المجاهدين الصابرين ـ من الفدائيين ـ الذين هجروا أرضهم والعمل فيها ، وتنكروا للرفش والمعول فحملوا البواريد للعمل في جيش التحرير الوطني من أجل الدفاع عن الوطن .

تقدم تجربة الحياة شواهد كثيرة على قدرته تعالى في تنظيم الكون ، بحيث لا بد للخير في النهاية من أن ينتصر على الشر ، ولكن ماذا تستطيع العدالة فعله في قضيتنا هذه للنصر على مئات الطائرات (القاذفة منها والمقاتلة) وعلى المدافع الحديثة جداً .

لقد كنا نحن المجاهدين نمثل في المعركة (العدالة) و (الحق) . ونحن الذين سنحصل على النصر ، بالرغم من ضعفنا في التسلح بالمقارنة مع ما يمتلكه العدو . ذلك أننا نقاتل من أجل الدفاع عن قضية تستحق أن نموت من أجلها . وكان هذا الاعتقاد راسخاً في أعماق نفوسنا ، في حين لم يكن لدى الجنود الاستعماريين مثل هذا الاعتقاد أو القناعة . ومن هنا فقد كنا على استعداد لمجابهة مدافع العدو ، حتى لو لم يبق لدينا إلا الحجارة . وقد أدرك العقيد (شارل) ذلك ، ولكن بعد فوات الأوان . ولو أدرك ذلك من قبل ، وعرفه ، لما دفع قواته الاستعمارية إلى الانتحار ، حيث سقط من قوتها ما يزيد على ستين بالمائه ، فوق ذرى الأوراس الشماء . ولم يقيد لهم بعد ذلك أن يروا نور الشمس أبداً .

أجل ، عرف العقيد (شارل) ذلك متأخراً ، ومتأخراً جداً . ولكنه قبل أن يصل إلى هذه المعرفة الثابتة ، حاول أن يقوم بهجوم أخير ، مدفوعاً إلى ذلك بأنانيته الفردية بالدرجة الأولى ، فزج بكل جنده المأجورين الذين أخذوا في التدفق على الأوراس من كل الجهات ، وبوسائط متفوقة جداً على تلك التي يمتلكها المجاهدون ، واستمرت مدافعهم في قصف متواصل بهدف إضعاف مؤخرات المجاهدين وإعاقتهم عن كل تحرك . وتدخل الطيران بقوة فأعاق المجاهدين عن مجابهة القوات البرية الاستعمارية بكل قوتهم ووسائطهم ـ المتواضعة على كل حال ـ .

تميز خلال هذه الفترة ـ بصورة خاصة ـ مجاهدو (تيارت) الذين كانوا أفضل تسليحاً بالأسلحة الثقيلة من سواهم من المجاهدين . وأمكن لهم تكبيد العدو خسائر فادحة في الطيران ، غير أنهم لم ينجحوا في دفعه نهائياً ، أو منعه من متابعة الطيران فوق المنطقة .

وعاد السؤال المطروح : هل هي نهاية الأوراس بكل من عليها من مواطنين ومجاهدين ؟ لم يكن هناك من يستطيع الإجابة على مثل هذا السؤال بصورة موضوعية ، والقضية هنا ليست قضية آمال أو تمنيات . غير أن المجاهدين كانت لهم طريقتهم الخاصة في التفكير ، إذ أنهم لم يكونوا يفكرون إلا في قضية واحدة ، وهي : الموت في المعركة ولا شيء غير ذلك ، وكانت آمالهم وتمنياتهم محددة بطلب أولى الحسنيين (الشهادة)، أما قضية النصر فتبقى مرتبطة بإرادة الله .

والشواهد على ذلك كثيرة ، يكفي هنا الإشارة إلى حادثة واحدة تبرز هذه الحقيقة التي كانت العامل الوحيد لما تميز به المجاهدون من روح معنوية عالية .

كان العقيد (سي محمد بو نعمة) في مقدمة الصفوف دائماً ، وعلى خطوط النار الأولى باستمرار . وفي يوم أصابه تمزق في أربطة القدم (لي أو التواء في الرسغ) بينما كان يعمل على مساعدة مجموعة من المغاوير الذين وقعوا في مأزق حرج نتيجة التقدم العنيف لقوات الاستعماريين . ووقع العقيد (بو نعمة) أرضاً ، ثم تحامل على نفسه ونهض ، إلى أن وجد لنفسه ملجأ أميناً خلف إحدى الصخور التي تضمن له وقاية أفضل من الرصاصات الطائشة . وفجأة ظهر مجاهد لا يعرف أحد من أين أتى ، ولا كيف تقدم ، ولم يكن هذا المجاهد يعرف العقيد معرفة شخصية ، غير أنه لاحظ طريقته في التحرك ، فثارت الشبهة في نفسه ، وأخذ في مطاردته ، حتى إذا ما أمكنت له الفرصة المناسبة ، انقض عليه ، وجرده من سلاحه ، وظنه هارباً من قوات العدو ، ولهذا فانه لم يترك له الفرصة للكلام ، ووجه اليه فوهة رشيشه القصير. وابتسم العقيد ابتسامة زادت من توتر

أعصاب المجاهد الشاب ، فكاد يطلق نيران سلاحه ويضغط على الزناد ، عندما سمع صوت أحد جرحى المجاهدين وهو يقول له : « احذر ! قف ! إنه العقيد » . وخلال ذلك لم تفارق الابتسامة شفتي العقيد ، وهو ينظر إلى المجاهد الشاب بإعجاب ، وقال له بلهجة أخوية : « إنني اعرف الآن سبب فشل الاستعماريين في القضاء علينا » . وصدرت عنه ضحكة طويلة رددت الصخور أصداءها . فكانت ضحكته تحدياً للاستعماريين ولفرنسا كلها . وهي ضحكة أكدت أنه ما من سبب يدعو النصر ليكون فرنسياً ، إلا إذا أمكن للقوات الافرنسية أسر العقيد (بو نعمة) ورجاله ، وأخذهم أحياء لتقديمهم هدية إلى فرنسا . وقد كان من المحال على فرنسا بلوغ ذلك .

أخذت مسيرة الأحداث ـ على مسرح العمليات ـ في التحول عبر المنعطف الحاسم ، وظهر للعقيد (شارل) أنه بات في موقف لا يحسد عليه ، فأخذ اليأس يهيمن عليه ، بالرغم مما كان يملكه من تفوق في ميزان القوى ـ أو حتى بما بقي له من فضلات ميزان القوى ـ وبالرغم أيضاً من دعمه بأحدث الأسلحة المتطورة ، وأشد الوسائط القتالية الفتاكة .

طور جيش التحرير الوطني في هذه الفترة أساليبه القتالية ـ التكتيكية ـ فلم تعد قواته في الاوراس ـ تقف عند حدود ضد العدو ، أو القيام بالهجوم المضاد ، ما بين فترة وأخرى . وقد عرفت هذه القوات من خلال تجاربها مع العدو، أن قواته الاستعمارية تجيب على كل هجوم بهجوم مضاد أكثر قوة وعنفاً . وكان ذلك يسمح للمغاوير المجاهدين بتدمير قسم من قوات العدو ، وإنقاص قوته العددية . ولكن ذلك لم يعد كافياً . ولهذا ، فقد لجأ المجاهدون

لأسلوب الهجمات الخداعية المرتبطة بتنظيم الكمائن ،فكانوا يقومون بهجومهم ، ثم يتراجعون ، تاركين عدداً من المقاتلين في مؤخرتهم ، حيث يتظاهر هؤلاء بأنهم قتلى ، أو أنهم يتمركزون بمواقع مموهة . وسرعان ما ينطلق العدو بهجومه المضاد ، غير منتبه وهو يتحرك بسرعة إلى أسر.عشرات المجاهدين المغاوير المنتشرين حوله . وتستمر الكتلة الرئيسية من المجاهدين في انسحابها بينما تتابع القوات الاستعمارية مطاردتها الحاسمة ، مركزة كل جهدها لملاحظة هؤلاء الذين يتحركون أمامها . ويجد المقاتلون الاستعماريون فجأة أنهم وقعوا في كمين (فخ) محكم . ومن السهل بعد ذلك توقع ما يحدث بعد ذلك .

مضت الأشهر الثلاثة على هذا الصراع المرير ، وهو الصراع الذي لم يشترك فيه العقيد (شارل) ولو بمعركة واحدة ، ولم يصل فيه أبداً إلى قمة الأوراس ، ولو لمرة واحدة . وإذا ما أمكن له الوصول مع قواته إلى بعض المرتفعات والذرى ، فانه ما وصلها إلا لينسحب منها بسرعة أكبر من سرعة تحركه إليها ، مخلفاً وراءه الجثث المتراكمة والممددة على الأرض ـ إلى الأبد ـ .

لم يتمكن الاستعماريون من البقاء في الأوراس ، فكانت في ذلك هزيمتهم . ولم تكن هناك ضرورة لأن تصدر قيادتهم أوامرها بالانسحاب . ففي نهاية شهر حزيران ـ يونيو ـ **١٩٥٩** لم يعد هناك أي وجود للاستعماريين هناك .

وضاع العقيد (شارل) ولم يعد له أي ذكر . وبقيت الأوراس منطقة محررة من مناطق جيش التحرير الوطني ، وبقيت محررة حتى استقلال الجزائر كلها وتحريرها تحريراً تاماً . وكم كان الثمن فادحاً ؟ لقد غابت عن ساحة الصراع ثلاثة افواج تقريباً (أو ما يعادل ١٤٠٠

مجاهد) . ولقد استشهد هؤلاء الألف والاربعمائة من المجاهدين البررة ، لا دفاعاً عن الأوراس وحدها ، وانما من أجل أن تتحرر الجزائر كلها وتصل إلى سيادتها واستقلالها .

وتلك هي القصة الحقيقية لمعركة الأوراس .



المجاهدون يتفقدون أرض الكمين .

٨ ـ معركة في الجنـوب (*)

بلغت الثورة الجزائرية مرحلة متقدمة من تطورها في سنة ١٩٥٧ ، وفي هذه المرحلة ، وقف الاشتراكي رئيس وزراء فرنسا ـ غي موليه ـ ليوجه مواعظه ونصائحه إلى الثوار ، وليطلب إليهم الأخذ بثلاثيته الشهيرة : وقف إطلاق النار ، فالانتخابات ، فالمفاوضات . وفي هذه المرحلة ذاتها أيضاً ، وقف اشتراكي آخر اشتهر بصفة (سفاح الجزائر) وهو (روبرت لاكوست) فأعلن « بأنه لم يبق إلا ربع ساعة فقط للقضاء على الثورة » . والتقطت الصحافة الافرنسية ، هذا الإعلان وأخذت في الترويج له . وعلى هذا الأساس ، فقد رفضت الحكومة الافرنسية الرابعة التسليم للثوار الجزائريين بمطالبهم ، وأخذت في وضع المشاريع لتقسيم الجزائر ، وأمعنت في طريقها هذا ، ففصلت إقليم الصحراء وعينت له وزيراً افرنسياً (هو ماكس الصغير) .

وكان إقليم الصحراء هذا قد عرف منذ عام انتفاضة (التحرير)

(*) للكاتب الجزائري (عبد الحميد شيران) مجاهد قديم في جيش التحرير الوطني . واشترك في معركة الجنوب التي وقعت يوم ٢٩ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٧ ـ والمرجع : RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED. ALGER. 1977 P.P. 146- 152 .

وأخذ في التفاعل مع الأحداث التي كانت تجري فوق التراب الوطني للجزائر . وفي الحقيقة ، فإن الجبهة الصحراوية ، قد أخذت منذ نهاية شهر ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩٥٦ في تنظيم جبهة التحرير الوطني ، وجيش التحرير الوطني . وتبع ذلك ظهور مجموعات من المجاهدين في عدد من النقاط الصحراوية ، أو بصورة أكثر تحديداً فيما تم الاتفاق على تسميته بالمنطقة الثامنة من الولاية الخامسة ، تحت قيادة (النقيب ـ الكابتن ـ لطفي) وهي المنطقة الممتدة من مرتفعات جبل (عمور) في إقليم (آفلو) وحتى (تندوف) على الحدود الجزائرية ـ المغربية . مروراً (بالبياض ـ سابقاً غيريفيل) و (عين صفرا) و (بيشار) و (تيميمون) .

شهدت السنة الممتدة من النصف الثاني لعام ١٩٥٦ والنصف الأول من العام ١٩٥٧ مجموعة من المعارك العنيفة والتي كانت مسارحها في (القعدة في كينج عبد الرحمن) من إقليم (آفلو) تحت قيادة (النقيب لطفي) حيث دار صراع دموي رهيب استمر سبعة أيام بلياليها ، حتى نفدت ذخائر المجاهدين وموادهم التموينية واضطر المجاهدون مرغمين لأكل جذور الأشجار والأفاعي وكل ما يمكن أكله ، وشرب ماء بولتهم حتى يستطيعوا البقاء على قيد الحياة . ويمكن هنا الإشارة إلى أن قائد الطيران الافرنسي (كلوسترمان) قد اشترك في هذه المعارك ، ونشر بعد عودته إلى فرنسا مقالاً ـ في صحيفة الاكسبريس ـ تحت عنوان « نكبة آفلو » تعرض فيه إلى ما تتكبده القوات الافرنسية من الخسائر على أيدي المجاهدين الجزائريين .

ترددت أصداء انتصار المجاهدين في هذه المعركة التي قادها

(النقيب لطفي)[*] . بصورة قوية أثارت حماسة المجاهـدين الذين خاضوا مجموعة من المعارك المماثلة ، كان من أشهرها معركة (جبل مرقاد ـ غيريفيل) ومعركة (جبل مزيمير) و (معركة الجبل) و (درمل ـ عين صفراء) ومعركة (حمدان) ومعركة (ميزيب) ومعركة (عنتر) ومعركة (غيروز ـ بيشار) . وإذا كان من العسير التعرض لكل هذه المعارك ، فلا أقل من اختيار واحدة منها ، ويمكن الأخذ بمعركة (غيروز ـ بيشار) نموذجاً لها .

بواكير المعركة ومقدماتها :

أصبحت كلمات (الثورة) و (جبهة التحرير الوطني) و (جيش التحرير الوطني) و (الاستقلال الوطني) تتردد كالأنشودة الحلوة على كل شفة ، فتهتز لها القلوب في كل منزل وفي كل بيت وكوخ على امتداد الصفحة الجغرافية للجزائر ، ليس ذلك فحسب ، بل إن هذه الكلمات أخذت في اقتحام معسكرات الأعداء ، لتصل إلى قلوب أولئك الذين وقفوا إلى جانب الأعداء من الجزائريين ـ إن طوعاً أو كرهاً ـ وحملوا السلاح لقتال مواطنيهم وأهلهم وإخوتهم في الدين . وأمام هذا الموقف ، أخذت المنظمات الخاصة في جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني ببذل جهودهما الكثيفة ـ اعتباراً من مطلع سنة ١٩٥٧ ـ بهدف الاتصال مع العناصر العسكرية الجزائرية التي تخدم في الوحدات المسماة من قبل الإفرنسيين (بالوحدات الصحراوية ـ للجيش الإفرنسي) ومحاولة إقناعها بالإنضمام إلى قوات جيش التحرير الوطني . ولم تلبث هذه الجهود حتى أينعت

(*) ترفع النقيب لطفي بعد ذلك الى رتبة عقيد ـ كولونيل ـ ومات ميتة بطولية في بداية سنة ١٩٦٠ في منطقة بيشار ـ حيث حمل مكان استشهاده اسم (برج لطفي) .

ثمارها ، وأخذ هؤلاء الجزائريون بالفرار من معسكر العدو والالتحاق بالثورة ـ بصورة إفرادية ـ ثم تطورت العملية إلى فرار زمر صغرى ، وأخيراً ، أخذت فصائل بكاملها في الانضمام إلى قوات الثورة .

وكانت الظاهرة الأكثر خطورة بالنسبة للفرنسيين هي فرار العسكريين الجزائريين من معسكر الإفرنسيين والانضمام إلى جيش التحرير الوطني ومعهم كامل أسلحتهم وذخائرهم . وشعرت السلطة الإفرنسية بثقل وطأة هذه العملية عندما قام فصيلان من الجنود الجزائريين بقتل ضباطهم الإفرنسيين ، وانضما إلى قوات الثورة في شهر أيار ـ مايو ـ ١٩٥٧ ومعهما كمية ضخمة من الأسلحة والذخائر . ورافق ذلك ـ بصورة طبيعية ـ تعاظم في هجمات الثوار المجاهدين على المراكز الإفرنسية ، وزرع الألغام على الطرق ، ومعركة الخطوط الحديدية والأسياج الشائكة . الأمر الذي أثار هياج العدو الافرنسي الذي لم يعد باستطاعته ابتلاع هذه المجابهة ، فوضع مخططه لتنفيذ عملية بواسطة قواته المحمولة جواً وهدفها مطاردة الجزائريين الهاربين من المعسكرات الافرنسية : غير أن الفشل الذريع كان حليفاً لهذه العملية ، لأن الجنود الهاربين كانوا قد وصلوا إلى مسافات بعيدة عن قبضة العدو ، واستقروا في مراكز حصينة ومأمونة .

عاد العدو لوضع مخطط جديد للعمليات على نطاق واسع ، لا يقتصر هدفها على تصحيح الموقف بتأديب الهاربين ، وإنما يتجاوز ذلك إلى محاولة الاستيلاء على مركز القيادة الإقليمي الذي قامت عناصره بتأمين جسور الاتصال التي عبرت عليها جموع الهاربين .

وكانت الخطوط الرئيسية للعملية تتلخص في تنسيق جهود القوات الافرنسية المتمركزة في (بيشار) و (عين صفرا) وبقية

مناطق الجزائر ، وكذلك القوات الافرنسية المتمركزة في المغرب .

قامت طائرتا استطلاع من نموذج (ت ـ ٦) بالتحليق فوق قواعد المجاهدين ، وذلك قبل يومين اثنين من بدء تنفيذ العملية . وفي الوقت ذاته قامت منظمات الاستخبارات التابعة لجيش التحرير بإنذار قواتها عن وجود هيجان يجتاح معسكرات العدو . وهكذا افتضح أمر العملية ، ولم تعد الاستعدادات لتنفيذها سرية . واتخذ المجاهدون استعداداتهم القتالية بصورة سرية ، واحتلوا مواقعهم ، بوسائطهم المتواضعة .

قامت القيادة الفرنسية بنقل ما يزيد على ألفي جندي بواسطة قطارين : القطار الأول انطلق من (بيشار) وانطلق القطار الثاني من (عين صفرا) . والتقى القطاران في (الجحايفة) حيث تم نقل القوات بعد ذلك إلى مسرح العمليات بواسطة الطائرات العمودية ـ الهيليكوبتر ـ. هذا علاوة على إرسال خمسين عربة نقل جند كبيرة محملة بالمقاتلين وأسلحتهم من القوات الاستعمارية المتمركزة في المغرب . وبالإضافة أيضاً إلى سرب طائرات نفاثة ، وطائرات نقل جند (جونكر) وطائرات عمودية . . . وجدير بالذكر أن جهاز الحرب هذا كان أكبر من قدرة فرنسا ، ولهذا فقد كان يعتمد في تموينه ودعمه على قوات (حلف شمال الأطلسي) . فما هي القوة التي كان يجب عليها التصدي لهذا الجهاز الضخم ؟

كان لدى جيش التحرير الوطني الجزائري في المنطقة قوة لا تزيد على الفصيلين ، يتلقيان دعماً مناسباً من المواطنين ـ وبصورة خاصة من أفراد القبيلتين الكبيرتين اللتين تستقران في المنطقة وهما : (قبيلة ولد جرير) و (قبيلة دوى منيح) . ويضاف إليهما بعض الأفراد من (شَامباس) و (ولد سيدي الشيخ) الذين كانوا ينفردون

بكفاءة قتالية جديرة بالتقدير : إنهم محاربون حقيقيون يتمتعون بخيال حربي متوارث ، ولديهم رماة مهرة لا نظير لهم ، وهم مسلحون بالبواريد الحربية المتنوعة مثل (الموسكوتون) و (ماس ٣٦) و (ماس ٤٩) و(موزر) ومعظمها مما غنمه المجاهدون من أسلحة العدو الاستعماري . وكان تموين هؤلاء المجاهدين بسيطاً : بعض قرب الماء التي يتم إملاؤ ها من (حاسي أبو الأكحل) وحفنة من البلح (لا تتجاوز ربع كيلو غرام) . وشريحة من اللحم وقطعة من الخبز أو الكعك المشوية على رمال الصحراء الساخنة .

كانت أكثر المشاكل خطورة مما جابهته عناصر جيش التحرير الوطني في هذه الفترة ، مشكلة حماية مركز القيادة الإقليمية الذي بات الهدف الرئيسي لجهد العدو ، مع ما يتبع هذا المركز من مصالح وخدمات ، وأولها مصلحة الإمداد والتموين ، ومصلحة الخدمات الصحية التي كانت تسهر على العناية بأكثر من سبعين جريحاً ومريضاً عاجزين عن حمل السلاح . علاوة على مشكلة بعض العملاء والخونة الذين كانوا محتجزين في هذه الفترة بانتظار تقديمهم إلى محكمة عسكرية ، وبينهم على سبيل المثال : (مدني ولد غدايفه) و(الحبيب شاطري) وخونة افتضح أمرهم وحوكموا ونفذ فيهم حكم الإعدام بعدئذ . وكذلك (هـ . م) الشاب الذي لا يتجاوز السابعة عشرة عاماً من عمره ، حاول العدو استخدامه وكشفت استخبارات جيش التحرير الوطني أمره ، وأخذت المحكمة العسكرية باعتبارها صغر سنه فلم تصدر حكمها عليه ، وعفت عنه .

* * *

استطاع المجاهدون استباق المعركة ، فقاموا بإخلاء الكهوف والمغاور والأودية ، واحتلوا مواقعهم على النقاط ذات الأهمية

الإستراتيجية في الجبل . وقام كل مجاهد بحفر ملجأ له ، وأعد موقعه القتالي على مهل ، وغير متعجل ، حتى يمكن له مجابهة كافة الاحتمالات . واحتل المجاهدون جميعاً مواقعهم القتالية في ليلة المعركة ، وأمضوا الليل في خنادقهم وملاجئهم .

أرسل المراقبون في وقت مبكر من الصباح إنذاراً إلى المجاهدين يعلمونهم بتقدم أرتال من الآليات ـ المركبات ـ المتجهة من (بو عرفة) إلى (الفجيج) وهي تنتقل عبر مضيق (غروز ـ لاميز) . وظهر واضحاً أن هذه الأرتال كانت تنقل وحدات من الجيش الفرنسي الاستعماري المتمركز على تراب المغرب . واستنفرت القوات ، **واستعد المجاهدون جميعهم للمعركة بعد أن أدوا فرض صلاة الفجر ، وابتهلوا إلى الله أن يثبت قلوبهم ، ويمنحهم النصر الذي وعد به المجاهدين الصابرين .**

ظهرت الخيوط الأولى لضوء النهار ، وبينما كانت أنظار المجاهدين وأحاسيسهم مشدودة كلها لمتابعة تحرك الأرتال القادمة من المغرب ، ارتفع هدير يصم الآذان صادر عن محركات الطائرات ، مما أرغم المجاهدين على تحويل أنظارهم نحو السماء : فكان أول مشهد وقعت عليه أبصارهم ثلاث طائرات ضخمة ـ من قاذفات القنابل ـ نموذج (ب ـ ٢٦) قامت بجولة سريعة فوق الإقليم ، ثم أخذت بإرسال قنابلها وإطلاق نار مدافعها الرشاشة . متبعة في ذلك طريقتها التقليدية لتطهير الأودية والثنايا ، والتمهيد لإنزال القوات المحمولة جواً التي كلفت الهبوط فوق المواقع لقصم ظهر الثوار ـ الفلاقة ـ.

مضت ساعة والقصف الكثيف لمواقع المجاهدين لم يتوقف أو ينقطع ، حتى إذا ما أشارت عقارب الساعة إلى السابعة ، ارتفع هدير

وضجيج لا يقل في شدته أو قوته عن الهدير السابق ارتعد له المجاهدون وأجفلوا ، وإذ ذاك ظهر سرب من الطائرات المتنوعة النماذج والأشكال ، جاءت كلها فحجبت السماء ، وأخذت في التحليق فوق رؤ وس المجاهدين . وهنا ظهرت بغتة موجة جديدة من الضجيج قادمة من الشرق ، فوقف لقدومها شعر المجاهدين ، وكانت هذه الموجة صادرة عن سرب الطائرات العمودية (الهيليكوبتر) والتي أخذت في نقل وحدات العدو التي تم نقلها بالقطارات من (بيشار) و(عين صفرا) . وهي وحدات كانت تعمل تحت قيادة ـ الجنرالين ـ : (فانوكسين) و (كريفكور) . واجبها الاتصال مع القوات القادمة من المغرب ، وإحكام حلقة الحصار على المجاهدين ، بطريقة التطويق والحصار المعروفة .

تحركت قيادة المجاهدين للعمل بسرعة من أجل مجابهة هذا الموقف ، فقسمت وحداتها إلى مجموعات قتالية ، وأعادت تنظيمها في إطار زمر صغرى ، تعمل في إطار مجموعتين رئيسيتين : أولاهما بقيادة الأخ المجاهد (غاوطي) وهو محارب قديم اشترك في حرب الهند الصينية ولديه خبرات قتالية جيدة . وحددت مهمة هذه المجموعة بالاستيلاء على النقاط ذات الأهمية الاستراتيجية في مواجهة المحور الذي تتقدم عليه القوات الافرنسية الآتية من المغرب . بينما أسندت قيادة المجموعة الثانية للأخ المجاهد (عبد الحميد شيران) ومهمتها التمركز ـ وظهر أفرادها إلى ظهر أفراد المجموعة الأولى ـ لمجابهة قوات العدو التي كانت تتقدم من اتجاه الشرق . ونظمت زمر للقيام بمهمة تأمين الاتصال ـ الارتباط ـ بين المجموعتين ، وتنسيق التعاون فيما بينهما . وأسندت قيادة هذه الزمر إلى المجاهدين (الحاج دوغما) و (محمد بن زيان) .

كان المجاهدون يعرفون تماماً أن معركتهم مع عدوهم هي (معركة استنزاف) تعتمد في أساسها على تجنب الدخول مع قوات العدو في قتال جبهي ـ نظامي ـ. والتركيز على مبدأ المباغتة وما تحدثه من التأثير . وعلى هذا ، فقد صدرت الأوامر إلى الرجال بعدم فتح النار على العدو قبل الظهيرة ، وأن يتم فتح النار بصورة مباغتة وعندما تصل قوات العدو إلى مسافة قريبة جداً من المجاهدين حتى يكون بالمستطاع إنزال أكبر قدر من الخسائر في قوات العدو . وبذلك تتوافر الفرصة أيضاً أمام المجاهدين حتى يقوموا بالانسحاب من مواقعهم ليلاً ، مستفيدين من ظلمته للوصول إلى نقطة التجمع . غير أنه وقع في هذه الفترة ـ وحوالي الساعة العاشرة صباحاً ـ حدث غير متوقع قلب مخطط المجاهدين رأساً على عقب . إذ بينما كانت طائرتان (من نموذج ب ـ ٢٦) تقصفان من غير هوادة المرتفعات والوديان بالقنابل والغازات الخانقة ، ظهرت طائرتان (من نموذج الجونكر) وأخذتا في التحليق فوق رؤوس المجاهدين استعداداً لإنزال حمولتهما من رجال المظليين .

نفد صبر مهرة الرماة ، فأطلقوا نيران أسلحتهم على طائرتي (الجونكر) وأصابوا بالتأكيد مستودع الوقود في إحدى الطائرتين ، فاندلعت فيها النيران وهي في السماء ، وسقطت على مسافة غير بعيدة عن موقع المجاهدين بأكثر من مائة وخمسين متراً ، وتمزقت بانفجار لم يبق على أحد من ركبها الطائر ـ على قيد الحياة ـ بمن فيهم قائد الطائرة وملاحوها . وهنا عادت قيادة المجاهدين فأكدت أوامرها السابقة بعدم فتح النار إلا عند وصول قوات العدو إلى مسافة قريبة جداً من مواقع المجاهدين . ولكن حدث بصورة مباغتة أن هبطت طائرة عمودية (هيليكوبتر) محملة بالضباط القادة ـ الجنرالات ـ إلى

جوار طائرة (الجونكر) المحترقة والمدمرة . ويظهر أن هؤلاء قد أقبلوا لمعرفة سبب الكارثة . وأخذ قائد المجموعة المقابلة للشرق (المجاهد عبد الحميد شيران) في متابعة ما يجري أمامه ، فقد كان الجنرالات ـ القادة ـ لا يبعدون عن موقعه بأكثر من مائة وخمسين متراً ، وكان باستطاعته أن يميز بمنظاره رتب هؤلاء القادة والأوسمة والشارات التي تلتمع تحت الشمس وهي تزين صدورهم . ولم يتمكن من مقاومة الإغراء الماثل أمامه . وكان جنده يتحفزون مثله لقنص هذا الصيد الثمين ، فأخذت الحماسة بالقائد (شيران) . وأخذ في تلاوة الآية الكريمة على مسمع مجاهديه ـ وهي بعد البسملة ـ : « **يَأيها النَبيُ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ ، إنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرونَ صَٰبِرونَ يَغْلِبُوا مِائَتين وَإنْ يَكُنْ مِنكُمْ مائةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفرُوا بأَنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ عَنْكُمْ وعلم أن فِيكُمْ ضَعْفاً فَإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَينِ بِإذْنِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ مَعَ الصَٰبِرينَ ـ صدق الله العظيم** »(*) **ثم قال لمجاهديه : « ها هو اليوم الذي هجرتم من أجله كل ما هو عزيز عليكم طلباً لإحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر . فلا تخافوا من كثرة عدد العدو ووفرة عتاده . اصبروا واثبتوا » وانتصب واقفاً وصاح بملء صوته ، وبكل قوته : « الله أكبر ـ والنصر لنا »** . وأصدر أمره بفتح النار ، وتمت إبادة مجموعة الضباط القادة بلحظة واحدة فقط . وأعقب ذلك اشتباك عنيف استمر حتى الساعة الخامسة مساء .

مرت ساعات كان الضجيج خلالها نوباً بين هدير طائرات (ت ـ

(*) سورة الأنفال ـ الجزء العاشر ـ الايتان ٦٥ و٦٦ .

٦) والطائرات العمودية مرة ، ثم هدير طائرات الجونكر وطائرات (ب ـ ٢٦) مرة أخرى . وكان ذلك مختلطاً بدوي انفجارات القنابل والصواريخ وأزيز الرصاص : وكانت كل نوبة من القصف يتبعها هجمات متتابعة من قوات العدو الأرضية لا تلبث حتى تتوقف مباشرة عندما تصطدم بنيران المجاهدين الغزيرة والدقيقة . وخلال ذلك كله ، بقي العدو مستمراً في تضييق حلقة الحصار بين فكي قواته لوضع المجاهدين أمام واحد من خيارين لا ثالث لهما : فإما الاشتباك في صراع جسم لجسم ، وإما محاولة قيام المجاهدين بخرق الحصار ، مما يضع المجاهدين ـ في الحالين ـ أمام مأزق حرج ، إذ باستطاعة العدو في الحالين استثمار تفوقه الساحق ـ عددياً ـ من أجل القضاء على المجاهدين . وعلى كل حال ، فقد رفض المجاهدون الاشتباك مع العدو في قتال الالتحام ـ جسماً لجسم ـ وقرروا القيام بانسحاب تدرجي ، وعلى مراحل ، وفقاً للطريقة التقليدية في التناوب بين النار والحركة : وشرع العدو على الفور بتنظيم المطاردة ، وأفاد المجاهدون من تأثير المباغتة ، فأوقعوا في قوات العدو خسائر كبيرة .

بدأت وحدة المجاهدين ـ المجابهة للمشرق ـ انسحابها بحادث مؤسف ، إذ استطاعت إحدى الطائرات النفاثة تحديد موقع الرشاش الثقيل ، فقصفته بصاروخ مزق رامي الرشاش (الشهيد بوعمامة) وأصابت عدداً من المجاهدين بجراح مختلفة . ونظراً للمسافة القصيرة التي كانت تفصل بين المجاهدين وأعدائهم ، فقد تركز جهد قائد الوحدة (شيران) على سحب الأسلحة والرشاشات الثقيلة بصورة خاصة حتى لا تقع في قبضة العدو . وكانت حلقة الحصار حول هذه المجموعة محكمة جداً . فأعطى قائد الوحدة أمره إلى

قائدي الفصيلتين (تاج) و (جلالي) بالتناوب فيما بينهما لإجراء قفزة جديدة على طريق الانسحاب . وتأبط قائد الوحدة رشاشه ، وانصرف لتأمين الجرحى ووضعهم في ملجأ أمين يحميهم من الخطر . وأمكن تنظيم إخلائهم إلى الوادي عن طريق نقلهم واحداً بعد الآخر ، وتغطية انسحابهم بالنيران .

وهنا حدثت معجزة حقيقية . معجزة أثارت الأمل في النفوس . ففي هذه الفترة كانت الوحدة المتمركزة في اتجاه الغرب ـ لمواجهة القوات القادمة من المغرب ـ قد تعرضت لمأزق صعب ، وجابهت ضغطاً قوياً . فأصدر قائدها (غاوطي) أوامره بالانسحاب التدريجي ـ وبالتناوب ـ وعندما رأى العدو تحرك القوات المنتظم من جانبين متعاكسين ـ متضادين ـ اعتقد بأن المجاهدين يقومون بمناورة لتطويق قواته . واعتقد أيضاً أن هذا التحرك ـ أو المناورة ـ هي جزء من خطة عامة للمجاهدين الذين افترض وجودهم في كل مكان . فأصدرت القيادة الافرنسية أوامرها إلى قواتها بالتراجع ، حتى لا يباغتها الثوار (الفلاقة) بحركة تطويق على مؤخراتها . وهنا انفتحت ثغرة واسعة لم يكن يتوقعها المجاهدون ، وأمكن لهم بذلك المرور مع جرحاهم وأسلحتهم الثقيلة وأعتدتهم ، والانتقال إلى الجهة المقابلة من الوادي . حيث احتلوا هناك مواقع قتالية جديدة .

كان العدو يعتقد أن بإمكانه أخذ المجاهدين أسرى بعد إحكام قبضته عليهم ، وعندما وصلت قواته إلى الأماكن التي كانوا يحتلونها ، لم تجد فيها أحداً . وكانت خيبة أمله كبيرة عندما عرف بأنهم قد انسحبوا بعيداً ، وأصبحوا خارج مجال عمل أسلحته الآلية ـ الأوتوماتيكية ـ وذلك باحتلالهم المواقع المواجهة له على المنحدرات الجبلية . ولم يبق أمام جند العدو الذين أصيبوا بالإحباط ، إلا أن

جنود جيش التحرير الوطني أمام حطام طائرة أسقطوها

يوجهوا شتائمهم وإهاناتهم المقذعة للمجاهدين الذين كان باستطاعتهم الرد بإهانات أقذع ولكن أقل فحشاً لأنه ليس بإمكانهم مجاراتهم في مجال الفحش والرذيلة ـ ولو بكلمات الإهانة .

لم يعد للمجاهدين في مواقعهم الجديدة من شغل يشغلهم إلا اتقاء ضربات الطيران ، والعمل لمجابهة إغارات الطائرات التي اشتدت وطأة هجماتها وهي تلقي قنابلها المحرقة وقنابل النابالم . غير أن أحداً من المجاهدين لم يصب بأذى ـ بفضل الله ورعايته ـ وكان لا بد من احتمال وطأة القتال حتى الليل . ولكن هنا حدثت المعجزة الثانية ـ وكانت معجزة حقيقية أيضاً .

فقد هبت عاصفة رعدية يندر هبوبها في مثل هذا الفصل من السنة . وأظلمت سماء الصحراء . فاضطرت حشود العدو للانسحاب ، وهي في حالة من الفوضى الشاملة والاضطراب المثير . ولم يدع المجاهدين هذه الفرصة تفوتهم ، فأطلقوا على العدو بعض الرمايات التي زادت من فوضاه واضطرابه .

تجمعت قوة المجاهدين مع هبوط الظلام ، وغادرت مواقعها متجهة إلى قبيلة (مرانيات) التي كانت تضرب خيامها على مسافة غير بعيدة . فوجد المجاهدون عندها ما أنساهم شقاء نهارهم . لقد كانت القبيلة كلها في عيد ، فاستقبلت المجاهدين بالأهازيج والهتاف والترحيب والغناء على قرع الطبول وصيحات الفرح . وكانت الموائد قد أعدت مسبقاً على شرف المجاهدين ، فهل كانت القبيلة واثقة مسبقاً من حتمية انتصار المجاهدين ؟ . مهما كان عليه الأمر ، فقد أكدت هذه التظاهرة العفوية ما يتمتع به الإنسان المسلم من تعاطف كبير مع مجاهديه ، وما عرف عنه من الأريحية وكرم الضيافة .

وعاش المجاهدون لحظات لا تنسى ، تحوط بهم كل ظواهر العناية الممكنة والرعاية التي لا يمكن تصورها أو تصويرها . واستراح المجاهدون في إغفاءة قصيرة ، ثم استأنفوا تحركهم نحو (جبل المعيز) بهدف أخذ قسط من الراحة ، لتضميد الجراح ، وإخلاء الجرحى والمرضى ، وتفقد الأسلحة ، والاستعداد لمعارك جديدة ، إذ كان كل واحد من المجاهدين يعرف عن قناعة ثابتة ، بأن طريق الجهاد لا زال طويلاً وشاقاً . ويتطلب كثيراً من الجهد حتى يتم بلوغ الهدف .

كانت نتيجة المعارك في هذا اليوم التاريخي ، كالتالي :

خسر العدو طائرة جونكر مع كل ركبها الطائر (١٢٠ ـ ١٥٠ قتيلاً) وبقي حطامها متناثراً فوق أرض (وادي الثعابين) حتى هذا اليوم . بالاضافة إلى الضباط الذين تمت إبادتهم في بداية الاشتباك . وخسر العدو في معاركه عشرات القتلى والجرحى ، بدلالة أن الطائرات العمودية (الهيليكوبتر) التي أنزلت المظليين في الصباح ، قد اضطرت للعودة والعمل جيئة وذهاباً طوال النهار لإخلاء القتلى والجرحى .

ومقابل ذلك ، فقد استشهد رامي الرشاش الثقيل (بو عمامة) بالإضافة إلى استشهاد مجاهد كان مريضاً ورفض الانسحاب مع إخوانه الجرحى . علاوة على عشرة جرحى كانت جراحهم خفيفة .

ذلك هو وجيز المعركة التي وقعت يوم ٢٩ حزيران ـ جوان ـ ١٩٥٧ والمعروفة باسم (معركة الصحراء) أو (معركة الجنوب) .

٩ ـ إعدام (فروجي)(*)

جن جنون الاستعماريين بسبب ما كانت تحققه الثورة الجزائرية من انتصارات متتالية ، وأخذوا في البحث عن وسائل ظنوا أنها تصل بهم إلى النصر ، وأنها تمكنهم من توجيه ضربة حاسمة للثورة . وعلى هذا زجوا بقواتهم المشتركة (البريطانية ـ الافرنسية) في العدوان على مصر وإنزال القوات على أرضها ، وكان لا بد لقيادة الثورة الجزائرية من القيام بعمل مثير وضخم ، للتأكيد على بقاء الثورة ، وللبرهان على استمرار وجودها . فتقرر إعدام عمدة الجزائر العاصمة (بو فريق أميدي فروجي ـ الذي كان رئيس اتحاد عمداء الجزائر) والناطق باسم الاستعماريين . وتم تعيين زمرة من الفدائيين المغاوير الذين عرفوا بنشاطهم ، والذين توافرت لهم الخبرة للاضطلاع بتنفيذ مثل هذه المهمة . وقد شملت هذه الزمرة (عبد زيناتي) و (مزيان حجاب) و (رباح جعفور) و (قدور الملقب بـ : العيون الزرقاء) . وكان لكل واحد منهم مهمته المحددة بدقة : فقد كان (جعفور) هو الرامي ـ وكان شاباً رياضياً يحمل النطاق الأسود

(*) للكاتب الجزائري (جعفور بو عالم) والمرجع :
RÉCITS DE FEU (SNED) S. N. EL MOUDJAHED, ALGER. 1977 P. P- 210- 212.

في المصارعة اليابانية ـ الجيدو ـ أما (العيون الزرقاء) فكان واجبه المراقبة وحماية الرامي . وكان واجب (الحاجب) تأمين انسحاب الرامي . أما واجب (الزيناتي) فهو قيادة السيارة .

* * *

عمل أفراد زمرة الفدائيين المغاوير على مراقبة (فروجي) مراقبة مستمرة في الليل كما في النهار وطوال أيام عديدة ، مع متابعة تحركاته في ذهابه ومجيئه ، وعاداته . ومواعيد تحركاته . وكان المجاهد (بو جملين الهراش) قد التحق بالثوار ـ الماكي ـ . وأخذت الشرطة السرية الافرنسية في مطاردته وتتبع أثره ، فترك سيارته (السيتروين) الجديدة لزمرة المغاوير . غير أن أفراد هذه الزمرة استخدموا خلال مرحلة المراقبة عدداً من السيارات المختلفة ، واستطلعت خلالها أيضاً أفضل الطرق التي يمكن اتباعها خلال الأوقات المختلفة ، وذلك بهدف اختيار أفضل الطرق بعد تنفيذ المهمة . وفي النهاية ، قرر أفراد زمرة المغاوير تنفيذ مهمتهم يوم ٢٨ كانون الأول : ديسمبر ـ ١٩٥٦ .

غادر (فروجي) منزله الواقع في (١٠٨ ـ شارع ميشليه ـ ديدوش مراد حالياً) وذلك في الساعة (٩,٥٠) ليمتطي سيارته (بيجو ـ ٤٠٣) كانت لوحتها تحمل بالأحرف الافرنسية (ن . ر ـ ٧٦ ـ د . يو ـ ٩١) وكانت متوقفة بصورة ملاصقة للبيت تماماً . وما إن حاول فتح الباب الأمامي ـ الأيمن ـ حتى بادره (جعفور) بطلقة من مسدسه عيار (٧,٦٥) أصابته في رقبته ، ثم أتبعها بثلاث رصاصات في قلبه . وأسرع الرامي والمراقب والمكلف بالحماية إلى السيارة ـ الستروين ـ التي كان محركها يعمل بأقصى سرعته ، وانطلقت السيارة كالسهم . ووصل رجال الشرطة إلى مكان الحادث

فوراً فأذاعوا باللاسلكي (الراديو) أمراً بإلقاء القبض على (رباح جعفور) و (مزيان حجاب) وإيقاف السيارة الستروين التي أعلن عن رقمها .

اتبعت زمرة المغاوير الطريق الذي حددته مسبقاً لانسحابها . وتركت أول أثر لها عندما اخترقت أول حاجز عسكري اعترض طريق السيارة في منطقة (الداي حسين) . وأتبعته بالحاجز الثاني عند (كريسونيير) . ثم سارت على طريق (بير خادم) . ومرت من أمام مركز الشرطة ، فمركز قيادة الجيش ، ثم إلى حي (فوكرو) حيث كان يقع مركز تتجول فيه دورية من الشرطة ـ البوليس ـ بصورة ثابتة . ونجح أفراد زمرة المغاوير في وضع طرد أسلحتهم ضمن أحد المنازل . وتركت السيارة في مكان قريب من منزل (مزيان حاجب) مع تسليم مفتاح السيارة إلى أخي الرامي (حامد جعفور) ليتولى أمر إخفائها . والتجأ أفراد زمرة المغاوير إلى مخزن يمتلكه (الحاج عواوا) . أما (زيناتي) فقد ذهب إلى منزله الذي كان قريباً جداً من مكان إخوانه .

لم تمض أكثر من برهة قصيرة حتى تدفق سيل السيارات العسكرية الكبيرة (ناقلات الجند) وأخذ الجنود في تطويق المنطقة . وكان (حامد جعفور) أول من رأى جند الفرنسيين . فأسرع لإنذار زمرة المغاوير التي نجح أفرادها في مغادرة المكان عبر قطاع لم يكن قد خضع بعد لمراقبة العدو . وكان باستطاعة (زيناتي) أن يرتدي بسهولة ثياب سائق يعمل في شركة المواصلات العامة ، وأن يغادر المكان دون قلق ، ومن غير أن يثير أدنى شك أو ريبة . أما (رباح جعفر) و (مزيان حاجب) و (قدور ـ العيون الزرقاء) فقد لجأوا إلى مخبأ يقع حالياً في شارع (عبد المجيد حطاب) حيث كان

هناك تاجر يبيع الزيوت وبلح البحر ، وهو صاحب المخبأ والمسؤ ول عنه .

أثار مقتل (فروجي) موجة من الذعر الشديد في أوساط الاستعماريين . فدفعوا أذنابهم للقيام بالمذابح التي سقط ضحيتها عدد من النساء والأطفال والشيوخ في الجزائر . وفي منطقة (بو فريق) . ووضعت قنبلة موقوتة بالقرب من القبر حتى تنفجر في لحظة دفن الجثة . غير أن إحكام القنبلة كان سيئاً ، فانفجرت قبل وصول الموكب الجنائزي بقليل . ورد الأوروبيون على ذلك ، عند خروجهم من المقبرة ، فهاجموا كل من صادفوه في طريقهم من المسلمين وقتلوه . كما قذفوا بعدد من المسلمين إلى البحر ، وذبحوا كثيرين ، وما من أحد يعرف عدد الضحايا البريئة التي أزهق الأوروبيون أرواحها .

❊ ❊ ❊

نجح أفراد زمرة المغاوير في مغادرة العاصمة ـ الجزائر ـ . وانضموا إلى إخوانهم المجاهدين في صفوف الثوار ـ الماكي ـ واشتركوا في تنفيذ عدد من العمليات ، وخاضوا مجموعة من المعارك ضد العدو ، حتى استشهدوا بشرف وهم يحملون السلاح (في حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٧) وذلك في (جبل بوزغزا) .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الأنفال ـ الآية ٦١ ـ ٦٢)

قراءات

١ ـ نداء الطلاب ـ والاضراب التاريخي (١٩٥٦) .

٢ ـ تعليمات وأوامر إدارية ـ بومدين (١٩٦٠) .

٣ ـ بيان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (١٩٦٢)

٤ ـ أمر يومي من قيادة الأركان العامة (١٩٦٢) .

١ ـ الاضراب التاريخي للطلاب

الاضراب التاريخي ـ ماي ـ ١٩٥٦[*] .

النداء الصادر عن الطلبة الجزائريين بعاصمة الجزائر .

أيها الطلبة الجزائريون !

بعد اغتيال أخينا (بلقاسم زدور) من طرف البوليس الفرنسي ، وبعد مصرع أخينا الدكتور (زراجب) ، وبعد فاجعة الأخ (إبراهيمي) الطالب بمعهد بجاية الثانوي الذي أحرقته القوات الافرنسية بالنار حياً ، عندما أحرقت قريته التي رجع إليها في العطلة الدراسية ، وبعد اغتيال كاتبنا (رضا حوحو) الكاتب العام بمعهد (عبد الحميد بن باديس) بقسنطينة ، وبعد التعذيب الذي لقيه الإخوان الدكتور (هدام ـ بقسنطينة) و (بابا أحمد) و (طوبال) في تلمسان . وبعد إلقاء القبض على إخـواننا الزملاء (عمارة) و (لونيس) و (صابر) و (تواتي) و (زروقي) و (المهدي). وبعد إخفاء زميلنا (صبحي) ، وبعد الاستفزازات التي شنها البوليس الافرنسي ضد (منظمة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) . ها هو البوليس الفرنسي ينتزع من بين أيدينا أخينا (فرحات حجاج) الطالب ، والناظر بالقسم الداخلي في ثانوية (ليسيه) (ابن عكنون) مع مواصلة . . . والتعذيب ما يزيد عن

(*) المرجع : مجلة الشباب ـ العدد (٢٥) ـ اوت ـ آب ـ ١٩٦١ ص ٢٠ .

عشرة أيام (وما يتبع ذلك من مشاركة القضاء الفرنسي والإدارة العليا بالجزائر التي نظرت في هذه القضية) إلى أن وصلنا خبر اغتياله من طرف البوليس بمدينة (جيجل) .

إذن ! فالانذار الذي سجله إضرابنا يوم ٢٠ جانفي (كانون الثاني) ١٩٥٦ لم يجد نفعاً .

إن التحصيل على شهادة زائدة قد يجعل منا جثة حقيقية ،

لأي شيء تصلح إذن هذه الشهادات العلمية التي تمنح لنا في وقت يكافح فيه شعبنا كفاحاً بطولياً ، في وقت انتهكت حرمات أمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا ، في وقت يسقط فيه أطفالنا وشيوخنا تحت رصاص الرشاشات وقنابل النابالم .

(ونحن إطارة المستقبل) ماذا تحيط إطاراتنا ؟ ومن تحيطهم ؟ الخراب وأشلاء الجثث ؟ من دون شك جثث قسنطينة وتبسة وسكيكدة وتلمسان وغيرها من الجهات والمدن .

إن الوضعية التي نحن عليها لا ترضي ضمائرنا .

إن واجبنا ينادينا إلى مهام استعجالية .

واجبنا ينادينا إلى التضحية المتواصلة بجانب الذين يكافحون ويستشهدون أحراراً مجابهين العدو .

إننا نقرر الإضراب التام ، وبصفة عاجلة ، ونقرر مقاطعة الدراسة والامتحانات إلى أمد غير معين .

يجب مبارحة مقاعد الجامعة للالتحاق بصفوف جيش التحرير .

يجب الالتحاق جماعات بجيش التحرير الوطني الجزائري وبجبهة التحرير الوطني الجزائرية .

الجزائر ١٩ ماي - أيار - ١٩٥٦ .

٢ ـ تعليمات وأوامر إدارية

أعادت الحكومة الجزائرية المؤقتة تنظيم أجهزتها في الجلسة التي عقدتها في طرابلس ـ ليبيا ـ سنة (١٩٦٠) . وعينت (بومدين ـ هواري) مسؤولاً عن قيادة جيش التحرير الوطني . فأصدر (بومدين) مجموعة من التعليمات والأوامر الادارية . وهي تبرز بعض المشكلات التي كان يجابهها جيش التحرير خلال تلك الحقبة التاريخية . هذا ومن الملاحظ ضعف التركيب اللغوي ـ في اللغة العربية ـ ويمكن أن يعزى سبب ذلك إلى كتابته بأسلوب بسيط حتى يفهمه الجميع . ويعكس ذلك بداهة ما تعرضت له اللغة العربية ، وما وصلت إليه بسبب التركيز الاستعماري المستمر لتدمير اللغة العربية في الجزائر(*) .

(*) المرجع : (وثائق مركز ـ المتحف الوطني للمجاهدين) وهناك نسختان من هذه الوثائق نسخة كتبت باليد ـ ونسخة طبعت على الآلة الكاتبة . وكلتاهما تحمل توقيع (بو مدين) غير أنهما تختلفان في صياغتهما . ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مقارنة (الاعلام) الوارد أعلاه والمطبوع بالآلة الكاتبة مع النص التالي المكتوب باليد ـ وهو كالتالي :

(إعلام)

(نعلموكم على القانون اللي خرج في ٢٧ حتى ٣١ جانفي ١٩٦٠ التاع الحكومة المؤقتة =

(اعـــلام)

من الفصل المؤرخ في ٢٧ جانفي إلى ٣١ منه ١٩٦٠ .
للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

بعد المواقف التي اختتمها المجلس الوطني للثورة المجتمع في طرابلس . تأسست قيادة عليا عامة ، لتمسك بيدها جميع المشاكل العسكرية للثورة . هذه القيادة العليا العامة تتركب كما يلي :

الكلونيل : بومدين ـ مسؤ ول القيادة العليا العامة .

الأعضاء :

الكمندان : سليمان .

الكمندان : منجلي .

الكمندان : عز الدين .

ليكن هذا الاعلام في علم كل المصالح والفرق المجاهدة في اجتماع منظم .

للجيش ٨ فبراير ـ ١٩٦٠ .

الكلونيل ، مسؤ ول القيادة العليا العامة (بومدين) .

(القرار رقم ١)

احتياجات السنة السادسة من الكفاح ، جعلت حالة الحكومة

= للجمهورية الجزائرية . بعدما اجتمع المجلس الوطني أنتاع الثورة في طرابلس ، تكونت قيادة عامة ، باش تكون هذه القيادة تحكم بيدها جميع المسائل العسكرية أنتاع الثورة ، وهذه القيادة متركبة من :

الكولونيل : بو مدين ـ المسؤ ول العام أنتاع القيادة ومعه ثلاثة مسؤ ولين ، وهم : الكومندان ـ سليمان . الكومندان ـ منجلي . الكومندان ـ عز الدين . وهذا الخبر يكون في علم الناس ! الكل اللي يخدموا في مصالح الثورة في اجتماع منظم . للجيش ٨ فبراير ـ ١٩٦٠ . الكولونيل مسؤ ول القيادة العليا العامة ـ بو مدين .

المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، لأن تسرع في تنظيم عجلات مصالح الثورة .

القيادة العليا العامة التي تكونت في هذا الإطار قررت بقوة تطبيق السياسة العسكربة التي اختتمتها وجعلتها قرارات الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وعلى هذا العمل ، يتوجه نداء إلى جميع الطبقات للعمل الكبير الشريف الذي تنتظره البلاد ، ويجعل جميع المسؤولين والجنود يوجهون نظرهم نحو المستقبل ، ونحو الجزائر ، ويجندون أنفسهم بإرادة ، لكل الظروف . وباختصار ، جميع المسؤولين الذين هم على رأس كل العجلات الموجودة أن :

١ ـ يبينوا جميع الحالات التي أظهرتها مقدرتهم ، للقيادة العليا العامة .

٢ ـ يبتعدوا على جعل قرارات هامة بدون أن يطلعوا السلطة العليا . إنه يمنع بشدة القيام بالتجنيد . القيادة العليا العامة هي القادرة في اتخاذ القرارات .

٣ ـ يقدموا كل الاقتراحات المفيدة التي يريدونها في إطار التغييرات المنتظرة .

٣ ـ بيان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى الشعب الجزائري

أيها الشعب الجزائري !

بعد عدة أشهر من المفاوضات الصعبة والمثمرة ، تم التوصل إلى اتفاق عام في مؤتمر إيفيان بين الوفد الجزائري ، والوفد الفرنسي ، وهذا يعتبر انتصاراً كبيراً يحرزه الشعب الجزائري الذي انتزع ضمان حقه في الاستقلال . وبهذه المناسبة نعلن باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، المفوضة من المجلس الوطني للثورة الجزائرية وقف القتال في كافة أنحاء التراب الوطني ابتداء من يوم الاثنين ١٩ مارس (آذار) ١٩٦٢ على الساعة التاسعة ليلاً ، كما نأمر باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كافة القوات وقف جميع العمليات العسكرية والأعمال المسلحة في جميع أنحاء التراب الوطني .

أيها الجزائريون ! أيتها الجزائريات !

لقد مرت سبع سنوات ونصف تقريباً على حمل الشعب الجزائري للسلاح من أجل التحرر من النير الاستعماري وانتزاع استقلاله وسيادته الوطنية ، والمجد للشعب الجزائري الذي سجل خلال هذه الفترة في تاريخه الحافل ، إحدى أروع ملاحمه . والمجد لجميع ضحايا الحرب والشهداء الذين سقطوا ليعيش الشعب

الجزائري ، وللجرحى العديدين الذين كانوا رمح المعركة ، وللمعتقلين والمساجين الذين طالما قاسوا وعانوا من المعتقلات والمحتشدات الاستعمارية ، فإليكم جميعاً يكن الشعب عزاً أزلياً ، وستحتفظ الأجيال بالذكريات الخالدة للمثل الذي أعطيتموه . فبفضلكم وبفضل إخلاصكم وتضحياتكم اللامحدودة أحرز تقدماً كبيراً على طريق التحرر .

ففي هذا اليوم ، وفي هذه اللحظات التاريخية ، نوجه تحياتنا باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى الشعب الجزائري البطل ، الذي دفع الفدية الغالية للحرب ، وسمح بفضل شجاعته وتفانيه بإنقاذ الوطن المسحوق أكثر من قرن من الاستعمار ، وباسترجاع كرامته .

أيها الجزائريون ! أيتها الجزائريات !

لقد واجه الشعب الجزائري طوال سبع سنوات ونصف من الحرب الشرسة ، أعتى قوة استعمارية عرفها القرن ، جندت ما يزيد على المليون من الجنود الفرنسيين ، وكل الأسلحة العصرية من طيران ومدفعية ودبابات وبحرية . وقد دفع ذلك بفرنسا إلى حد إنفاق ثلاثة مليارات من الفرنكات يومياً ، إضافة إلى الدعم الجماعي الذي قدمه لها حلف الأطلسي في شتى المجالات : العسكرية والمالية والديبلوماسية والمعنوية ، وحاولت بمساعدة قسط كبير من المستوطنين الأوروبيين بالجزائر ، العمل دون جدوى للإبقاء على (الجزائر الفرنسية) .

وقد واجه الشعب الجزائري هذه القوة ، قبل كل شيء ، بإيمانه بعدالة قضيته ، وثقته في نفسه ، ومصيره ، وإرادته الثابتة في تحطيم أغلال الاستعمار ، وخاصة بإجماعه في النضال ، وقد نهض

الجزائريون ـ كل الجزائريين ـ من رجال ونساء ، وشباب وشيوخ ، من مدينة الجزائر إلى (تمنراست) ومن (تبسه) إلى (مغنية) كرجل واحد في حرب التحرير . ولم تتمكن محاولات التفرقة ، وتسلل المناهضين للثورة والمستفزين في صفوفهم ، من أن تنال من عزيمتهم ووحدتهم .

وقد شعر الجزائريون بأنهم أعضاء جسم واحد في هذا الكفاح المرير ، وكانت جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني أداة المعركة الفعالة في خدمة الشعب ، وألحق بفضل عملها المستمر ضربات قاضية بالمستعمر ، ونالت الثورة الجزائرية إعجاب الجميع ، وتحظى حالياً بسمعة عالمية جلبت لها العديد من التأييدات .

فإلى أشقائنا المغاربة والعرب وجميع الأفارقة والاشتراكيين وشعوب العالم الثالث ، والديموقراطيين في فرنسا وأوروبا الذين ساعدونا . عرفاننا بالجميل .

وكان هذا الكفاح درساً تستلهم به الشعوب الخاضعة للامبريالية ، إذ أنه حطم خرافة الامبريالية التي لا تقهر ، فبالإضافة إلى مساهمته في تحرير أفريقيا ، أبرز أن أي شعب مهما كان صغيراً ، وبوسائله القليلة ، يستطيع مواجهة أعتى قوة امبريالية ، وينتزع حريته . وقد أجبر الكفاح البطولي للشعب الجزائري ، والمساندة الدولية للقضية العادلة ، أجبر الخصم على التخلي عن مواقفه القائلة (بأن الجزائر فرنسية) . وحمله على الرضوخ لاستقلال الجزائر . وقد أرغم الخصم ، رغم قوة العتاد الذي وضعه طوال سنوات الكفاح المريرة ، على العدول عن الحلم بانتصار عسكري والدخول في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية

الجزائرية . ويكمن الانتصار العظيم الذي حققه الشعب الجزائري في تخلي العدو عن مواقفه السابقة التي تربط كل مفاوضات بوقف القتال . وقد تجسد هذا الانتصار على الصعيد السياسي باستقلال بلادنا بواسطة تقرير المصير الذي ستكون نهايته المنطقية والحتمية بالاستفتاء . وكان من نتائج المفاوضات بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية ، فتح صفحة جديدة في تاريخ بلادنا ، كما كان قرار وقف العمليات العسكرية في كافة أنحاء التراب الوطني ، إحدى نتائج الاتفاقيات المبرمة ، حول ضمان تقرير المصير ومستقبل بلادنا .

وكان مضمون هذه الاتفاقيات مطابقاً لمبادىء الثورة التي تأكدت في مناسبات عديدة ، والتي هي كالآتي :

١ ـ الوحدة الترابية للجزائر في حدودها الإقليمية الحالية ، الأمر الذي يبعد أي محاولة سافرة أو مستترة لتقسيم شمل الجزائر ، ويبعد كذلك كل محاولة لتجزئة بلادنا وصحراءها .

٢ ـ استقلال الجزائر : تتمتع الدولة الجزائرية بكل مهام السيادة والدفاع الوطني والديبلوماسية واختيار توجيهها الخاص على الصعيد الداخلي والصعيد الخارجي .

٣ ـ الاعتراف بوحدة الشعب الجزائري ، وتخلي فرنسا عن مفهومها القاضي بأن الجزائر خليط من الجاليات المختلفة ، **والاعتراف بالشخصية الوطنية للشعب الجزائري ذا الثقافة العربية ـ الإسلامية التي التحمت في لهيب المعركة من أجل الاستقلال .**

٤ ـ الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كمفاوض وحيد ، وممثلاً حقيقياً للشعب الجزائري ، فرض نفسه على الواقع .

وهكذا تطورت مرحلة المفاوضات التي كانت مرتكزة في البداية

على ضمانات تقرير المصير بصفة واقعية ، إلى مفاوضات شاملة حول مستقبل الجزائر .

أيها الجزائريون ! أيتها الجزائريات !

فلنستعد لتحقيق الاستقلال .

إن الاستقلال ليس غاية في حد ذاته ، وإنما هو وسيلة فقط ، تسمح بتحويل وضعية بلادنا التي تمر من حالة الركود الاستعماري الى وضعية بلد حر يخوض معركة البناء الاقتصادي والتحرر الاجتماعي .

ان هناك مهاماً كبرى تنتظرنا ، وهي النهوض ببلد عرف الخراب بسبب ما يزيد على سبع سنوات من الحرب ، وتضميد الجراح والقضاء على البطالة ومحاربة التخلف ، كما أنه يقع علينا واجب بناء مجتمع جديد يعكس وجهه الجديد الفتي ـ الجزائر الحرة ـ التي يقدم فيها كل المواطنين مساهمتهم ، وكل هذه المهام تفرض علينا من الآن بذل الجهود أكثر من قبل ، وتعبئة جميع الطاقات ودعم الوحدة والتلاحم الكاملين ، والالتزام بالانضباط واليقظة لإحباط مناورات الاستفزازيين ودعاة الانقسام والديماغوجية .

فعلى كل الجزائريين ملازمة حالة التأهب ، وسيتم توطيد تنظيم الجماهير في الجزائر ، وتدعيم الروابط السياسية والديبلوماسية التي التحمت في غضون سبع سنوات من الكفاح .

أيها الجزائريون ! أيتها الجزائريات !

إن وقف القتال لا يعني السلم ، وإن مرحلة الانتقال ما هي إلا إعداد لحالة الاستقلال ، غير أنها لا تعني الاستقلال ، وما دام الاستقلال لم يعلن بعد والدولة وحكومة الجزائر الحرة ليستا على التراب الوطني ، ينبغي على الشعب والمجاهدين والمناضلين اعتبار

أنفسهم في حالة تجنيد وملازمة اليقظة طوال المرحلة الانتقالية ، وينبغي على كل مسؤول مناضل البقاء في منصبه .

وسيواصل شعبنا القوي بوحدته أمام العالم ، نضاله لبلوغ الأهداف التي سقط من أجلها مئات الآلاف من المواطنين الجزائريين .

أيها الجزائريون ! أيتها الجزائريات !

فلنضاعف الطاقات ، ولنستعد لإنشاء دولة جزائرية مستقلة ذات سيادة ، تسمح لنا بإرساء أسس لجمهورية جزائرية ديموقراطية اجتماعية .

يحيا الشعب الجزائري ، يحيا استقلال الجزائر[*] .

(*) مجلة (المجاهد) الجزائرية . العدد (٩١) - ١٩ مارس - آذار - ١٩٦٢ - والمرجع - ملفات وثائقية (٢٤) وزارة الإعلام والثقافة - الجزائر - اوت (آب) ١٩٧٦ ص ٧٥ - ٧٦ .

٤ ـ أمر يومي من قيادة الأركان العامة
(١٩ ـ آذار ـ مارس ـ ١٩٦٢)

أيها الضباط وضباط الصف ،

أيها المجاهدون والمسبلون والفدائيون !

في أول نوفمبر (تشرين الثاني) **١٩٥٤** ، وبعد (**١٢٤**) سنة من ليل مظلم ، ثار الشعب الجزائري ، وإنكم لتعرفون آثار ونتائج هذه العملية جميعاً لأنكم عشتموها .

وطوال قرابة ثماني سنوات ، لم يساوم الشعب الجزائري ، الذي وقف كرجل واحد ، ولم يبخل أبداً بأي شيء للوطن . وإن آلاف الشهداء يشهدون على ضمانة تضحيات هذا الشعب .

فالويل والدمار لمن ينسى هذه التضحيات !

أيها المكافحون في صفوف جيش التحرير الوطني !

اليوم أعلن عن وقف القتال . وإن هذا العمل ليضع حداً لمرحلة من أكثر المراحل التي عرفتها البلاد من حيث الاضطراب والعنف . وكما كان الشأن بالنسبة لعملية أول نوفمبر (**١٩٥٤**) فان هذا العمل ليفتح في الافق إمكانيات هائلة لبلدنا . وإن نتائج هذه المرحلة الثانية ستوقف علينا نحن فقط ، ونحن ما سنكون عليه ، إما يقظين حقيقيين ، أو لا مبالين وغير مسؤولين .

إن وقف القتال ليس هو السلام . وكما أن السلام ليس هو

الاستقلال ، فان الاستقلال ليس هو الثـورة . أي إن المعركة ما زالت مستمرة ، وستكون أكثر ضراوة ، وأكثر تعقيداً وأكثر دقة ، وذلك أكثر من أي وقت مضى .

أيها الضباط وضباط الصف ،

أيها المجاهــدون !

إن الطريق الذي سيوصلنا إلى الأهداف الأساسية للثورة ما يزال طويلاً ، وهو طريق خطير لأنه مزروع بالعراقيل والعقبات المتصدرة .

إن الوفاء للقسم الذي أعطيناه لشهدائنا يفرض علينا ، ويتطلب منا ، طيلة سنوات أخرى التعبئة في كل وقت . وطالما لم يصبح الاستقلال ملموساً ومجسماً فإنه لن يسمح لأي كان بأن يخرج عن الصفوف ، وأن يضع سلاحه ، وأن يستسلم للراحة السهلة .

أيها المكافحون الأبطال ، ويا أيها الحراس اليقظون ، إنكم ستبقون كما كنتم حتى النصر النهائي .

أيها المناضلون ، والمجاهدون !

بعد حوالي ثماني سنوات من الكفاح ، ما زال شعبنا مشتتاً ، وهياكله الاجتماعية مضطربة ، وثرواته مخربة . وليس من حق أي واحد منا أن ينسى هذا الحصار المؤلم . وعليه فإنه يتعين ، وبكيفية إجماعية ، أن يعاد لهذا الشعب إطار الحياة العادية والتوازن الاقتصادي والاجتماعي الذي يكون في مستوى طموحاته وتضحياته . فمن هو أولى وأكثر أمانة منكم بأن يؤمن له عودة كرامته وثرواته وحريته في العمل ، ويضمن له سيره السريع نحو التقدم ؟ لا أحد !

فمنذ الآن ، وبالنسبة لكم ، فان الطريق مسطر كله . والمعركة مستمرة . وإذا كانت الأسلحة ستسكت ، فإن العمل الثوري يجب أن

يتضاعف أثناء فترة إعادة البناء والتشييد ، المردة في أول نوفمبر .

لقد تعلمتم أثناء الكفاح أنه ليس ثورياً من يرغب في ذلك أو من يعلنه ، ولكن ذلك الذي هو مقتنع بمبادئنا ، ويرسم لنفسه خط سير وتصرف دقيق في إطار هذه المبادىء . ويبرهن بالعمل ، وبالعمل وحده ، على ذلك .

أيها الضباط وضباط الصف ،

أيها المجاهدون والمسبلون والفدائيون !

في الوقت الذي نتلقى أمر وقف القتال ، لنرجع بأفكارنا إلى شهدائنا الذين يراقبوننا من أضرحتهم ، ولنحيي ونترحم بخشوع على أرواحهم وذكراهم الخالدة .

أيها المجاهدون ! لهؤلاء قدموا سلاحكم ! وقدموا لهم التحية والتشريف اللائقين بذكراهم وبمقامهم ! ولنؤد لهم مرة أخرى القسم على متابعة المعركة ، يقظين ، وسلاحنا أمامنا ، ولنكن دائماً على استعداد ! ولنجدد لهم عهدنا بأن نبقى على مستوى تمنياتهم الغالية . رواداً وضامنين لطموحات الثورة وأهدافها ، ساهرين على إنجازها الكامل .

أيها المكافحون في صفوف جيش التحرير الوطني !

إن الشعب الجزائري يراقبنا . والأمة تنتظرنا . وإن استعجال وتعقيد المهام يدعونا ، كما أن حيل العدو ترصدنا . ولذلك فإن مسؤوليتنا أثقل من أي وقت مضى .

ولا تنسوا أيضاً أن الشعوب المضطهدة ، التي تابعت يوماً بعد يوم سير كفاحنا وتقدمه ، تنتظر بفارغ الصبر الطريقة التي ستتبلور بها ثورتنا ، وطريقة التشييد التي يتعين علينا اختيارها والقيام بها . وبما أن الثورة الجزائرية ذات طابع عالمي ، فنحن مدينون بانتصارها

لاتجاه شعبنا فقط ، ولكن أيضاً تجاه جميع الشعوب التي تتطلع إلينا بأنظارها .

فلنعرف كيف نسمو بأنفسنا إلى مستوى هذه الحقيقة السامية ، ولنضم الصفوف ، ولنبق ثابتين ويقظين .

لتحيا الجزائر الثورية(*) .

(*) المرجع : ملفات وثائقة (٢٤) وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر (آب ـ اوت ـ ١٩٧٦) ص ٧٧ .

(محتوى الكتاب)

الفصل الثاني

قراءات